

روايات الهلال

أمسيات قزب قزبية ديكانكا

نيقولاى جوجول

الجزء الثانى



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٥ - مايو ١٩٧٩ - جمادى الثاني ١٣٩٩
No. 365 - May 1979

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبوالمجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير : موسى عبيد

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان
بالبريد العادي . وبلاد اتحادى البريد العربى والأفريقي وباكستان ثلاثة ونصف
جنه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي
وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما للقسائم الإشتراكات بدار الهلال فى
ج . ٥٠ ع . ٥٠ بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد المسالم بشيك مصرفى لامر
مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسمار الموضحة اعلاه عند الطلب
أسسار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال»
الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر
سوريا ٢٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق . ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الأردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا أردنيا »
الكويت ٢٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « أربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٠٤ ريال « أربعمائة ريال ونصف ريال »
الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد بن العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

**الغلاف بريشة الفنانة
نماذج محمد تركي**

أحاديث قرب قرية ديكانكا

الجزء الثاني



نيقولاى جوجول



إبراهيم زكى خورشيد

دار الهلال

الجزء الثاني



مقدمة

هاكم الجزء الثانى ، وخير لى ان أقول الجزء الاخير ! ولم تكن بى رغبة فى ان أخرجه الى الناس ، اجل لم أكن أريد ان أخرجه قط ، ذلك انه لايجوز للمرء ان يطيل حتى يثقل ، ولا اخفى عليكم ان اهل القرية بدءوا يسخرون منى قائلين : « لقد اختل عقل الرجل العجوز ، فراح يتسلى بلعب الاطفال فى شيخوخته! » ، والحق انه قد آن لى ان استريح ، ولعكم ايها القراء الاعزاء تظنون اننى انما ادعى الكبر، فكيف بى ولم يبق فى فمى سن واحدة ! وانا الان اذا وقعت على شىء لىن أحاول ان امضغه ، ولكننى لا أستطيع أمرا اذا أصبت شيئا يابسا .

وهأنذا ادفع اليكم بكتاب آخر ! وكل ما أريده ، الا تتناولونى باللوم ، فليس اللوم من شيمة الكرام عند الفراق ، فما بالك اذا جهلوا متى يكون اللقاء ، وما يعلمه الا الله ؟ وستجدون فى هذا الكتاب قصصا رواها قوم لا تعرفونهم على الاطلاق ، اللهم الا اذا كنتم تعرفون منهم فوما جريجوريفتش الذى لم يلم بهذه الناحية منذ وقت طويل ، اجل ذلك السيد الذى كان يرتدى سترة فى لون البازلاء ، ويتحدث بتلك اللفة الفصيحة التى كانت تند عن أفهام كثير من ذوى العقول الراجحة بمن فيهم اهل موسكو انفسهم . انه لم يزرنا منذ تشاجرنا جميعا ، وانى لاحسب اننى لم أحدثكم بأمر هذا الشجار ام ترونى حدثتكم به ، لقد كان مهزلة ولاشك .

فقدحل بى فى يوم من ايام الصيف الماضى ضيوف جاءوا لزيارتى، وكان ذلك على ما اظن فى عيد القديس شفيعى . ولا اخفيكم ايها القراء الاعزاء ان جيرانى ، متعمه الله بالصحة والعاقية ، لا ينسون الرجل العجوز . لقد انقضى خمسون عاما منذ بدأت احتفل بعيد القديس شفيعى ، اما عمرى ، فلا انا ولا زوجتى العجوز نستطيع

ان نحدده ، ولاشك انه نحو السبعين . اما الذي يعلم تاريخ مولدى فهو الاب خارلمبى ، القسيس الذى كان فى ديكاتكا ، على انه يؤسفى ان اقول انه توفى منذ خمسين عاما . اذن فقد حل بى ضيوف جاءوا لزيارتى وهم زخاركيرلوفتش شوخوبوبنكو، وستيفان ايفانوفتش كوروشكا ، وتاراس ايفانوفتش سماتشنىكى ، ومساعد القاضى خارلمبى كيرلوفتش خلوسطا ، وكان بينهم زائر آخر نسيت اسمه .. اوسيب .. اوسيب .. تالله ان كل من فى ميرجورود يعرفه ! فانه ما ان يبدأ فى الكلام حتى يفرق باصابعه ويضع ذراعيه فى خاصرتيه ، ولكن دعونا من هذا ! ولاذكرن اسمه حالا . وجاء ايضا ذلك السيد البتاوى الذى سبق ان عرفتم امره . اما فوماجريجوريفتش فلم ادخله فى عداد الضيوف لانه واحد منا . وراح كل من الحاضرين يتحدث ، ولا اخفيكم اننا لا نتحدث ابدا فى توافه الأمور ، ذلك اننى دائما احب الحديث اللائق الطريف حتى اجمع بين المتعة والمنفعة كما يقولون ، وكان حديثنا يدور حول تخليل التفاح ، وقالت زوجتى : ان التفاح يجب ان يغسل اولا غسلا جيدا ثم ينقع فى الجعة الخفيفة ، ثم ..

وهب السيد البتاوى يقطعها وهو يضرب يده فى جيب سترته التى فى لون البازلاء ويلدع الغرفة فى رصانة ووقار : « لا غناء فى ذلك كله على الاطلاق ! بل يجب اولا ان تدرى حشيشة الدود على التفاح ثم .. » ولكننى اسألكم ايها القراء الاعزاء : «هل سمعتم بتفاح يدر بحشيشة الدود؟ ان الناس قد يستعملون اوراق الزبيب الاسود وعشب الخنزير والهندقوق ، اما ان يضاف على التفاح حشيشة الدود فشيء لم اسمع به من قبل ، وانى لاحسب انه ما من احد يعرف فى هذه الشئون اكثر مما تعرف زوجتى ، ولكن هذا هو ما حدث ! » وانتحيت بالرجل جانبا فى هدوء كما يفعل الجار الطيب وقلت له : « على رسلك يامقارنازاروفتش ، ولكن لاتجمل الناس يضحكون منك ! فانك رجل ذو شان ، وقد تناولت عشاءك على المائدة التى تناول عليها المحافظ عشاءه على حد قولك انت نفسك ، ولئن قلت شيئا من هذا القبيل جمعت القوم جميعا يسخرون منك ! » فكيف كان جوابه فيما تظنون ؟ انه لم يجز

جوابا ! بل بصق على الأرض وتناول قبمته ثم مضى . لقد كان خليقا به ان يلقي بكلمة وداع الى انسان ، او يومئ الينا براسه ايماء واحدة ، ولكن كل ما سمعناه هو صوت عربته بجرسها المثبت فوقها ، ثم وقفت عند الباب فركبها وسارت به ، ثم . . مع السلامة ايضا !

ذلك اننا لانريد ضيوفا على شاكلته ، ولا اجد مغرا ايها القراء الاعزاء من ان اقول لكم انه ليس في هذا العالم أسوأ من اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا . ان الرجل يشمخ بانفه على كل انسان لان عمه كان مأمورا في يوم من الأيام ، كأنما لا يوجد في العالم طبقة أعلى من طبقة المأمور ! ولاشك ان من الناس من هم اعظم من المأمور . كلا ! اننى لا احب اولئك الناس الذين ينتمون الى انطبقة العليا ، ولكن مثلا فوما جريجوريفتش ، فهو ليس من هذه الطبقة ، ولكن انظروا اليه ، ان وجهه ينم عن العزة والكرامة في هدوء ووقار ، ولا يسلمك الا ان تحبه وتحترمه ، حتى حين يصيب قدرا من السعوط المألوف . ويمعز القلم عن وصف مايلفه صوته من اثر في النفس عندما ينشد مع فرقة الرنمين في الكنيسة ، ان قلوبكم لخليقة بان تذوب ذوبانا عند سماعكم هذا الصوت ! على حين ان الرجل الآخر ، ولكن دعونا منه ، فانه يظن الاغنى لهذا عن قصصه ، ولا عليكم فهكم كتابا من القصص لاشأن له به .

وانى لاذكر اننى كنت قد وعدتكم بان اضمن هذا الكتاب قصتى انا ايضا ، وقد صح عزمى على ان ادخلها فيه فعلا ، الا اننى وجدت انها سوف تقتضينى ثلاثة كتب من هذا الحجم على الأقل ، فاستقر رأيى على ان اطبعها على حدة ، وقد فكرت في الامر مليا ، فانى قد خبرتكم ، ولو اننى فعلت هذا لسخرتم من الرجل المعجوز ، كلا ! لن اطبعها ! ووداعا ! وليمضين وقت طويل قبل ان نلتقى مرة اخرى اذا قدر لنا ان نلتقى ، ولكنكم لن تعبسوا بهذا ، بل لن تعبسوا بوجودى ابدا ، ولسوف تتوالى الاعوام عاما في اثر عام ولن يذكر احدكم مربي النحل المعجوز او يحزن عليه !

بانكو الاحمر الشعر

ليلة عيد الميلاد



ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد ، وأسدل الظلام ستاره ، وحلت ليلة من ليالى الشتاء صافية الأديم ، وبصيصت النجوم ، وطلع القمر مهيبا جليلا يظل بنوره اهل الصلاح ، بل يظل القوم جميعا حتى ينعم الكل باناشاد أناشيد الكولياكى (١) ويسبحون بحمد الله ، واخذ الصقيع يشتد عما كان فى الصباح ، وازداد السكوت شمولا حتى كان صوت الجليد يترامى الى الأسماع وهو يقرقع تحت وطء الحذاء على بعد نصف ميل ، ولم تك قد ظهرت بعد جماعة واحدة من جماعات الفتيان تحت النوافذ ، وانما كان القمر يختلس النظر اليهم كأنما يهيب بالفتيات اللواتى كن يرتدين أعلى ما عندهن من ثياب ، ان يعجلن ويركضن على الجليد المقعقع ، وانبثت الدخان فى تلك اللحظة يرتفع حلقات من مدخنة كوخ ويسبح كالسحاب فى اجوازالفضاء ، وارتفعت فى الجومع الدخان ساحرة تمتطى مكنسة .

ولو ان مساعد القاضى فى بلدة سوروتشينتسى قد برز بقبعته التى حليت أطرافها بجلد الشاة وسويت على طراز قبعة

(١) من عاداتنا أن تنشد تحت النوافذ ليلة عيد الميلاد أناشيد تسمى « كولياكى » وتلقى ربة البيت أو ربة أى شخص بقى فيه من اهل الدار ، فى كيس المنشد دائما بعض السجق أو الخبز أو قطعة من النقود النحاسية أو ما استطاع اليه سبيلا ، ويقال : انه اتفق يوما أن كان ثمة شخص غبى يقال له كوليادا فحسبه الناس لها ، ومن ثم نسبت هذه الأناشيد اليه ، ومن يدعى ؟ لعله لا يجوز لقوم بسطاء من أمثالنا أن يدلوا برأيهم فى موضوع كهذا ، وقد حرم الاب أوسيب على الناس فى العام الماضى أن ينشئوا الكولياكى فى المزارع قائلا : انهم انما يجدون الشيطان يفعلهم هذا ، مع أن هذمه الأناشيد قد خلت من كلمة واحدة تشير الى كوليادا ، وهى تدور فى كثير من الاحيان حول مولد المسيح ، ثم يمتنى القوم فى نهايتها الصلحة السابقة لرب البيت وربته وأطفالهما وأفراد الأسرة جميعا .

« تعليق مربي النحل »

الأوغلان (١) ، ومطفه الأزرق القائم البطن بفراء استراخان الأسود، ومر في تلك اللحظة بعربته المشدودة الى جباهه الثلاثة المستأجرة وسوطه الجدول جدلا جهنميا الذي ألف ان يستحث به حوزيه ، لراها بلا شك ، ذلك انه ما من ساحرة في العالم تستطيع ان تغلت من عين مساعد قاضي سوروتشينتسي ، فهو يستطيع ان يعد على أصابعه عدد ما وضعته خنزيرة كل فلاحه من صغار ، ومقدار ما تحتفظ به في صندوقها من كتان ، وای ثوب من اثوابهم او متاع من امتعة المنزل يرهنه القوم الصالحون في الحانة يوم الاحد ، ولكن مساعد قاضي سوروتشينتسي لم يمر بهذا المكان في عربته ، وای شأن له فيه حتى يمر ؟ لقد كان حسبه ان يعنى بشئون ناحيته .

ولم تلبث الساحرة في هذه الاثناء ان شقت اجواز الفضاء حتى غدت نقطة سوداء صغيرة في كبد السماء ، وكلما ظهرت هذه النقطة السوداء اختفت النجوم واحدا في اثر آخر ، وسرعان ما جمعت الساحرة منها ملء رذنها ، وبقي من النجوم ثلاثة او أربعة ظلت تتألق ، ثم ظهرت فجأة نقطة صغيرة أخرى من مكان آخر ، واخذت تكبر وتكبر ثم تستطيل وتستطيل ، فلم تعد نقطة فحسب ، وما كان لشخص قصر النظر ان يعرف قط ما الذي صارت اليه ولو وضع على انفه عجلتي عربية المأمور بدلا من النظارات . لقد كان الشكل الذي انتهت اليه يسود من الامام كالالمانى القمح (٢) وكان وجهه الصغير الطويل ، الذي راح يتلوى ويتلف ويتشمم كل شيء في الحاح لا ينقطع ، ينتهى بزر كالزور الذي تنتهى به خطم خنازيرنا، وبلفت ساقاه من النحافة مبلغا لو قدر لشيخ قرية ياريسكى ان يكون له مثلهما لكسرهما ولاشك في اول رقصة قوزاقية يؤديها ، اما من الخلف فقد بدا في نظر الناس جميعا وكبلا للنيابة في زيه الرسمي ، ففسد كان له ذيل طويل مستدق الطرف كالسترات

(١) الاوغلان هم رجال الحرس من التتر .

(٢) لقد اصطلمنا على ان نطلق على اى شخص قادم من بلد اجنبي اسم الالمانى . فهو الالمانى عندنا حتى لو كان فرنسيا او هنغاريا او سويديا .

الرسمية في هذه الأيام ، وانما كانت لحية التيس التي في اسفل ذقنه والقرنان الصغيران البارزان في جهته ولونه الذي لايزيد في بياضه عن لون كناس المداخن ، أجل كان ذلك كله هو الذي يجعل المرء ينكر انه كان المانيا او وكيلا لنيابة ناحية من النواحي ، ويجزم انه من الشيطان . وقد بقيت له ليلة واحدة فحسب يطوف فيها بهذا العالم الفسيح ليقود القوم الصالحين الى المعصية ، ولكن ما ان ينبلع الصبح ، وتدفق الاجراس دقاتها الاولى تدعو الناس الى صلاة الفجر ، حتى يضع ذيله بين ساقيه ويمضى الى وكره لايلوى على شيء .

واسترق الشيطان الخطا في هذه الأثناء صاعدا الى القمر . ومد يده ليمسك به ، ولكنه استردها بسرعة كأنما لسعه القمر بحرارته، ومص أصابعه ، وراح يرقص هنا وهناك ، ثم طار ملتفا به من الجانب الآخر، ثم انقلب مرة أخرى وقد رد يده ، الا ان الشيطان الخبيث لم يكف عن الاعيبه بالرغم مما أصابه من خيبة فوق خيبة، فقد طار مصعدا وامسك بالقمر فجأة بكلتا يديه ، وراح يقذف به بيد ليلقاه بالأخرى وهو يقطب حاجبيه وينفخ فيهما كما يفعل الفلاح اذ يلتقط جذوة نار لظليونه بأصابعه المجردة ، ولم يلبث ان وضعه في جيبه آخر الأمر ، ومضى في طريقه كان لم يحدث شيء البتة .

ولم يلحظ احد من اهل ديكانكا ان الشيطان قد سرق القمر ، صحيح ان كاتب الناحية رأى القمر ، وهو يخرج من الحانة يدب على اربع ، يتراقص في السماء لغير ما سبب ، واقسم على ذلك للقريبة بأسرها ، ولكن الناس هزوا رءوسهم بل سخروا منه . ترى ما الذي دعا الشيطان الى ان يسلك هذا المسلك الشائن ؟ لقد دعاه الى ذلك انه علم ان القندلفت كان قد دعا شوب القوزاقى الثرى الى وليمة عشاء من العصيدة يرتدى فيها قريب من اقرباء القندلفت ، يعمل مع فرقة الرنمين التابعة للأسقف ، سترة زرقاء فاتمة ويستطيع ان يؤدى أغلظ القرارات من النغم ، وقد دعى الى هذه الوليمة أيضا شيخ القرية وسفير بيجوز القوزاقى وغيرهما ، وأعد العشاء بحيث يشتمل على الفودكا الطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران ، واطاب المأكولات من كل لون ، فضلا عن عصيدة عيد الميلاد ، ولسوف

ترك ابنته وهي فتنة القرية ، وحيدة في المنزل في اثناء ذلك .

ولم يك ثمة شك في ان الحداد ، ذلك الفتى الوسيم العظيم القوة سيزورها ، وكان الشيطان يكرهه اكثر مما يكره عطات الاب كوندرات . وكان الحداد يصرف اوقات فراغه في النقش حتى عده الناس ابرع الفنانين في الناحية ، ولا ادل على ذلك من ان الضابط القوزاكي ب - كو الذي كان لا يزال على قيد الحياة في تلك الايام ، قد ارسل في طلبه من بلتاوة خصيصا لينقش له السور الذي يحيط بمنزله ، وكانت جميع الطاسات التي يتناول فيها قوزاق ديكانكا عشاءهم من الحساء من نقش ذلك الحداد .

لقد كان رجلا يخشى الله وكثيرا ما نقش الايقونات ، بل انك لترى حتى اليوم الصورة التي صنعها للوفا الانجيلي في كنيسة ت ، ولكن اروع آثاره هي الصورة التي رسمها على جدار الكنيسة في الهيكل الذي الى اليمين ، وقد صور فيها بطرس الرسول يطرد الشيطان من جهنم يوم الحساب ، وتملك الشيطان الفرع وهو يتكهن بمصيره فأخذ يجري على غير هدى ، على حين شرع أهل المعصية الذين اطلق سراحهم يطاردونه ، ويضربونه بالسياط وقطع الخشب وكل ما يقع في أيديهم . وبينما كان الفنان يصنع هذه الصورة ويرسمها على لوح كبير من الخشب ، راح الشيطان يبذل كل ما في وسعه ليعوقه عن عمله ، فلكزه في ذراعه خفية ونفخ بعض الرماد من الكور الى دكان الحداد ونثره على الصورة ، الا ان الحداد انجز الصورة بالرغم من ذلك ثم حملت الى الكنيسة وركبت في جدار الهيكل الجانبي ، فأقسم الشيطان لينتقم من الحداد .

ولم تك قد بقيت للشيطان الا ليلة واحدة يجوس فيها خلال الارض ، وكان يبحث عن وسيلة يصب بها جام غضبه على الحداد في تلك الليلة ، ولذلك صبح عزمه على سرقة القمر مقدرا ان شوب المعجوز كان بليدا بطيء الحركة وان كوخ القندلفت كان بعيد الشقة . وكان الطريق يمر بالطواحين وبالمقبرة التي في خارج القرية وبلتف حول اخدود ، وكانت الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران خديقتين باغراء شوب اذا كانت الليلة مقمرة ، اما اذا كانت ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة فقد كان من المشكوك فيه ان يستطيع انسان

جره من اريكة الموقد واخرجه من الكوخ ، وما كان الحداد الذي ساءت علاقته به منذ وقت طويل ، ليجرؤ مهما كانت الحال ، ومهما بلغ من قوته ، على زيارة الابنة وابوها مقيم في المنزل .

وهكذا كان ، فما ان اخفى الشيطان القمر في جيبه حتى ساد الظلام العالم كله فجأة فتعذر على اى امرىء ان يشق طريقه الى الحانة ، فما بالك اذا كان مقصده هو كوخ القندلفت . واطلقت الساحرة صرخة عندما وجدت نفسها في الظلام فجأة وهرع اليها الشيطان ، وهو يكثر لها من الانحناء والابتسام ، وامسك بذراعها واخذ يهمس في اذنها بتلك العبارات التى ألف الرجال ان يهمسوا بها في اذان النساء جميعا . الا ما اعجب تدبير الامور فى عالمنا هذا ! ان كل من يعيشون فيه يحاولون دائما ان يقلد بعضهم بعضا كأنهم القردة ! لقد كان القاضى والمعدة فى الايام الخالية هما الوحيدين من اهل ميرجورود اللذين الفا ارتداء معاطف من النسيج مبطنه بجلد الماعز فى الشتاء ، على حين كان صغار الموظفين يرتدون جلد الماعز العادى .

اما اليوم فان مساعد القاضى وملاحظ الاراضى قد اكتسبا بالمعاطف الجديدة المصنوعة من النسيج والمبطنه بفراء استراخان . وقد اشترى كاتب المركز وكاتب الناحية فى العام الاسبق جلد بط ازرق قاتما ودفعا فى الباردة منه ستين كوبكا ، واكتسى سادن الكنيسة بسروال صيفى من النسيج المعروف باسم « نانكين » ، وصديرى مخطط من الصوف المغزول .

وصفوة القول ان كل انسان كان يحاول ان يكون صاحب شأن ، واعجبا ! متى يكف الناس عن الفرور ؟ انى لعلى استعداد ان اراهن بان كثيرا منهم تنتابهم الدهشة اذا هم راوا الشيطان يسلك هذا المسلك . ومما تضيق له النفس اشد الضيق انه يخال نفسه بلاشك فتى وسيمما بالرغم من ان منظره مشين معيب ، اما وجهه فاشنع من الشناعة كما يقول فوما جريجوريفتش ، ومع ذلك فهو يصطنع الظرف والرقة ! الا ان الظلام كان قد اسدل ستاره على السماء وما تحت السماء ، فعز على الانظار ان ترى ما وقع بين الشيطان والساحرة من بعد !

ووجه شوب القوزاقى ، وهو يخرج من باب كوخه ، سؤالا الى فلاح طويل القامة نحيل يرتدى جلد ماعز قصيرا : « اذن فانك لم تذهب لزيارة القندلفت في كوخه الجديد باصاح . » وبدأ على لحية الفلاح الكثة انه لم تمسسها ، منذ أسبوعين على الأقل ، قطعة مكسورة من منجل الف الفلاحون ان يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم الى موسى ، ومضى شوب يقول وهو يتسم ابتسامة كشف بها عن نواجذه : « لتكونن سكرة طيبة هناك الليلة ، وأرجو الا تكون قد تأخرنا ! »

وشرع شوب في اصلاح شأن الحزام الذى كان يطوق به في احكام جلد الماعز الذى كان يرتديه ، واحكم القبعة على رأسه وأمسك بسوطه الذى كانت ترتعد منه الكلاب المزعجة ، ولكنه رنا ببصره الى السماء ثم توقف .

« يا للشيطان ! انظر ، انظر يا باناس ! »

وسأله صديقه وهو يرنو ببصره أيضا الى السماء : « ما الخبر؟ »

« ما الخبر ، عجبا ! ليس ثمة قمر ! »

« ياله من امر مزعج ! ليس ثمة قمر حقا ! »

وقال شوب وقد نمت لهجته عن شيء من الضيق لما أظهره صديقه من عدم اكتراث يتسم بالهدوء والرزانة : « صدقت كل الصدق ! فليس ثمة قمر ! ولاشك عندى انك لا تحفل بالامر ! »

« وى : وماذا تستطيع ان افعل ؟ »

واسترسل شوب يقول وهو يمسح شاربه بردنه : « لاشك ان شيطاننا تدخل في الامر . الا فليحرم هذا الكلب حرمانا حتى لايجد قدحا يصيبه من الفودكا صباحا ! لعمرى ، كانه يريد ان يسخر منا ! لقد كنت اجلس داخل الكوخ ثم تطلعت من النافذة ، فوجدت الليل غاية في السحر والفتنة ! كان الضوء يفيض والجليد يتألق في ضوء القمر ، حتى لترى كل شيء كأنك فى وضح النهار، وهانذا لا أستطيع ، ولما أبارح باب الكوخ ، ان ارى يدي وهى ميسوطة أمامى ! »

وراح شوب يدمدم ويلقى باللوم وقتنا طويلا ، الا انه كان فى الوقت نفسه يفكر فيما عساه ان يصنع . لقد كان يتوق الى الثرثرة بلفو الحديث على جميع اشكاله وضروبه فى كوخ القندلفت ، حيث كان

شيخ القرية ولاشك جالسا الآن ، هو وذلك المنشد الجهر الصوت وميكيتا تاجر القطران الذي ألف ان يقصد مرة كل أسبوعين سوق بتاوة ويلقى من الملح والتكات ما تشق له جنوب القرويين جميعا من الضحك ، وكان شوب يرى بعين الخيال الفودكا المطيبة على المائدة ، وفي هذا من الاغراء ما فيه ، ولكن حلقة الليل ذكرته بحلاوة الكسل الذي يميل اليه كل فوزاقي من كل قلبه . الا ما امتع ان يستلقى الآن على اريكة الموقد ، وقد طوى ساقيه تحته ، وأخذ يدخن غليونه في هدوء منصتا في نشوة النعاس اللذيذ الى الاغاني والكوليادكي التي ينشدها فتيان وفتيات فاضت قلوبهم بالبشر ، والتأم شملهم جماعات تحت النوافذ ! ولو كان وحده لاستقر رأيه ولاشك على هذا المسلك، اما وهما اثنان معا فلم يكن التماس الطريق في ظلمة الليل بالأمر الذي يدعو الى كل هذا الخوف والفرع ، زد على ذلك انه كان لايجب ان يظهر بمظهر الكسول أو الجبان في أعين الآخرين ، وما ان فرغ من اللوم حتى التفت الى صديقه قائلا :

« اذن فليس ثمة قمر يا صاح ؟ »

« اجل »

« ما أعجب هذا حقا ! اسمح لي بنشقة من السعوط ، فان سعوطك لرائع يا صاح ، من اين لك به ؟ »

فأجاب صديقه وهو يفلق صندوق السعوط المصنوع من لحاء شجر البتولا والمحلى ببعض الرسوم البارزة : « أرائع هو حقا ؟ عجبا ! انه لا يحمل دجاجة عجوزا على العطس ! »

فقال شوب : « اذكر ان زوزوليا صاحب الحانة أتى لي ببعض السعوط من نزين ، آه ، لقد كان سعوطا بحق ! اجل كان سعوطا طيبا ! والان مارايك يا صاح ؟ ان الظلام حالك كما تعلم »

فأجابه صديقه وهو يمسك بمقبض الباب : « اذن ، فخير لنا فيما أظن ان نلزم الدار » .

ولو لم يقل صديقه هذا لاستقر رأى شوب ولاشك على ان يلزم الدار ، الا ان شيئا كان يستحسه الآن فيما يظهر على معارضته : « كلا يا صاح فلنذهب ! فانه لا يليق بنا التخلف ، بل يجب ان نذهب »

وأحس شوب حتى وهو يقول ما قال ، بالفيظ من نفسه لانه اقدم على هذا الفعل ، ذلك انه كان يكره كل الكره ان يخرج في ليلة كهذه ، على انه احس بالرضا والغبطة ، فقد كان هو صاحب القرار ولم يستمع في ذلك لنصح أحد .

وتلفت صديقه حوله وحك كتفيه بمقبض سوطه ولم تبد على وجهه اية علامة تدل على الضيق شأن من لايبالي : الزم الدار أم بارحها ؟ .. وهكذا شرع الصديقان في رحلتها .

ولتر الآن ماذا كان من أمر ابنة شوب الجميلة وهي وحيدة في كوخها . لقد كان الناس جميعا قبل ان تبلغ أوكسانا السابعة عشرة، لايكادون يتحدثون الا عنها سواء في هذا الجانب من ديكاكا أو فيما وراءه ، وقد اجمع الفتيان على ان القرية لم تشهد ولن تشهد فتاة اجمل منها . وكانت أوكسانا تسمع وتعرف كل ما يقال عنها ، كما كانت كفيها من الحسان متقلبة الأهواء ، ولو انها ارتدت من الملابس ماترتديه السيدات الفاضلات بدلا من النقبة المخططة والمزور، ما استطاعت ان تحتفظ قط بخادم . وكان الفتيان يهرعون خلفها زرافات ، الا ان صبرهم كان ينفد ، فينصرفون عن هذه الفاتنة العنيدة واحدا بعد واحد ، ويتحولون الي غيرها من الفتيات اللواتي لم يكن في مثل دلالتها ، ولم يبق منهم الا الحداد الذي ظل يلاحقها بغزله بالرغم من انها لم تكن تعامله البتة خيرا مما تعامل سواء .

وما ان خرج ابوها حتى قضت أوكسانا وقتا طويلا ترتدي أفخر ثيابها ، وتزين وتتأنق امام مرآة صغيرة في اطار من الزنك ، الا انها لم ترض عن زينتها وحسنها كل الرضا .

وقالت كأنما شرد منها الفكر، فأرادت ان تتحدث الى نفسها بشيء وحسب : « ما الذي القى في روع الناس ان يذيعوا عنى اننى جميلة؟ انهم يكذبون ، فلست جميلة على الاطلاق ! »

الا ان الوجه الصبوح الذي انطبع في المرآة ، بشبابه النضير البريء وعينييه السوداوين المتألتين وابتسامته الفاتنة التي تجل عن الوصف وتهز النفس هذا ، كان ينقض ما تزعم في الحال .

ومضت الفتاة تقول وهي لاتزال ممسكة بالمرآة : « ايمن ان يكون حاجباى الأسودان وعيناي بهذا الجمال الذى لايعرف له في

العالم مثيل ولا ضريب ؟ أى جمال فى هذا الأنف المرفوع وفى هذين الخدين وهاتين الشفتين ؟ وما بال صغيرتى السوداوين ؟ أجميلتان هما أيضا ؟ أف ! انهما خليقتان بأن تدخلتا الرعب فى قلب المرء اذا جن الليل ، فهما تلتويان وتلتفان حول راسي كأنهما الأفاعى الطويلة ، واني لأرى الآن اننى لست جميلة على الإطلاق ! » ، ثم أبعدت المرأة قليلا وصاحت : « أى نعم ، انى لجميلة ، آه ، ما أروع حسنى ! ان جمالى لعجيب ، ولاكونن قرّة عين من يتزوجنى من الرجال ! ولشد ما يعجب بى زوجى ! ليستخفنه الطرب ، فيقبلنى ويقبلنى حتى ليزهق منى الأنفاس ! »

وهمس الحداد وهو يدخل الكوخ فى رفق وهدوء : « يا لها من فتاة عجيبة ! ثم ألم ينل منها الفرور شيئا ؟ لقد ظلت واقفة أمام المرأة ساعة لا تستطيع ان تنتزع نفسها منها ولا تكف أيضا عن اطراء نفسها جهارا نهارا ! »

ومضت الفتاة الجميلة ذات الدلال قائلة : « او كفاء انا لكم ايها الفتيان ؟ انظروا الى وتاملوا رشاقة خطوى ان قبيصى مطررز بالحريير الاحمر ، ويا للشرائط التى تزين راسى ! لن تقع عينكم أبدا على اثمن من هذه الشرائط ، لقد اشترى لى أبى كل هذا ليزوجنى زينة شباب العالم طرا » ، ثم قهقهت والتفتت فرأت الحداد .

فاطلقت صرخة ووقفت تواجهه ساكنة رابطة الجاش .

وسقطت يدا الحداد الى جنبه فى ياس .

وليس من اليسير ان نصف التعبير الذى لاح على وجه الفتاة الضارب الى السمرة ، لقد كان فيه صرامة تلمح من خلالها لونا من ألوان السخرية بالحداد الذى ظهر عليه الارتباك . وشابت وجهها فى الوقت نفسه مسحة رقيقة لا تلاحظ من الخجل الدال على الغضب ، واختلط هذا كله ، فأكسبها حسنا يجل عن الوصف ، ولا تستطيع حياله الا ان تمطرها لتوك بفيض من القبلات لا يحصى ولا يدرك له عدد .

وانشأت اوكسانا تقول : « لماذا جئت ؟ اتريد منى ان القى بك من الباب بمجرفة ؟ ما أبرعك فى تخير الوقت لزيارتنا ! انك لتتنسم من فورك اللحظة التى يغيب فيها الآباء عن المنازل . واهأ لك ، فانى اعرفك ! هل اتممت صنع صندوقى ؟ »

« لاتجزئه بعد عيد الميلاد يا قرة عيني ، آه لو تعلمين مقدار ما انفتحت من جهد في صنعه ، انى لم ابارح الدكان ليلتين ، وهيهات ان تحظى ابنة قس بصندوق مثله . ان الحديد الذى طوقته به لافضل من الحديد الذى وضعته في عربة الضابط عندما كنت اعمل في بلتاوة ، ويا للظلاء الجميل الذى ساطليه به ! لن تجدى له مثيلا وان فتشت في الناحية بأسرها سميا على قدميك البيضاوين الصغيرتين ، ولاثرن عليه الأزهار الحمر والزرق ، فيتوهج توهج النار ، فلا تفضى منى ، واسمحي لى على الأقل بأن احدثك وأن انظر اليك!»

« لتحدثنى وتظنن الى ماشئت .. فما من احد يمنعك »

وجلست على الأريكة وتطلعت في المرآة مرة اخرى ، واخذت تصلح شعرها ، ونظرت الى عنقها والى قميصها الجديد المطرز بالحريير الاحمر ، وتلالات شفتاها ووجنتاها الناضرتان بشعور خبيث بالرضا تجلى اثره في عينيها .

وقال الحداد : « اسمحي لى ان اجلس بجوارك »

فقال اوكسانا ، وما زال الشعور نفسه يتلالا على شفتيها وفى عينيها الراضيتين « اجلس »

وقال الحداد وقد ازداد جراءة : « ما اروع حسنك اى اوكسانا الجميلة ! اسمحي لى ان اقبلك ! » ، وجذبها نحوه وقد اعترم ان يختلس منها قبلة ، ولكن اوكسانا اشاحت عنه بخدها الذى كان قريبا من شفتيه كل القرب ، ودفعته بعيدا عنها .

« او تريد شيئا آخر؟ لن تنال الشهد حتى تلمس الوسيلة اليه! اغرب عني ، فان يديك اقسى من الحديد ، ورائحة الدخان تفوح منك ، وانى لاحسب انك لوئت جسمى كله بالسناج الذى ينضح منك » ثم تناولت المرآة ، واخذت تتأمل نفسها فيها مرة اخرى .

وقال الحداد يحدث نفسه وقد مال رأسه : « انها لاتحبني ! وانما هى تعبت في كل هذا الامر ، على حين اقف انا امامها كالابله لا أستطيع أن احول عيني عنها ، بل احب ان اقف امامها دائما لا ارد عنها بصرى ابدا ! يا لها من فتاة غريبة الأطوار! واتى لابذل النفس والنفيس لأعلم ما في قلبها ومن تحب ، ولكنها لا تبالي أحدا، وانما هى تعجب بنفسها . انها تعذبني انا المسكين ، فينظر قلبى من

الحزن حتى لأجد نفسي في ظلام ليس بعده ظلام . انى احبها حبا لم يكبده أحد من قبل ولا من بعد »

وقالت اوكسانا : « اصحيح ان امك ساحرة ؟ » ، ثم ضحكت ، وشعر الحداد بأن كل ما فيه يضحك ، وبدا له ان هذا الضحك يتردد صدها في قلبه وفي عروقه التي أخذت تختلج اختلاجا عذبا ، ألا ان نفسه كانت بالرغم من هذا كله قلقة لانه لم يكن يحق له ان يقبل ذلك الوجه الضاحك البديع .

« وماذا يهمنى من امر امى ؟ انما انت ابى وامى بل كل ما هو عزيز في هذا العالم ، ولو ان القيصر ارسل طلبى وقال لى : « ايها الحداد فاكولا تمن على اعز ما في مملكتى اعطك اياه – لامرئهم ان يصنعوا لك كورا من الذهب تعمل فيه بمطارق من الفضة ، أجل لو ان القيصر قال لى هذا لأجته : « لست ابالى الأحجار الكريمة او مملكتك وحسبى ان تهب لى فتانى اوكسانا » .

فقال اوكسانا وهى تبتسم في مكر ودهاء : « يا لك من فتى ان ابى ليس أيضا بالفر الأحمق ! ولتعلمن هذا عندما يحجم عن الزواج من امك ! ولكن الفتيات لم يحضرن بعد ، فما بالهن ؟ لقد كان أولى بنا ان نبدا فى انشاد الكوليادكى منذ زمن طويل ، فانى قد مللت الانتظار ! »

« خير لنا ان ينأين عنا يا فاتنتى ! »

« آه ، كلا ! وانى لأحسب ان الفتيان سيأتون معهن ، فنستطيع ان نلهو ونمرح ، وانى لأتخيل القصص التى سوف يروونها ! »
« اذن ستمرحين معهم ؟ »

« أجل ، وليكونن مرحى معهم اكثر من مرحى معك ، آه ! ان بعضهم يقرع الباب ، ولا بد انهم الفتيان والفتيات »

وقال الحداد بينه وبين نفسه : « فيم يقائى بعد ؟ انها تسخر منى ، ولست عندها بأكثر قيمة من حدوة حصان قديمة علاها الصدا . ولكن اذا كان الأمر كذلك فلن ادع رجلا آخر يهزأ بى ، فلئن تبين لى انها تعجب بشخص أكثر مما تعجب بى ، لأؤدبته حتى يبتعد عنها »

ودوت طرقة على الباب وصيحة مجلجلة فى الصقيع ، تهتف :

« افتحى : » فقطعت عليه تأملاته .

وقال الحداد : « انتظروا ! وسافتح الباب » ، ثم خرج وقد تملكه الغضب حتى نوى ان يكسر ضلوع اى شخص الم بالباب .

وزاد الصقيع حدة ، واشتد البرد فى الطبقات الملييا من الجو حتى أخذ الشيطان ينط على ظلف تارة وعلى الظلف الاخر تارة اخرى ، وينفخ فى قبضتيه محاولا ان يبعث الدفاء فى يديه المتجمدتين ، و اى عجب فى ان يشعر بالبرد وهو الذى الف ان يجوس فى ارجاء الجحيم يوما بعد يوم ، حيث لا تبلغ البرودة ، على ما نعرف جميعا ، مبلغ الشتاء عندنا ، وحيث يضع قبعته على رأسه ويقف امام الموقد ، كأنه الطاهى الحق ، يشوى اهل المعصية مغتبطا اغتباط الفلاحة وهى تقلى المقائق « السجق » فى عيد الميلاد .

وشعرت الساحرة ايضا ببرودة الجو ولو انها كانت ترتدى من الملابس ما يبعث فى اوصالها الدفاء ، فقذفت بذراعيها الى اهلى ووقفت تمد قدما من قدميها واتخذت هيئة رجل يسابق الريح على قباب التزحلق دون ان تحرك عضلة واحدة من عضلات جسمها ، ثم انزلت فى الهواء كأنها تهبط منحدرًا من الثلج ، ودخلت مدختها لا تلوى على شىء .

وتبعها الشيطان على هذا النحو نفسه ، ولكن هذا المخلوق كان اخف حركة من اى رجل متعاجب يرتدى الجوارب ، فلا غرو انه وقع على عنق خيلته عند قمة المدخنة ، ووجد كلاهما نفسه بين القدور فى فرن رحب فسيح الأرجاء .

وزحزحت الساحرة باب الفرن خلسة لترى : ادما ابنها فاكولا بعض الضيوف الى الكوخ ، ام لم يدع ؟ ولكنها لم تر أحدا ، الا الأكياس الملقاة على الأرض ، فتسللت من الفرن وخلصت عنها معطفها الدافئ وعادت الى حالتها الطبيعية ، وما كان لاحد ان يذهب فى القول الى انها كانت تمتطى مكنسة منذ لحظة .

وكانت ام فاكولا لاتجاوز الأربعين من عمرها ، ولم تك بالوسيمة ولا بالدميمة ، والحق ان من العسير ان يكون اى مخلوق وسيما فى تلك السن ، على انها كانت بارعة جدا فى غواية القوزاق ، فلا يمنع عنها خيرهم استقامة وصلاحا « ولا يفوتنا ان نذكر ان هؤلاء

القوزاق كانوا لا يحفلون بالجمال كثيرا « حتى ان شيخ القرية وأوسيب نيكيفوروفتش والقندلفت « عندما تقيب زوجته من الدار بطبيعة الحال » ، والقوزاقى كورنى شوب والقوزاقى كاسيان سفير بيجوز قد الفوا زيارتها ، ومن آياتها انها كانت تسوسهم فى براعة عجيبة ، فلا يدور بخلد أحد ان له منافسا ، ولو ان سيدا او فلاحا ممن يخافون الله « كما يصف القوزاق انفسهم » يطرح على كتفيه دنارا ذا قلنسوة قد قصد الكنيسة يوم الأحد او الم بالحانة، مافاته قط ان يزور سولوخا ويأكل لقيمات القاضى المصنوعة من الجبن والقشدة المتخثرة ، ويشترى فى الكوخ الدائى مع ربته المحدثه اللبقة الانيسة .

وكان القوزاقى يتعمد ان يلف ويدور طويلا قبل ان يبلغ الحانة ، ويسمى هذا « التطلع اثناء الطريق » ، وعندما كانت سولوخا تذهب الى الكنيسة فى يوم من ايام الراحة مرتدية النقبات ذات الخطوط الزاهية اللون وممزرا من القطن ، ومتشحة فوق ذلك بدثار أزرق قاتم طرز على ظهره وشى من ذهب ، وتتخذ موقفاها بالقرب من الجانب الايمن من فرقة المنشدين ، كان القندلفت لايفوته ان يسعل، وان يزر عينيه مومئا اليها فى غير فطنة . أما شيخ القرية فكان يسوى شاربه ويلف فتزعة رأسه خلف أذنه ، ويقول للرجل الذى يجاوره : « آه ، هاك امرأة بمعنى الكلمة ، بلداهية من الدواهى! » ، وكانت سونوخا تنحنى لهما ، فيظن كل منهما انها انما تنحنى له وحده .

وما من امرىء مشغوف بأن يدس أنفه فى شئون الناس الا لاحظ ان سولوخا كانت تعامل القوزاقى شوب معاملة غاية فى الكرم واللطف، ذلك ان شوب كان ارمل ، تقوم امام كوخه دائما ثمانية اكداس من القمح ، وتطل رعوس زوجين من الثيران القوية من مخزن الحبوب المسور الى جانب الطريق ، وتخور الثيران فى كل مرة ترى فيها صاحبها الوفية البقرة أو عمها الثور الربل وهو يمر بها ، وقد ألف تيس ملتج ان يتسلق الى السقف ويشغو فى صوت اجش كصوت العمدة ، زاجرا اللبكة الرومية وهى تخطر فى الفناء ، مدبرا اذا شاهد اعداءه الصبيان الذين جروا على السخرية بلحيته . وكانت صناديق شوب تضم ذخيرة وافرة من الكتان وكثيرا من السترات

والمعاطف العتيقة قد طرزت بالمخمرات الذهبية ، فقد كانت زوجته مفرمة بالملابس النفيسة ، وكانت قطعان من حديقة خضره تزرعان كل عام تبغا ، علاوة على الخشخاش والكرنب وعباد الشمس . وكانت سولوخا تراود نفسها قائلة « الا ضرر لو ضمت كل هذا الى مزرعتها ، وراحت بالفعل تضاعف ما تفدقه على شوب المعجوز من أنفصال ومنن وهى تفكر فيما تكون عليه مزرعة شوب من نظام حسن عندما تثول اليها .

وارادت ان تمنع ابنها فاكولا من مغازلة ابنة شوب والاستيلاء على مزرعته والاستئثار بها « ولو قد تم ذلك لمنعتها على الأرجح من التدخل فى أى أمر » ، فلجات الى تلك الحيلة التى تلجأ اليها عادة السيدات فى سن الأربعين - وهى أن تثير شوب على الحداد كنما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ولعل هذه الحيل الخبيثة وتلك التدابير التى تنطوى على الدهاء هى التى جعلت المعجزة من النساء يرمين بالقول هنا وهناك اذا فرطن فى الشراب بعض الافراط فى اجتماع مرح ، بأن سولوخا ساحرة ولاشك ، وان الفتى كيزيا كولوبينكو قد رأى ذبلا بنبت فى ظهرها لا يزيد طوله على طول مغزل الفلاحة ، وأنها عبرت الطريق مسرعة منذ وقت قريب يرجع الى يوم الخميس الماضى متخذة صورة هرة سوداء ، وان خنزيرة قصدت مرة زوجة القس ، وصاحت كالديك ، ثم وضعت قبعة الأب كوندرات على رأسها ، وركضت لا تلوى على شىء .

وقد اتفق ان مر بالمكان تيميش كوروستيا فى حين كانت المعجزة يروين هذه الروايات ، ولم يفته ان يقص عليهن كيف اتفق له فى الصيف ، قبل صيام بطرس الرسول تماما ، ان استلقى لينام فى حظيرة البقر مسندا رأسه الى شىء من القش فرأى بعينى رأسه ساحرة مرسله الشعر لاتتردى من الملابس الا قميصا ، وقد شرعت تحلب البقر. وشلت اوصال الرجل وعجز عن الحركة ، فقد نال منه الدهول مناله ، ولطخت الساحرة شفثيه بشىء كريبه جدا جعله يبصق اليوم التالى بأسره ، الا ان ذلك كله كان أمرا تحيط به الشكوك ، ذلك ان مساعد قاضى سوروتشينتسى كان هو الوحيد الذى يستطيع ان يرى ساحرة من الساحرات ، لذلك كان أعيان

القوزاق جميعا يلوحون بأيديهم وهم يسمعون هذه الروايات تلويحا ينم عن نفاق الصبر، وقد ألفوا ان يجيبوا على مثل هذه الأقاويل: «أنهن يكذبن ، أولئك العاهرات ! » .

ولما تسللت سولوخا من الفرن وعادت الى حالها الطبيعية اخذت ترتب شئون الدار وتضع كل شيء في مكانه شأن ربة البيت الصالحة ، ولكنها لم تلمس الأكياس ، وقالت تحدث نفسها : «لقد جاء فاكولا بهذه الأكياس ، فعليه ان يخرجها بنفسه » ، وفي هذه الأثناء اتفق ان التفت الشيطان وهو يطير مندسا في المدخنة ، فلمح شوب يتأبط ذراع جاره وهما يسيران على مسافة كبيرة من دارهما، فخرج من المدخنة طائرا وقطع عليهما الطريق وراح يشر اكواما من الجليد المتجمد ، فهبت عاصفة ثلجية ، وساد البياض الجوى، وكان الجليد يدور بسرعة خلف الصديقين وامامهما حتى أوشك ان يطمس عيونهما وأذانهما وفمهما ، وعاد الشيطان طائرا الى المدخنة وهو مقتنع كل الاقتناع بأن شوب سيعود الى داره بصحبة صديقه ، وسيجد الحداد في بيته ، ولعله يؤدبه تأديبا يكفه عن ان يمسك فرشاة الرسم زمنا طويلا حتى يمتنع عليه ان يرسم صورته الهزلية الساخرة .

والحق انه ما ان بدأت العاصفة الثلجية في الهبوب واخذت الريح تصك وجهيها صكا ، حتى تمنى شوب أن لم يشرع في رحلته ، ثم شد قبعته المصنوعة من الفراء على رأسه شدا محكما وراح يصب اللعنات على نفسه وعلى الشيطان وعلى صديقه ، غير ان غضبه كان مفتعلا ، ذلك ان هبوب العاصفة الثلجية افعم قلبه بالسرور ، فقد كان لايزال امامهما من الطريق ثمانية أمثال ما قطعوه منه حتى يلبغا كوخ القندلفت ، فعادا أدراجهما ، وكانت الريح تلمح مؤخر رأسيهما ، الا انها لم يستطيعا ان يريا شيئا في غمرة الجليد الذى كان يدور بسرعة .

وقال شوب بعد ان سارا قليلا : « قف يا صاح ! فانى لاحسب اننا ضللنا الطريق ، اذ لا أرى امامى كوخوا واحدا ، يا لها من عاصفة ثلجية ! امض قليلا في ذلك الاتجاه ، وانظر ان كنت تستطيع ان تجد الطريق ، أما انا فسأرقب الناحية الأخرى ، وما هذا الا

من فعل الشيطان الملعون الذى هيا لى ان اضرب فى هذه العاصفة،
لا تنس ان تنادى عندما تجد الطريق ، آه ، يا لكوم الجليد الذى
القى به الشيطان فى عيني ! »

على ان الطريق غاب عن انظارهما ، فقد ابتعد صديق شوب
عنه ، واخذ يتخط على غير هدى منتعلا حذاءه الطويل ، ووقع
آخر الامر على الحالة المهددة ، وسرته هذه اللقبة الموقفة حتى
نسى كل ما عداها ، ونفض الجليد عن ملابسه ، ودخل الحانة
لتوه ، غير عابىء مثقال ذرة بصديقه الذى تركه فى الخارج. وخيل
الى شوب فى الوقت نفسه انه قد وجد الطريق ، فوقف وصاح
بالعلى صوته ، الا ان صديقه لم يظهر، فاستقر رايه على ان يسير
وحده ، ومضى قليلا فشهد كوخه تحيط به اكوام الثلج من كل جانب
وتعلو سقفه ، وصفق يديه المتجمدتين ، ثم قرع الباب وصاح فى
لهجة حازمة هاتفا بابنته ان تفتح له الباب .

وصاح الحداد فى تجهم وعبوس وهو يخرج اليه : « فيم
مجيئك الى هنا ؟ »

وعرف شوب صوت الحداد فتراجع قليلا ، وقال يحدث نفسه:
« آه ، اذن فهذا ليس كوخى ، وما كان الحداد ليهبط على كوخى،
على اننى قد تبينت بعد ان انعمت النظر انه ليس بكوخ الحداد
ايضا . ترى كوخ من هذا ؟ لقد عرفته ! ولم اك قد تبينته بعد !
انه الكوخ الذى يقيم فيه ليفشكنو الاعرج الذى تزوج شابة فى
مقبل العمر منذ عهد قريب ، ذلك ان كوخه هو الوحيد الذى
يشبه كوخى ، اذن فما الذى جاء بالحداد الى هنا ؟ وى ! لقد
جاء يزور زوجة ليفشكنو الشابة ! وهذا هو السر فى الامر! مرحى
لقد فهمت الان ! »

وقال الحداد وهو يدنو من شوب وقد ازداد تجهما وعبوسا :
« من انت ؟ وما الذى يدعوك الى التسكع على ابواب الناس ؟ »

وقال شوب يحدث نفسه : « لن اكشف له عن شخصيتى والا
ضربنى ابن الخنازير ضربا موجعا » ، ثم غير صوته واجابه بقوله:
« اننى انا ايها الرجل الصالح ! لقد جئت اروح عنكم بانشاد
الكولياكى تحت نوافذكم »

فصاح فاكولا غاضبا : « اذهب الى الشيطان انت وانا سيديك ،
لماذا تقف هناك ؟ اتسمعي ؟ اغرب عني ! »

وكان شوب قد عزم بالفعل على سلوك هذا المسلك الفطن ، الا
ان احساسه بالاضطرار الى الرضوخ لأوامر الحداد اثار فيه الضيق
والحنق ، ويظهر ان روحا شريرة قد لكزت ذراعه واكرهته على
الاعتراض ، فقال ملتزما الصوت الذي حدثه به اولا : « لم تصرخ
هكذا ؟ انما اريد ان انشد الكولياكي، وهذا هوكل ما في الامر! »

« وى ! ارى ان الكلام لايفيك ! » ، ولم يلبث شوب ان شعر
بضربة موجعة تصيب ذراعه .

فقال وهو يرتد قليلا : « ارى انك قد بدأت القتال ! »

وصاح الحداد وهو يدفع شوب دفعة أخرى : « اغرب عني !
اغرب عني ! »

فقال شوب في صوت ينم عن الألم والتبرم والوجل : « ماذا تفعل؟
ارى انك تقا تل بحرارة ، وتضرب أيضا ضربا موجعا »

فقال الحداد : « اغرب عني ! اغرب عني ! » ثم صفق الباب .

وقال شوب عندما أصبح وحيدا خارج الباب : « انظر كيف
يتبختر ويختال ! بل حاول ان تدنو منه ! يا له من فتى ! انه
ليحسن الظن بنفسه ! او تحسب انى لن اناك بسطوة القانون ؟
كلا يا صاحبي العزيز، فلاذهبن من فوري الى الامور ، والقي عليك
درسا ! ويستوى عندي ان تكون حدادا او نقاشا ، ولكن لا محيص
من ان القى نظرة على ظهري وكنتى ، فاني اظن انه قد شابهما
الآن السواد والزرقة . لاشك ان ربيب الشيطان كان يضربنى
بقوة ، ويؤسفنى ان الجو بارد يمتنعى من ان اخلع معطفى . صبرا
ايها الحداد الشرير، وليحطمنك الشيطان ، انت ودكانك معك ،
ولاحملنك على الرقص ! آه ، يا للوغد الملعون ! ولكنى لا اظن انه
فى داره الآن ، بل انى لاحسب ان الدار قد خلت الا من سولوخا .
ايه ، انها ليست بعيدة على كل حال ، وانى لمستطيع ان امضى اليها،
ثم ان الجو ممعن فى السوء ولن يفاجئنا احد ، وقد تواتينا الفرصة
.. واهالى ! لقد اشتد هذا الحداد فى ضربى ! »

وحك شوب ظهره ثم سلك طريقا آخر، وخفف من الله بعض

الشيء ما كان يتوقعه من فرص موالية في لقائه المنتظر لسولوخا ،
وأنقده ذلك الإحساس بالصقيع الذى كان صوت قرعته يطمى فى
جميع الطرق على هدير العاصفة ، وكانت ترتسم على وجهه من
حين الى حين سمة كريمة من الرضا ، وان كانت العاصفة الثلجية
قد غطت لحيته وشاربه يزيد من الجليد اخف وقعا من اى حلاق
يمسك بأنف ضحيته فى تجبر واستبداد . ولو لم تكن غاشية
الجليد قد اخفت كل شيء لرايت شوب يقف بعد ذلك بوقت طويل
ويحك ظهره مغمغما : « لقد ضربنى الحداد الملعون فأوجع ! » ثم
يمضى فى طريقه .

وبينما كان المخلوق المتعجب الخفيف الحركة ، يطمى من المدخنة
بذيله ولحيته التى تحاكي لحية التيس ثم يعود اليها ، اذا بالجيب
المتدلى من حمالة الى جانبه ، أجل الجيب الذى كان يضع فيه القمر
الذى سرقه ، قد علق بشيء فى الموقد فانفتح ، وانتهر القمر هذه
الفرصة فانطلق من مدخنة كوخ سولوخا وسبح فى سهولة ويسر
يشق اجواز الفضاء ، وغمر الضوء كل شيء ، كأنما لم تفش الجو
عاصفة ثلجية ، وتآلق الجليد سهلا فضا فسيح الأرجاء مرصعا
بنجوم كأنها البللور ، وبدأ أن الصقيع قد خفت برودته ، وظهرت
للعيان جماعات الفتيان والفتيات يحملون الاكياس ، وانسابت
الاناشيد ، وانبعثت جماعات المنشدين تصدح بالسكوليا دكى تحت
النوافذ لا تكاد تترك كوخا الا حيثه بالفناء .

وما كان أروع ضوء القمر! وابن ابن القلم الذى يستطيع ان يجد
من الكلمات ما يستطيع ان يعبر به عن مقدار ما تمتلك النفس من
سرور فى مثل هذه الليلة؟ اذ يختلط المرء بجماعة الفتيات المنشدات
الضحكات ويندمج وسط هؤلاء الفتيان الذين لا يجدون ضربا من
ضروب اللهو والمرح توحى اليهم به هذه الليلة الباسمة المرححة الا
التمسوه . ان الدقء ليسرى فى الأوصال تحت العباءة السميقة ،
وتزداد الوجنتان من الصقيع وهجا فوق وهج ، ويفرى ذلك الشيطان
الخبث نفسه بالأذى والضرر .

واقتمحت جماعات من الفتيات يحملن الاكياس كوخ شوب ،
واجتمعن حول اوكسانا ، وأصاب أذنى الحداد وقر من صياحهن

وضحكهن وماكن يروينه من قصص ، ورحن يتنافسن في رواية نبا من الأنباء للعادة الفاتنة وفي افراغ اكياسهن والمفاخرة بالأرغفة الصغيرة والمقاتق « السجق » وقيمات القاضى المصنوعة من الجبن التى جيعن منها عددا لأباس به بانشادهن الأناشيد ، ولاح السرور على وجه اوكسانا ، فاخذت تحدث هذه تارة ، ثم تحدث تلك تارة أخرى ، وتضحك ضحكا متصلا لاينقطع .

وكان الحداد ينظر بعين الحسد والغضب الى هذا المرح ويلعن ما اخذ به القوم أنفسهم من انشاد الكوليادكى ، وان كان هو شخصيا مولعا به

وصاحت العادة التى استخفها المرح ملتفتة الى فتاة من الفتيات : « آه يا اوداركا ! انك ترتدين خفا جديدا ! ما أجمله ! وى ، وعليه وشى من ذهب أيضا ! يالك من فتاة سعيدة يا اوداركا ، فقد وهب الله لك رجلا يشتري لك كل شيء ، أما أنا فأين من يشتري لى مثل هذا الخف البديع ؟ »

وقال الحداد : « لا تحزنى يا حبة قلبى اوكسانا ، فسأتيك بخف لم تحظ به الا القليلات »

فقالت اوكسانا وهى ترمقه بنظرة بريعة تنم عن الإباء والاستعلاء : « انت ؟ بودى ان أعرف من أين تأتي لى بخف أرضى بأن أنتعله فى قدمى؟ من يدري لعلك توافينى بالخف الذى تنتعله القيصرة نفسها! »

وصاحت الفتيات ضاحكات : « انظرن اى خف تريد ؟ »

ومضت الفاتنة تقول فى زهو : « أجل ! ولتشهدن على جميعا ، لو ان فاكولا الحداد اتى لى بالخف الذى تلبسه القيصرة نفسها فأننى أعدكن وعدا صادقا بأن أتزوجه فى اليوم نفسه ! »

وخرجت الفتيات وفى صحبتهن هذه الفتاة الفاتنة المتقلبة .

وقال الحداد يحدث نفسه وهو يتبعهن : « اضحكن اذا شئتن ! فانى أسخر من نفسى ! ولست أدرى ماذا دهانى ! انها لاتجبنى - وى ! واى ضمير فى هذا ؟ كان العالم قد خلا الا من اوكسانا ، احمد الله فان القرية لحافلة بغيرها من الفتيات الجميلات ، وماذا تكون اوكسانا ؟ انها لن تكون أبدا ربة بيت صالحة ، فهى لانهسن

الا التائق ، ولاضمن حدا لهذا حقا ، فقد آن لى ان أكف عن
السخرية بنفسى ! »

واعترزم الحداد ان يصطنع الحزم ، ولكن روحا شريرة اطلقت في
النحلة نفسها طيف اوكسانا يسبح امامه ، وتمثلت له الفتاة ضاحكة
ساخرة وهى تقول : « ائتنى بخف القيصره ايها الحداد اتزوجك! » ،
فشارت مشاعره كلها ولم يستطع ان يفكر الا فى اوكسانا .

وانبعثت حشود المترنمين بالكوليا دكى زمرا من الفتيان والفتيات
يسمعون مهرولين من شارع الى شارع . الا ان الحداد مضى فى طريقه
لايرى شيئا ، ولم يشترك فى المرح الذى كان يحبه اكثر من أى
انسان آخر .

وكان الشيطان فى هذه الأثناء يطارح سولوفا الغرام بحرارة
فيقبل يدها فى رقة كما يفعل مساعد القاضى حين يقبل يد ابنة
القس ، ويضع يده على قلبه ويتأوه ، ويقول لها فى غلظة : « انها
ما لم ترض بأشباع هواه وتجزيه على اخلاصه الجزاء الحسن هان
عليه كل أمر ، ومن يدري ؟ لعله يلقي بنفسه فى الماء ويجعل روحه
تنطلق الى الجحيم لا تلوى على شىء . ولم تكن سولوفا قد بلغت
من القسوة هذا المبلغ ، ثم ان الشيطان كان كما نعلم يسايرها كل
المسايرة ، فقد كانت مولعة بان تحيط بها جمهرة من الناس ، ويندر
ان تراها بغير صحبة ، على انها كانت تتوقع ان تقضى هذا المساء
وحيدة ، ذلك ان أعيان القرية جميعا كانوا قد دعوا للاحتفال بليلة
عيد الميلاد فى كوخ القندلفت ، غير ان الأمور جرت على غير ما
تشتهى : فما ان بدا الشيطان يلح فى طلبه حتى سمعا فجأة قرعا
على الباب وطرق آذانهما صوت شيخ القرية البدين ، وهرعت
سولوفا لتفتح الباب ، على حين تسلل الشيطان الخفيف الحركة
الى كيس ملقى على الأرض .

ونفض شيخ القرية الجليد عن قبعته وشرب قدحا من الفودكا من
بد سولوفا ، ثم أنباها بان العاصفة الثلجية قد حالت بينه وبين
الذهاب الى كوخ القندلفت ، فلما رأى ضوءا فى كوخها جاء لزيارتها
معترضا ان يقضى السهرة معها .

وما ان اتم شيخ القرية قوله هذا حتى سمعا طرقا على الباب

كما سمعا صوت القندلفت .

فهمس الشيخ يقول : « اخفينى فى اى مكان فانى لا اريد ان
لقى القندلفت الآن »

وفكرت سولوفا لحظة فى مكان تستطيع ان تخفى فيه هذا الزائر
الضخم الجثة ، واختارت آخر الامر اكبر كيس للفحم ، وافرغت
الفحم فى برميل ، ثم تسلل الشيخ الى السكيس بشاربه وقبعته
وفرائه وكل ما عليه !

ودخل القندلفت الكوخ وفرك يديه ثم اخبر سولوفا بانها لم
يحضر حفلته احد ، وما اسمعه بان اتاحت له هذه الفرصة لينعم
بزيارتها ! اما العاصفة الثلجية فهو لا يخشاها ، ثم دنا منها ولمس
بأصابعه الطويلة ذراعها العازية البضة ، وهو يسعل ويتكلف الابتسام ،
ثم قال فى لهجة تنم عن الدهاء والرضا جميعا :

« وما هذا الذى حبيته به هنا اى سولوفا الرائعة ؟ » ، وما
ان قال هذا حتى ارتد قليلا .

فاجابت سولوفا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا اوسيبنيكيفوروفتشى؟»

فصاح القندلفت وقد سرته براعة استهلاله كل السرور: « آه !
ذراعى ، اليس كذلك ؟ ها - ها - ها ! » وراح يذرع الغرفة
جيرة وذهابا .

ثم قال مصطنعا اللهجة نفسها وهو يدنو منها مرة اخرى ،
ويلمس عنقها لمسا خفيفا ، ويرتد مرة ثانية كما فعل فى المرة الاولى:
« وهذا اى سولوفا يا حبة القلب ؟ »

فاجابت سولوفا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا اوسيبنيكيفوروفتشى؟
انه عنقى وقلادتى ! »

« آه ! قلادتك ، ها - ها - ها ! » وراح القندلفت يذرع
الغرفة مرة اخرى وهو يفرك يديه .

« وهذا اى سولوفا يازينة النساء ؟ » ، ولم يك يدري احد
ما الذى اعتزم القندلفت ان يلمسه بعد ذلك بأصابعه الطويلة لو لم
يسمعا فجأة قرعا على الباب وصوت شوب القوزاقى .

وصاح القندلفت فى فزع : « يا الهى ! فضولى ! ماذا يكون من

امر رجل في مكانتي لو ضبط هنا ! تالله ليلفن ذلك مسامع الاب
كوندرات ! »

الا ان مخاوف القندلفت كانت ، في حقيقة الامر ، متجهة الي
ناحية اخرى ، فقد كان أخشى ما يخشاه ان يتصل نيباً أفعاله
بمسامع شريكة حياته التي نحلت يدها القاسية قفاه الكث أو كادت .

فقال وقد ارتعدت اوصاله جميعا : « بالله عليك اى سولوخا
الطاهرة النقية ! ان شفقتك الحانية كما يقول انجيل لوقا الاصحاح
الثالث و .. اواه ياعزيزتى ان شخصا يقرع الباب ، أجل ان
شخصا يقرع الباب ! اخفينى في مكان ما ! » .

وقلبت سولوخا الفحم من كيس آخر، وتسلسل اليه القندلفت ،
ولم يك ضخم الجثة ، واستقر في صميم قامه حتى كان من اليسير
ان تهيل عليه ملء نصف غرارة من الفحم .

وقال شوب وهو يدخل الكوخ : « طاب مساؤك ياسولوخا ! لقد
جئت على غير انتظار ، اليس كذلك ؟ وما كنت تتوقعين قدومي ،
أو كنت تتوقعينه ؟ » ، ومضى شوب يقول ، وقد أنشرح صدره
وعلى وجهه تعبير له مغزى يوحي بأن عقله البليد كان يعمل متأهبا
لاقاء ملحمة ساخرة مسلية : « لعلى تطفلت عليك ، أو لعلك كنت
تستضيفين شخصا هنا ، أو لعلك اخفيت أحدا في هذا المكان ،
إبه ! » ، وضحك شوب وقد فننته ملاحظته هذه ، الا انه كان
يحس في قرارة نفسه بالانتصار ، فقد ظن انه هو الرجل الوحيد
الذى سوف يحظى برعاية سولوخا .. « والان ياسولوخا على بكأس
من الفودكا التو واللحظة ، فانى لأحسب ان حلقي قد تجمد
وجف بفعل هذا الصقيع الملعون ، يا للجو الذى ساقه الله الينا في
ليلة عيد الميلاد هذه ! ويا لها من عاصفة ثلجية يا سولوخا ! آه ،
لقد تجمدت يداى فلا أستطيع فك أضرار جلد الماعز الذى ارتديه
يا لها من عاصفة ثلجية ! »

ودوى صوت في الشارع يهتف : « افتحى الباب ! » ، وصحبته
طرقة على الباب .

فقال شوب وقد توقف عن الحركة : « ان شخصا يقرع الباب »
ودوى الصوت وقد ازداد علوا : « افتحى ! »

فصاح شوب وهو يتناول قبعته : « انه الحداد ، هلا تخفيني يا سولوخا حيث شئت ! فما من شيء في العالم يقربني بأن أظهر أمام ابن الخنازير الملعون هذا ! الا فليبله الله بثؤلول ككومة التشن تحت كل عين من عينيه ابن الشيطان هذا ! »

وانتاب الفزع سولوخا نفسها، فأخذت تجرى هنا وهناك كالمخبط المسلوب اللب ، ونسيت ما كانت تنوي القيام به ، ثم اشارت الى شوب بأن يندس في الكيس الذي كان القندلفت يجلس مختبئا فيه بالفعل ، ولم يجرؤ القندلفت المسكين ان يفصح عن الهه بالسعال أو التأوه حين أستوى القوزاقى الثقيل فوق رأسه أو كاد ، ووضع كل فردة من فردتي حدائه المتجمد على جانب وجهه .

ودخل الحداد الكوخ دون ان ينطق بكلمة واحدة او يخلع قبعته، وهوى على الأريكة أو كاد ، وقد لاح للأنظار انه ثائر منفعل الى أقصى حد .

وما ان همت سولوخا باغلاق الباب وراءه حتى طرقت طارق الباب مرة أخرى ، وكان الطارق هو القوزاقى سفير بيجوز ، ولم يكن من المستطاع اخفاء الرجل في كيس ، فقد خلا المكان كله من كيس كبير يسع هذا الرجل الذى كان اضخم من شيخ القرية وأطول من باناس جارشوب ، فقادته سولوخا الى حديقة الخضر لتسمع منه كل ما كان يريد ان يقصه عليها .

وأخذ الحداد يقرب الطرف شارد الفكر في انحاء كوخه ، منصتا بين الفينة والفينة الى أصوات المنشدين تنساب بعيدا مجتازة القرية ، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس « ما بال هذه الأكياس مملقة هنا ؟ لقد كان من الواجب ان تنقل من هذا المكان منذ وقت طويل ، لقد سلب هذا الحب الطائش منى اللب ، وجعلنى كالأبله سواء بسواء ، فان غدا لعيد الميلاد ولا تزال النفائات من كل نوع باقية في الكوخ ، لانقلنها الى الدكان ! »

وانحنى الحداد من فوره على الأكياس الضخمة وربطها ربطا محكما وتاهب لرفعها على كتفيه ، على ان فكره كان قد شرد فيما يظهر، ولا يعلم الا الله أين شرد ، ولا سمع كيف راح شوب يلهث عندما التف بشعر رأسه الخيط الذى كان الكيس مربوطا به ،

وكيف شرع شيخ القرية البدين في الفواق بصوت واضح كل الوضوح .

وكان الحداد يقول : « اما من حيلة تخرج اوكسانا الشقية من راسي ؟ لا اريد ان افكر فيها ، ولكنى لا أنقطع عن التفكير فيها ، ويشاء الحظ الا افكر الا فيها ، ترى ما بال الافكار تتسلل الى راسي بالرغم مني ؟ يا لعنة ! يخيل الى ان الاكياس قد ازدادت ثقلا عما كانت عليه ، ولاشك ان شيئا آخر غير الفحم قد وضع فيها ، يا لى من أحقق ! لقد نسيت ان كل شيء يبدو لى الآن أثقل مما كان ، وكنت فى سالف الأيام أستطيع ان أنثى قطعة نحاسية من النقود أوحدوة حسان بيد واحدة ، أما الآن فلاستطيع ان ارفع بعض أكياس الفحم ، ولعل الريح تحملنى من بعد » ، ثم صاح مستنجما أطراف شجاعته بعد ان سكت لحظة : « كلا ! لست جباناً ! لن ادع مخلوقا يسخر منى ! لو ان امامى عشرة اكياس كهذه لرفعتها جميعا » ، ورفع بخفة الكيسين اللذين كان ينوء بحملهما رجلان قويان ووضعهما على كتفيه ، ثم مضى يقول وهو يتناول الكيس الصغير الذى انكمش الشيطان قابعا فيه : « لاحملن هذا ايضا ، فانى لاحسب اننى وضعت فيه ادواتى » ، وما ان فرغ من قوله هذا حتى غادر الكوخ وهو يصفر لحن الاغنية : « لن تطيب لى الحياة مع ابة زوجة ! »

وأخذ الغناء والضحك والضحك يعلو ثم يعلو فى طرقات القرية ، وزاد القادمون من القرى المجاورة فى جماهير القوم المتزاحمة المتدافعة ، وامتلات جعبة الفتیان بما فيها من معاكسات ودعابات حمقاء ، وما اكثر ما كانت تنبعث من بين أناشيد الكوليا دكى أغنية مرحة يهتف بها شاب من شباب القوزاق على البديهة ! وتنطلق فجأة عقيرة واحدة من الجماعة بأنشودة يحيى بها السنة الجديد بدلا من أنشودة عيد الميلاد صائحا بأعلى صوته :

ها هو ذا عيد الميلاد يولى !

فلا تدخروا شيئا !

وجودوا علينا بكمكة أو فطيرة !

أو طأس من المصيدة !

أو حبل من القائق !

وكان هذا الماجن يكافا بعاصفة من الضحك ، وتفتح النوافذ على مصاربعها وتمتد يد ذابطة لامرأة عجوز بواحد من العناق أو بقطعة من الفطير « ذلك انه لم يك يبقى في الأكواخ الا عجايز النساء والآباء من أهل الرزانة والوقار » . .

وكان الفتيان والفتيات ينافس بعضهم بعضا في فتح اكياسهم وتلقى غنائمهم ، ويجتمع الفتيان من كل حذب وصوب في صعيد واحد يحيطون بجماعة من الفتيات فيطلو صخبهم ويرتفع ضجيجهم ، وكان أحدهم يلقي كرة من الثلج ويخطف آخر كيسا مليئا بأطياب المأكولات على اختلاف اشكالها ، وراحت الفتيات في مكان آخر يقبضن على فتي ويدفعنه فينكفيء على وجهه هو وكيسه في الجليد، وبدا أن الجميع كانوا على استعداد للمرح طوال الليل ، فقد كانت الليلة رائئة كل الروعة ! وقد تجلى ضوء القمر وزاده بريق الجليد تالقا .

ووقف الحداد بأكياسه لايبدي حراكا ، وخيل اليه انه سمع بين زحمة الفتيات صوت اوكسانا وضحكتها الرنانة فأخذ كل عرق فيه ينبض ، وألقى بالأكياس على الأرض فتأوه القندلفت الذي كان يقبع في قرار أحدها مما ناله من رضوض وفاق شيخ القرية فواقا عاليا، ثم سار الحداد متمهلا والكيس الصغير على كتفيه صحبة طائفة من الفتيان يلاحقون جمهرة من الفتيات سمع بينهن صوت أوكسانا .

« أجل انها هي ! وقد وقفت كالملكة وعيناها السوداوان تتألقان، وراح فتي وسيم يلقي على مسامعها شيئا ، ولايد ان هذا الشيء يبعث على الضحك لأنها تضحك ، بيد انها تضحك دائما » ، ولم يدرك الحداد كيف شق طريقه وسط زحمة الناس ووقف الى جوارها ، وان كان في هذا من قلة الفطنة ما فيه .

وقالت الحسناء والابتسامة التي سلبت لب فاكولا او كادت لانزال تداعب شفيتها ، « آه انت هنا يا فاكولا ! طاب مساؤك هل أصبت الكثير لقاء أناشيدك ؟ وى ! ما اصفر الكيس الذي تحمله! أو جئت بالخف الذي تلبسه القيصرة ؟ اتنى بالخف أتزوجك! » ، ثم ضحكت وجرت مع الفتيات الأخريات .

ووقف الحداد كأنما سمر في مكانه ، ثم غمغم آخر الامر قائلا :

« كلا ، لا أستطيع ان أجتمل هذا ، فانه فوق طاقتى ، ولكن ، يا الهى ! لم وضعت فيها هذه الفتنة الطاغية ؟ ان عينها وكلماتها وكل ما فيها يلسعنى لسعا ، اى والله يلسعنى ، كلا لا أستطيع ان اتمالك نفسى ، وقد آن لى ان اضع حدا لكل هذا ، الا فلتحل بى اللعنة ! ولاذهبن وأغرق نفسى فى فجوة بين الثوج ، وعندند ينتهى الأمر كله ! »

ثم سار فى خطا حازمة ولحق بجماعة الفتيات حتى وقف بحذاء اوكسانا ، وقال فى صوت ينم عن العزم : « وداعا يا اوكسانا ! ولتبحنى لك عن اى حبيب شئت ، واسخرى بمن شئت ، اما انا فلن يقع على بصرى مرة أخرى فى هذا العالم . »

وبدت الدهشة على الحسناء ، وهمت بأن تقول شيئا لولا ان الحداد مضى مهرولا وهو يلوح بيده .

وصاح الفتيان وهم يرون الحداد يجرى : « الى اين يا فاكولا؟ »

فصاح الحداد مجيبا : « وداعا ايها الفتيان ! اسأل الله ان يكتب لنا اللقاء فى العالم الآخر ، ولكننا لن نعود للمرح فى هذا العالم ، وداعا ! واذكرونى بالخير ! وقولوا للأب كوندرات ان ينشد قداسا على روحى الأئمة ، فقد عصيت الله وآثرت عرض الدنيا على انجاز رسم الشموع لايقونات القديس والعدراء البتول ، وكل ما تجدونه فى صندوقى من سلع هبة منى للكنيسة ، وداعا ! »

وما ان فرغ الحداد من قوله هذا حتى انطلق يحمل الكيس .

وقال الفتيان : « لقد ذهب عقله ! »

وغمغمت امرأة عجوز كانت تمر بالمكان فى لهجة تنم عن التقى والورع : « نفس ضالة ! ولاذهبن وأقول للقوم : ان الحداد قد شق نفسه ! »

وكان فاكولا فى هذه الأثناء قد توقف ليسترد أنفاسه بعد ان جرى مجتازا بعض الطرقات ، وقال بحدث نفسه : « فيم انطلاقى هكذا كائنى فقدت كل شيء ؟ ولالتمسن وسيلة أخرى واحدة ، ولامضين الى باتسيوك الزابورجاوى ذى الكرش ، فانه يعرف فيما يقال الشياطين جميعا ، ويستطيع ان يفعل مايريد ، أجل لامضين اليه ، فقد ضلت روحى على كل حال . »

وعندئذ أخذ الشيطان يقفز فرحا في الكيس ، وكان قد قبع في مكانه وقتنا طويلا لا ياتي بحركة ، الا ان الحداد ظن انه لوى الكيس بيده على نحو ما ، فأتار هذه الحركة ، ولم يكن منه الا ان لكز الكيس بقبضته القوية ، وهزه على كتفيه ، ومضى ميمما شطر باتسيوك ذى الكرش .

وكان باتسيوك قوزاقيا زابوروجاويا في وقت من الأوقات على انه لم يدر احد : « اطرده من المعسكر ام هرب من زابوروجى من تلقاء نفسه ؟ »

وكان الرجل يقيم فيديكانكا منذ وقت طويل لعله يبلغ عشرينسنوات او خمس عشرة سنة ، فقد راح في صدر حياته يعيش عيشة الزابوروجاوى القح ، لا يقوم بأى عمل وينام ثلاثة أرباع النهار ، ويزدرد من الطعام قدر ما تحصده ست محاصد ، ويشرب ملء سطل من الفودكا او نحو ذلك في وقت واحد ، على ان جسمه كان يتسع لهذاكله ، فهو وان لم يكن فارغ الطول كان مبسوطالجنين بعض الشيء ، ثم ان السروال الذى الف ان يرتديه كان من الفضفضة بحيث لا يظهر اثر لساقه مهما افسح في خطاه ، فاذا سار مجتازا الطريق خيل اليك انه برميل من براميل مقطرى الخمور، ولعل هذا هو السر في تلقيبهم اياه بذى الكرش ، وقد عرف القوم جميعا انه ساحر قبل ان يمضى وقت طويل على قدومه الى القرية ، فاذا اصيب احد بمرض استدعى باتسيوك في الحال ، وكان حسب ان يهمس ببضع كلمات فتزول عنه العلة ، واذا اتفق ان سيدا جائعا غص حلقه بعظم سمكة بادر باتسيوك فلطمة على ظهره ببراعة حتى يستوى العظم في مجراه الصحيح دون ان ينال حلق السيد اى اذى ، اما في السنوات الأخيرة فقلما كان باتسيوك يشاهد في اى مكان وربما كان السبب في ذلك هو الكسل ، او ربما كان الرجل يجد مشقة عاما بعد عام في ان يضفظ جسمه ضفطا حتى يستطيع ان يخرج من الباب ، واضطر الناس منذ عهد قريب ان يقصدوه اذا كانوا في حاجة اليه .

وفتح الحداد الباب في شىء من التهيب فراى باتسيوك يجلس متربعا على الأرض أمام برميل صغير عليه طاس من لقيعات القاضى ،

وكان هذا الطاس في مستوى فمه ، كأنما وضع في هذا الموضع عن قصد ، وكان يحني رأسه قليلا تجاه الطاس دون ان يحرك اصبعاً ثم يرتشف المرق ، ويمسك لقيمات القاضى بين أسنانه من حين الى حين .

وقال فاكولا بينه وبين نفسه : « وى ، ان هذا الرجل لاكسل من شوب نفسه ، ذلك ان شوب يأكل بملعقة ، اما هو فيكسل ان يرفع يده ! »

وما من شك ان باتسيوك قد شغلته لقيمات القاضى حتى استحوذت على تفكيره ، فقد بدا عليه انه لم يتنبه اطلاقا الى دخول الحداد الذى انحنى له انحناء كبيرة بمجرد ان وطئت قدمه عتبة الدار .

وقال فاكولا وهو ينحنى مرة اخرى : « لقد جئت التمس منك فضلا يا باتسيوك » .

ورفع باتسيوك البدن رأسه ، وعاد مرة اخرى يزدرد لقيمات القاضى .

وقال الحداد وقد استجمع أطراف شجاعته : « يقول الناس عنك - وانا لا اقصد بذلك الاساءة - اجل أقول هذا ولم يخطر ببالى قط ان اسىء اليك - انك تمت بصلة من القربى للشيطان » .

وروع فاكولا اذ نطق بهذه الكلمات ، فقد ظن انه عبر عن نفسه تعبيرا جافيا فظا ولم يهذب لفته تهديبا كافيا ، وتوقع ان يتناول باتسيوك النبرميل والطاس جميعا ويقذف بهما في وجهه لايلوى على شيء ، فتنحى قليلا وغطى وجهه بردنه حتى لايصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضى الساخن ، الا ان باتسيوك رفع عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضى من جديد .

وتشجع الحداد وضح عزمه على ان يمضى في حديثه .

« لقد جئت اقصدك يا باتسيوك ، متعمك الله بكل شيء ورزقك من الاطايب على اختلاف اشكالها الكثير ، ومن الخبز ما يناسب هذا القدر! » « وكان الحداد يستطيع أحيانا ان يتألق في عبارته : وقد ألف هذا خلال اقامته في بلتاوة عندما كان ينقش سورالضابط » « انى لا أجد أمامى انا المذنب الا الخراب ، وليس لى في هذا

العالم من معين ولا نصير ! وليكن ما يكون فاتى لا اجد مناصا من التماس العون حتى من الشيطان نفسه » ثم مضى الحداد فى قوله اذ رأى باتسيوك لايزال مخلدا الى الصمت : « اى باتسيوك ، ما عسى ان اصنع ؟ »

فاجابه باتسيوك وهو ماض فى التهام لقيعات القاضى دون ان يرفع بصره : « اذا كنت فى حاجة الى الشيطان فاذهب اليه » .

فقال الحداد وهو ينحنى له انحناءة اخرى : « وهذا هو ما حدا بى الى القدوم اليك ، فاتى اعتقد انه ما من مخلوق فى العالم يعرف الطريق اليه سواك »

ولم ينبس باتسيوك ببنت شفة بل اتى على مابقى من لقيعات القاضى .

والحف الحداد فى طلبه قائلا : « اشملنى بفضلك ابها الرجل الصالح ولا ترفض طلبى ! ولن ابخل عليك اذا دعت الحاجة ولنكن شيمتنا فى ذلك ماجرى عليه كرام القوم ، ولك ماشئت من لحم الخنزير او المقاتق او دقيق الحنطة السوداء او الدقيق الأبيض او الكتان او الدخن ، فقل لى على الأقل كيف التمس الطريق الى الشيطان ؟ »

وقال باتسيوك فى غير ما اكرثا وهو ملازم مكانه : « ان من يحمل الشيطان على كتفيه لا يذهب بعيدا فى طلبه ! »

وتعلقت انظار فاكولا بالساحر كأنما كان تفسر هذه الكلمات مسطورا على جبينه ، وبدت على وجه فاكولا سيماء من يتسائل فى صمت : « ترى ماذا يعنى ؟ » ، وفتح فمه متاهبا لالتقاط اول كلمة ينطق بها الساحر كما يزدرد لقمة القاضى .

ولكن باتسيوك كان قد اخلد للصمت .

ثم لاحظ فاكولا انه لم يكن امام الساحر برمبل ولا لقيعات قاضى، وانما كان يقوم على الارض بدلا منهما طاسكان من الخشب : احدهما مملوء بالفطائر المحشوة بالحبين والآخر مملوء بالقشدة ، وتعلقت عينا فاكولا وافكاره بهذه الأطايب على غير وعى منه ، وراح يحدث نفسه قائلا : « لئر الآن كيف يأكل باتسيوك هذه الفطائر ، ولاشك ان الامر لن يقتضيه ان ينحنى لياتى عليها كما فعل بلقيعات

القاضي ، وما كان ليستطيع لو اراد ، فقد كان عليه ان يغمسها
اولا في القشدة »

وما ان مر بذهنه هذا الخاطر حتى فتح باتسيوك فمه ، ونظر
الى الفطائر ، ثم ازداد فمه اتساعا ، وفي تلك اللحظة قفزت فطيرة
من الطاس وانحطت في القشدة ثم انقلبت على وجهها الآخر ثم
قفزت الى اعلى ، وطارت مندفعة الى فمه رأسا ، واتى باتسيوك
عليها ، ثم فتح فمه من جديد ، وسلكت فطيرة اخرى هذا المسلك
نفسه ، ولم يك باتسيوك ليتحمل من المشقة الا مضغ الفطيرة
وازدرادها .

وقال الحداد يحدث نفسه : « بالله ! اى عجيبة هذه ؟ » ،
وفقر فاه دهشة وفي اللحظة نفسها أدرك ان فطيرة تنطلق في طريقها
الى فمه هو وقد لطخت شفثيه بالقشدة فعلا ، فدفع الفطيرة عنه ،
ومسح شفثيه ، ثم راح يفكر في العجائب التى يحفل بها هذا
العالم وما يتوصل به الشيطان من مكر ودهاء ليضل الانسان عن
سواء السبيل ، محدثا نفسه بأنه ما من أحد يستطيع مساعدته
الا باتسيوك .

« سأتحنى له مرة اخرى ، لعله يفصح عما يبطن .. وى لبئس
الشيطان ! ان اليوم يوم صيام ومع ذلك فهو يأكل الفطائر! يا لى
من غبى حقا ! أقف هنا وأهم بارتكاب المعصية ! » ، وأندفع
الحداد الورع لساعته خارجا من الكوخ لايلوى على شيء .

على ان الشيطان الذى كان قابعا في الكيس يحدق في فريسته
لم يكن يستطيع ان يدع هذا الصيد الثمين يفلت من بين يديه فما
ان وضع الحداد الكيس على الأرض حتى انفلت الشيطان منه وركب
عنقه .

وسرت وعدة باردة في جسم الحداد، وامتعق لونه، وانتابه الخوف،
ولم يدر ماذا يفعل ، وهم بان يرسم اشارة الصليب الا ان الشيطان
ادنى أنفه الذى يشبه أنف الكلب من اذن فاكولا اليمنى وقال :
« اننى انا صديقك ، ولن ادخر شيئا في سبيل صديق وزميل! » ،
ثم هتف في أذنه اليسرى قائلا : « لاعطيتك من المال ما تشاء » ،
ومال بأنفه على اذن الحداد اليمنى مرة اخرى وهمس قائلا :

« لتكونن اوكسانا من نصيبك في هذا اليوم بالذات » .

ووقف الحداد ساكنا لا يبدى حراكا وقد استغرق في التفكير .

ثم قال آخر الامر : « مرحى ، مرحى ، اذا كان هذا هو الثمن فانى مستعد ان اكون طوع بئانك ! » .

ولوح الشيطان بيديه ابتهاجا ، وراح يقفز على عنق الحداد صاعدا هابطا ثم قال بينه وبين نفسه : « والآن قد قضى على الحداد ! ولاجزينك الآن على كل ما رسمته ريشتك من صور، وعلى كل ما روئته من قصص قذفت بها في حق الشياطين ! ترى اى حديث يدور بين رفاقي حين يعلمون بان اتقى رجال القرية جميعا قد وقع في قبضة يدي ! »

وضحك الشيطان فرحا مسرورا وهو يفكر فيما أتبع له من تعبیر زبانية الجحيم الطوال الذنب جميعا ، وكيف ان الغضب سوف يشتد بالشيطان الأعرج الذى كانوا يعدونه ادهى الشياطين طرا .

وصاح الشيطان وهو يتشبث بعنقه كأنما كان يخشى أن يهرب : « اى فاكولا ، انك لتعلم انه ما من امر يبرم بغير عقد » .

فقال الحداد : « اننى لعلى استعداد ! وقد علمت ان العقود فى شريعتمك تمهر بالدم ، فصبرا ، ولاخرجن من جيبى مسمارا » .

وعندئذ وضع يده خلفه وأمسك الشيطان من ذيله .

فصاح الشيطان وهو يضحك : « انك لبارع فى الدعابة ! هلم ، ودعنى وشانى ، فحسبك ما الحقته بى من اذى ! » .

وصاح الحداد : « اصبر قليلا يا صديقى ! مارأيك فى هذا ؟ » ، وما أن فرغ من قوله حتى رسم إشارة الصليب فاذا بالشيطان يصبح فى وداعة الحمل ، ثم قال الحداد وهو يجذبه من ذيله الى الأرض : « اصبر قليلا ولأعلمنك كيف توقع بالصالحين والمسيحيين الصادقين فى المعصية ! »

وهنا قفز الحداد واعتلى ظهر الشيطان منفرج الساقين ورفع يده ليرسم إشارة الصليب .

فتأوه الشيطان مستجيرا : « الرحمة يا فاكولا ! ولافعلن كل ما تريد ، اى نعم كل ما تريد ، فابق على حياتى ولا ترسمن إشارة الصليب المهلكة ! » .

« آه ! أهكذا تتغير لهجتك أيها الألماني الملعون ! انى لأعرف الآن ما سأصنع بك ، أحملى على ظهرك فى الحال ! اتسمعنى ؟ وطر كما يطير العصفور ! » .

وسأله الشيطان الحزين : « الى أين ؟ » .

«الى بطرسبرج ، الى القيصرة رأسا ! » ، وكاد الحداد يقشى عليه من الرعب ، إذ أحس بأنه يشق أجواز الفضاء .

وقفت اوكسانا وقتنا طويلا تفكر فى الكلمات الغريبة التى فاه بها الحداد : وانبعث من أعماقها هاتف يقول لها : « أنها قست عليه فأمعنت فى القسوة ، وماذا يكون لو صح عزمه على ان يرتكب أمرا اذا ؟ لست أعجب ان هو فعل ! ولعل حزنه يؤدي به الى الوقوع فى هوى فتاة أخرى ، فيدعوها فى غضبه أجمل الجميلات فى القرية ، ولكن كلا ، فهو يحبنى وقد بلغت الغاية فى الحسن والبهاء ! لن يهجرنى لى سبب ، وانما هو يتحایل ويتظاهر، ولن تنقضى عشر دقائق حتى يعود ليرانى ، أجل ، انى لقاسية حقا بل ممعنة فى القسوة ، ويجب أن أدعه يقبلنى كما لو كان يفعل ذلك على الرغم منى ، أفلا يسر ويرضى بذلك ؟ » . وعادت الحسناء العابثة الى المزاح مع أترابها .

وقالت احداهن : « صبرا ، فقد نسى الحداد كيسيه ، الا ما أبشعهما من كيسين كبيرين ! لقد جمع من انشاده أناشيد عيد الميلاد اكثر مما جمعنا ، ويخيل الى ان القوم قد وضعوا له ربع شاة فى كل منهما ، ولا أشك انهم دسوا له أيضا عددا لا يحصى من المقاتق والأرغفة ، مرحى ! لسوف يتوافر لنا ما يكفى الاحتفال بأسبوع عيد الميلاد كله » .

وسألت اوكسانا : « هل هذان الكيسان للحداد ؟ اذن فلنمجل بجرهما الى كوخى ولننعمن النظر فيما وضعه فيهما » .
وواقفت الفتيات جميعا على هذا الاقتراح ضاحكات .

وصاحت لمة الفتيات كلهن وهن يحاولن نقل الكيسين : « ولكننا لا نستطيع رفهما ! »

فقالت اوكسانا : « انتظرن لحظة ، ولنمض فى طلب زلاقة ثم نقلهما عليها ! » . وجرت الفتيات باحثات عن زلاقة .

وكان الأسرى قد ضاقوا ذرعا ببقائهم في الكيسين ، وان كان القنديل قد ثقب ثقباً كبيراً يخلتس منه النظر ، ولو قد خلا الكان من الناس لاستطاع ان يتسلل من الكيس ، ولكن التسلل من كيس امام الجميع خليق بأن يجعله اضحوكة القوم .. وهذا هو ما حال بينه وبين تنفيذ ما يريد ، وصح عزمه على ان ينتظر ، ولم يكن منه إلا ان تأوه في صوت خافت تحت وطأة حذاء شوب الثقيل !..

ولم يك شوب نفسه اقل رغبة منه في الحرية ، وهو يحس بأن شيئاً تحته لا يستطاب الجلوس عليه ابداً ، فما أن سمع ما دبرته له ابنته حتى ارتاح باله ، واستقر رأيه على ان يكف عن محاولة التسلل من الكيس ، معتقداً ان المسافة بينه وبين كوخه لا تقل عن مائة خطوة او قل عن مائتي خطوة ، فان هو اقدم اقتضاه ذلك ان يصلح من شأنه ويزرر معطفه المصنوع من جلد الماعز ويثبت حزامه ، ويا للمشقة التي سوف يعانها من ذلك ! ثم تذكر ايضا انه ترك قبعته في كوخ سولوخا اذن فلتجره الفتيات الآن في الزلافة .

على ان الأمور جرت على غير ما يحب ويشتهي ، ففي اللحظة التي جرت فيها الفتيات لبحثن عن الزلافة خرج من الحانة جارد التحيل باناس مضطرب الأعصاب نأثر النفس ، ذلك ان صاحبة الحانة ابت ان تقدم له شيئاً من الخمر على الحساب ، وفكر الرجل في البقاء في الحانة راجياً ان يأتي سيد كريم يتحفه بكأس ، ولكن شاء سوءحظه ان يلزم السادة جميعاً منازلهم ويأكلوا الأرز والشهد في أحضان أسرهم ، كما يفصل المسيحيون الصالحون ، وخرج باناس من الحانة وهو يفكر فيما أصاب أخلاق الناس من انحلال وما اتصف به قلب اليهودية صاحبة الحانة من قسوة وغلظ ، ثم وقع على الكيسين فوقف مشدوها .

وقال وهو يتلفت حوله : « يا للكيسين التي بهما شخص في الطريق ! يقينى ان فيهما شيئاً من لحم الخنزير ، ومن حسن الطالع ان يجمع هذا المنشد لاتاشيد عيد الميلاد هدايا كثيرة كهذه من جميع الألوان ، بالكيسين ! وهب انهما حافلان بالكعك والبقسماط المصنوع من الحنطة السوداء فحسب فانهما جديران مع ذلك بأن استولى عليهما ، ولو قد اقتصروا على الأربعة لرحبت بذلك ايضا ،

فان اليهودية لخليقة بان تمطينى كاسا من الفودكا عن كل رغيف ،
يجب ان اسرع بنقلهما قبل ان يراهما احد » .

ولفع على كتفه الكيس الذى كان فيه شوب والقندلفت ولكنه
احس بثقله الشديد ، فقال : « كلا ، انه لاثقل من ان يستطيع
رجل واحد حمله ، وها هو ذا شابوفانكو النساج قد اقبل
لحسن الحظ ، طاب مساؤك يا اوستاب ! » .

فقال النساج وهو يتوقف : « طاب مساؤك » .

« الى اين انت ذاهب ؟ »

« حيث تقودنى خطاى » .

« اعنى على حمل هذين الكيسين ايها الرجل الصالح ! لقد كان
بعضهم ينشد اناشيدعيد الميلاد، والتى بهما فى الطريق ، ولنقتسم
ما فيهما مناصفة » .

« كيسين ؟ وماذا فيهما ؟ ارغفة بيضاء ام ماذا ؟ » .

« اعتقد ان فيهما اشياء من كل لون » .

واسرعا فانتزعا بعض العصى من السياج ، ووضعا عليها كيسا من
الكيسين وحملاه على اكتافهما .

وسال النساج وهما فى الطريق : « الى اين نمضى به ؟ الى

الحانة ؟ »

« هذا ما كنت افكر فيه ولكن اليهودية الملعونة لن تثق بنا ،
ولسوف يذهب بها الظن الى اننا سرقناه من مكان ما ، ثم انى قادم
لتوى من الحانة ، فلنمض به الى حيث كوخى ، ولن يقف فى سبيلنا
احد هناك ، فان زوجتى قد بارحت الدار » .

وساله النساج الحذر : « اوانت انت انها ليست فى الدار ؟ »

فقال باناس : « اتنى والحمد لله لم اصل بعد الى حد البلاهة ،
وانما الشيطان وحده هو الذى يستطيع ان يقذف بى الى حيث
تكون ، وانى لاحسب انها ستتجول مع النساء الاخريات حتى مطلع
الفجر » .

وسمعت زوجة باناس الضوضاء الصادرة عن الرجلين والكيس
فى الغرفة الخارجية ، ففتحت الباب وهتفت : « من هناك ؟ » ،
وعقلت الدهشة لسان باناس .

وقال النساج في ياس : « ها نحن اولاء قد وقصنا في مازق » .

وكانت زوجة باناس كنزا من ذلك النوع الذى لا يعز عليك ان تجد له مثيلا في هذا العالم ، وكانت كزوجها لا تلزم الدار الا نادرا ، وتمضى فى كل يوم تقريبا لزيارة بعض صويحباتها وعجائز النساء الثريات ، تتملقهن وتاكل « بشمية » عظيمة على حسابهن ، ولم تك تتشاجر هى وزوجها الا فى الصباح ، فقد كانت لاتراه احيانا الا فى هذا الوقت ، وكان كوخهما اقدم بكثير من سروال كاتب الناحية او قل يزيد عنه فى العمر ضعفين ، وكانت بعض المواضع من سقفهما المعرش بالجريد خالية من القش ، ولا ترى من سياج الكوخ الا بقايا ، فقد كان كل من يخرج من داره لا يرى حاجة تدعوه الى حمل عصا يطرد بها الكلاب ، وحسبه ان يمر بحديقة الخضر من كوخ باناس فينتزع عصا من سياجه . وكان الموقد يظل ثلاثة ايام متصلة بلا احماء ، وكلما اصابت الزوجة الحنون شيئا من فيض ابدى المسيحيين الصالحين اخفته ما وسعها بعيدا عن تناول زوجها .

وكثيرا ما كانت تصطنع الخلاعة والمباينة لتحرمه ما يكسب اذا لم يتسع لها الوقت لانفاقه على الشراب ، ولم يك باناس بالرغم مما عرف عنه من احتشام ورزانة يحب ان يرضخ لها ، فكان يفادر داره كل يوم تقريبا وقد اسود ماحول عينيه الاثنتين ، فى حين كانت شريكة حياته تنهد وتناوه ثم تنطلق لتخبر عجائز النساء بسسوء خلق زوجها ، وما كاله لها من ضربات لم تجد بدا من التجاوز عنها .

ولتتخيل ايها القارئ مقدار ما اصاب النساج وباناس من حيرة لظهور المرأة المفاجيء ، والقى الرجلان بالكيس ووقفوا امامه وعمدا الى اخفائه باطراف معطفيهما ، ولكنهما كانا قد تاخرا كثيرا ، ذلك ان زوجة باناس لمحت الكيس بالرغم مما اصابها به الكبر من ضعف فى البصر .

وقالت ووجهها ينم عن فرح كفرح الصقر : « مرحى ، مرحى ! وجميل منكما ان تكونا قد جمعتما هذا الخير الكثير باناشاد أناشيد عيد الميلاد ! وهكذا حال المسيحيين الصالحين دائما ، ولكن كلا ، فانى لأحسب انكما سرقتماه من مكان ما ، اريانى الكيس فى الحال .

أتسمعان ؟ أرياني في التو والساعة ! » .
وقال باناس وهو يتظاهر بالوقار : « ليرينك الكيس الشيطان
الأصلع ، اما نحن فلا »
وقال النساج : « وما شأنك بالكيس ؟ اننا نحن اللدان أنشدنا
الكوليادكي لا أنت ! »

وصاحت الزوجة وهي تضرب زوجها الطويل القامة على ذقنه
بقبضة يدها وتفتح طريقها اقتحاما الى الكيس : « بل ستريني
الكيس أيها السكر الثقي ! » ، الا ان النساج استبسِل هو
وباناس في الدفاع عن الكيس واكرهاها على الارتداد ، على ان الزوجة
هرعت اليهما وفي يدها محرك النار قبل ان يستردا أنفاسهما ،
وضربت به زوجها في مهارة على ذراعيه ، ثم ضربت النساج ضربة
على ظهره ، وبلغت الكيس .

وقال النساج وقد افاق مما أصابه : « لم تركناها تصل اليه؟ » .
وقال باناس في برود : « لم تركناها تصل اليه ؟ بل لم تركتها
انت ؟ » .

وأخذ النساج الى الصمت برهة ثم قال وهو يحك ظهره :
« لاشك ان محرك نارك مصنوع من الحديد ! لقد اشترت زوجتي
محركا من السوق في العام الماضي ، ودفعت خمسة وعشرين كوبكا
ثمنا له ، ولكن ذلك المحرك لا ضرر منه ، فهو لا يؤلم » .

وفي هذه الأثناء وضعت الزوجة الظافرة السراج المتخذ من الخزف
على الأرض ، وفكت الكيس واختلست النظر اليه ولكن عينيها
الواهنتين اللتين لمحتا الكيس من قبل خدعتها هذه المرة ولا شك .

فصاحت مصفقة بيديها في فرح وسرور : « آه ان خنزيرا كاملا
يقبع في هذا الكيس ! »

ولكر النساج باناس قائلا : « خنزير ! هل سمعت ؟ خنزير
كامل ! وانك لمسئول عن هذا الخطأ كله ! » .

واجاب باناس وهو يهز كتفيه : « لا حيلة في الأمر ! » .

فصاح النساج وهو يخطو الى الامام : « أجل ، لا حيلة في
الأمر ! فقيم الانتظار؟ ولنمضين بالكيس ! هلمى بنا ، اغربى عنا !
فالخنزير خنزيرنا ! » .

وقال باناس وهو يدنو منها : « اذهبي ، اذهبي ايتها المرأة الشيطانة ! فان هذا الكيس ليس ملكك ! » .

وتناولت زوجته محرك النار مرة اخرى ، ولكن شوب تسلل من الكيس في تلك اللحظة ، ووقف وسط الغرفة وراح يتمطى كما يفعل المرء اذ يستيقظ لتوه من نوم طويل ، وصرخت زوجة باناس ، ووقفوا جميعا فاغرين افواههم .

وقال باناس وهو يحقق النظر وقد اتسعت حدقاته : « ما بال هذه المرأة الحمقاء تقول انه خنزير ؟ انه ليس بخنزير » .

وقال النساج وهو يترنج مرتدا الى الوراء في زعر : « يا الهى ! ويا للرجل الذى سقط في الكيس ! الا فلتقل ما تشاء ولتنفجر ان شئت فما من ريب ان للشيطان الزئيم يدا في ذلك ، وى ! ان الشيطان لاياتى من النوافذ ! » .

وصاح باناس وهو يدقق النظر : « انه شوب ! » .

وقال شوب ضاحكا : « ومن يكون سواهُ؟ مرحى ، ألم اخذعكم خدمة بلرعة ؟ لاشك عندى في انكم كنتم تنوون ان تأكلوني ظانين انى خنزير من الخنازير ! فاصبروا لحظة اعوضكم عما فاتكم ، فان في الكيس شيئا آخر ، ان لم يك خنزيرا بأكمله ، فهو بلا ريب حلوف صغير أو حيوان آخر من الحيوانات الحية ، فقد ظل شيء يتحرك من تحتى » .

واندفع النساج وباناس الى الكيس ، وتشبثت ربة البيت بالطرف الآخر منه ، وربما كان التنازع عليه خليقا بأن يتجدد لولا ان القندلفت أدرك انه لم يعد له أمل بعد في الاختفاء ، فتسلل من الكيس بمحض ارادته .

وذملت المرأة فتركت الساق التى كانت قد بدأت تجر منها القندلفت الى خارج الكيس .

وقال النساج في فزع : « هاكم رجلا آخر من الزمرة ! ان انشيطان ليعلم ماذا دها العالم ! لقد اختلط عقلى ، وكيف بى والرجال يوضعون في الاكياس بدلا من الأرغفة أو المقائق ؟ » .

وقال شوب ، وقد زادت دهشته عن الآخرين : « انه القندلفت ! وى ، وى ! ما ابرعك ياسولوخا ! تضعين رجلا في كيس ! لقد

ظننت وقتئذ ان كوخها زاخر بالأكياس والآن أدركت الحقيقة ،
لقد كانت تخفى كل رجلين في كيس ! وكنت اظن اننى الوحيد
الذى ... يا لها من امرأة ! » .

وتملك الفتيات شىء من الدهشة عندما وجدن ان أحد الكيسين
قد اختفى .

وهتفت اوكسانا : « لا حيلة فى الأمر ، وحسبنا هذا الكيس » .
ورفعت الفتيات الكيس وألقينه على الزلافة .

واستقر رأى شيخ القرية على التزام الهدوء ، وقال يحدث
نفسه : « انه لو أهاب بهن ان يحلن الكيس ويخرجه منه لهربت
الفتيات الحمقاوات ، ظنا منهن ان الشيطان هو الذى قبع فيه ،
وظل وهو ملقى فى الطريق حتى يجيء اليوم التالى . ولم تلبث
الفتيات ان طرن بالزلافة متشابكات الأذرع ، كالعاصفة تجتاح
الجليد المرقع ، وجلست كثيرات منهن على الزلافة طلبا للمتعة ،
بل تسلق بعضهم واستوين على رأس شيخ القرية ، وصح عزم
الشيخ على ان يتحمل كل شىء .

ووصلن آخر الأمر الى الكوخ ، وفتحن الباب المؤدى الى الغرفة
الخارجية وجررن اليها الكيس ضاحكات .

وصحن جميعا معجلات بفتحه : « فلنر ما فيه ! » .

وفى تلك اللحظة زاد الفواق الذى يمدب الشيخ شدة على
شدة ، حتى أخذ صوته يعلو بالفواق والسعال جميعا .

وصرخت الفتيات مبتعدات فى فزع : « آه ، ان نعمة شخصا
يقبع فى الكيس ! »

وقال شوب وهو يدخل عليهن : « ما بالكن ؟ لماذا تجررن كأنما
أصابكن جميعا مس من الشيطان ! » .

وصاحت اوكسانا : « آه يا أبت ! ان فى الكيس رجلا ! » .

« فى الكيس ؟ من اين جئتن بالكيس ؟ » .

فقلن جميعا على الفور : « لقد تركه الحداد فى الطريق » .

وراح شوب يحدث نفسه قائلا : « اذن هذا هو السر ؟ ألم
أقل هذا ؟ » .

« ما يخيفكن ؟ فلنلق نظرة عليه ، هيا أيها الرجل ، وأرجو الا

يسوءك اننا لا نخاطبك باسمك اللائق ، هلم ولتخرجن من الكيس
زاحفا ! » .

وفعل شيخ القرية ذلك .

وصرخت الفتيات « آه ! » .

وقال شوب يحدث نفسه وقد انتابه الدهول وهو يتفرس في
الشيخ من قمة رأسه الى اخصص قدميه : « اذن فقد اندس
الشيخ في كيس ايضا ! مرحى ، مرحى ! » ، ولم يزد

ولم يك شيخ القرية نفسه بأقل حيرة منه فلم يعرف كيف يبدأ
الحديث .

ثم قال موجها الخطاب الى شوب : « اظن ان الليلة باردة » .

فأجاب شوب : « لقد ألم بالجوشىء من الصقيع ، ولكن اسمح
لى ان أسالك بماذا تطلى حذاءك ، أبدهن الأوز ام بالقطران ؟ » ،
ولم يك شوب يقصد أن يسأل هذا السؤال ، بل كان يريد ان
يقول : « كيف اندسست في هذا الكيس ايها الشيخ ؟ » ولأمر ما
سأل سؤالاً مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف .

وقال الشيخ : « القطران أفضل ، طابت ليلتك يا شوب » ،
وشد قبعته على رأسه وغادر الكوخ .

وقال شوب ، وهو ينظر الى الباب الذى خرج منه شيخ القرية :
« ماذا دهانى حتى أسأله بم يطلى حذاءه ؟ الا ما أبرعك يا سولوخا
حتى تضعى رجلا كهذا فى كيس ! تالله انها لامرأة شيطانة ! وقد
أدت بى غباوتى .. ولكن أين ذلك الكيس الملون ؟ » .

فقالت اوكسانا : « ألقيت به فى ركن من الأركان ، فقد خلا
مما فيه » .

« اننى لأعرف قصته كلها ، ليس فيه شىء حقا ! اتى به الى
هنا ، ان فيه رجلا آخر. هزبه جيدا ، ماذا وجدت فيه ؟ لاشىء ؟
يا للمرأة الملعونة ! ومع ذلك فانك اذا نظرت اليها حسبتها قديسة
ثم تذق قط الإطعام الصائمين » .

ولتترك الآن شوب يصب جام غضبه كما يشاء ، ولنعد الى
الحداد ، فان الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير .

واستبد الخوف بفاكولا اول الامر ، وخاصة عندما ارتفع عن

الأرض ارتفاعا أعجزه عن أن يرى شيئا مما يقع تحته ، ومضى الفتى يطير كالذبابة يكاد يمس هامته القمر ولو لم ينحن لعلمت قبمته به ، وما ان انقضت فترة وجيزة حتى استعاد ثقته بنفسه ، بل بدا يسخر من الشيطان ، وكان يطرب كثيرا اذ يرى كيف يعطس الشيطان ويسعل حين يخلع صليبه الصغير المصنوع من خشب السرو من عنقه ويدلى به اليه ، وكان يعتمد رفع يده حتى تحك رأس الشيطان ، فيظن الشيطان انه يرسل عليه اشارة الصليب ، فيزيد من سرعته في الطيران وكان الضوء باهرا في ذلك الارتفاع ، والهواء شفافا تلتف به غلالة فضية رقيقة من الضباب ، وكان كل شيء واضحا للعيان ، حتى ان الفتى استطاع ان يرى مشعوذا يمرق مروق السهم بجوارهما وهو جالس في قعر ، والنجوم تتجمع في لمة لتلعب لعبة الاستخفاء ، وقد راح حشد كامل من الأرواح يدور في سحابة مبتعدة عنهما .

واخذ شيطان من الشياطين يرقص في ضوء القمر ويخلع قبمته حين يرى الحداد يمر به غاذا السير ، وانطلقت مكنسة تطير عائدة الى مقرها ، وكان من الجلى ان ساحرة قد ترجلت عنها لتوها بعد ان بلغت مقصدها ، وصادف الفتى هو والشيطان كثيرا من المخلوقات البشعة ايضا ، وكانت جميعها تقف حين ترى الحداد لتتفرس فيه برهة ، ثم تسرع في طريقها لا تلوى على شيء . وظل الحداد طائرا حتى لاح له بطرسبورج فجأة وهي تتألق بالانوار « وقد اتفق ان كانت المدينة مضساءة في ذلك اليوم » ، واتخذ الشيطان ، وهو يطير فوق باب المدينة ، هيئة الجواد ، ووجد الحداد نفسه يمتطي صهوة جواد أصيل يتقد غيرة وحماسة وهو ماض في عرض الطريق .

يا الهى ! ما اعجب هذا الصليل وتلك الضوضاء وذلك النور الباهر المتألق ! لقد كانت الجدران ترتفع وتقوم على كل جانب منها أربع طبقات ، وكان وقع حوافر الخيل وقرقرة العجلات يتردد صداها ويتجاوب من كل حدب وصوب ، وبدا للأعين ان الأرض تنشق عن المنازل في كل خطوة ، وكانت الجسور تهتز ، والعربات يستبق بعضها بعضا وهي تمضي فى طريقها ، وسائقوا الزلاقات

وسواس الخيول يصرخون ، والجليد يقرع تحت وطء الف الزلاقة التي كانت تسرع من جميع الأنحاء ، وكان المارة يتجمعون ويتكاثرون تحت المنازل التي كانت مرصعة بالمصابيح الصغيرة ، فتمرق ظلالم الضخمة على الجدران حتى تبلغ رؤوسهم الاستقف والمداخن .

وتلفت الحداد حوله في ذهول ، وقد خيل اليه ان المنازل جميعا قد تعلقت به عيونها المتقدة التي لا حصر لها ترقبه ، وراى عددا كبيرا من السادة يرتدون معاطف النسيج فلم يدر من منهم يرفع له قبمته ، وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما أكثر الأعيان هنا ! انى لأحسب ان كل من يجتاز الشارع في معطف من الفراء انما هو مساعد قاض يجرى في أثره مساعد قاض آخر ! اما اولئك الذين يركبون تلك العربات الجميلة ذات النوافذ الزجاجية فهم من العمد او هم بلا شك مأمير او لعلهم في مركز ارفع » ، وقطع عليه حبل تفكيره سؤال وجهه اليه الشيطان :

« او اذهب راسا الى القيصرة ؟ » .

وقال الحداد يحدث نفسه : « كلا ، اننى لخائف ، فان القوزاق الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا في الخريف الماضى يعسكرون في مكان ما هنا ، وقد جاءوا من المسكر يحملون اوراقا من القيصرة ، فلاسألهم الراى على كل حال » .

« ايه ايها الشيطان ! ادخل في جيبي ، وانطلق بى الى الزابوروجاويين ! » -

ولم يلبث الشيطان ان استحال شيئا غاية في الرفع والصرع حتى انه لم يجد صعوبة ما في ان يندس في جيب الحداد ، ووجد فاكولا نفسه قبل ان يتسع له الوقت للتلف امام بيت كبير ، وارتقى درجا ، وهو لا يكاد يدرى ماذا يفعل ، وفتح بابا ، ثم تراجع قليلا وقد بهره الضوء المتألق ، اذ راى الفرقة الفاخرة الرياش ، ولكنه استرد بعض جأشه عندما أبصر الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا ، وقد أستوا الآن على أرائك فرشت بالحريير ودسوا تحتهم أحذيتهم اللطخة بالقطران ، وراحوا يدخنون أقوى انواع الطباق .

وقال الحداد وهو يتجه اليهم ، محييا اياهم بانحناءة كبيرة :

« طاب يومكم أيها السادة ! وليكن الله معكم ، فقد قدر علينا ان نلتقى هنا » .

وسأل الرجل الذي كان يجلس في مواجهة الحداد تماما صاحبا له على مبعده منه : « من يكون هذا الرجل ؟ » .

فقال الحداد : « او لاتعرفنى ؟ اننى انا فاكولا الحداد ، وانى لأذكر انك لك ياسيدى لبثت يومين في ديكانكا عندما قصدت اليها راكبا جوادك في الخريف الماضى ، متعك الله بالصحة السابغة ، ومد في عمرك ! وقد وضعت طوقا جديدا من الحديد على العجلة الامامية من عربتك » .

فقال ذلك الزابورجواوى نفسه : « آه ! انه ذلك الحداد الذى يجيد النقش ، طاب صباحك أيها الجار ! ما الذى جاء بك الى هنا؟ » .

وأجاب الزابورجواوى وهو يشد قامته في اعتداد بالنفس : « حسنا أيها الجار » ، ثم أردف في لكنة اوكرانية قوية يريد ان يظهر بمظهر من يستطيع التكلم بالروسية : « حسنا ، انها لمدينة كبيرة ، أليس كذلك ؟ » .

واراد الحداد أيضا ان يثبت علو كعبه في هذه اللغة حتى لا يظهر بمظهر المبتدئ ، ثم انه كان يستطيع هو أيضا ان يتحدث بلغة الكتب على ما مر بنا من قبل .

فاجاب بالروسية أيضا في غير ما اكتراث : « انها لمدينة عظيمة ! ولا مشاحة في ان المنازل كبيرة جدا ، كما ان الصور المعلقة متقنة الرسم الى حد عجيب ، وقد زين كثير من المنازل بحروف وشيت بالذهب في اسراف ، وما من ريب في ان التناسب بين هذا وذاك رائع » .

وارتفع قدر الحداد في نظر الزابورجواوين ، اذ رأوه يفيض في حديثه هذه الافاضة .

« لنواصلن الحديث معك فيما بعد أيها الجار، ذلك اننا ذاهبون الآن الى القيصرة » .

« الى القيصرة ؟ افلا تتفضلون أيها السادة وتأخذوننى معكم؟ » .

وهتف زابورجواوى يقول في لهجة تحاكي لهجة الرجل الناضج وهو يحدث ابنا له في الرابعة من العمر اذا هو طلب ان يمطلى

صهوة جواد حقيقى كبير : « انت ؟ وما عسى ان تفعل هناك ؟ كلا ، لا نستطيع ذلك ، فاننا سنتحدث مع القيصرة فى شئوننا الخاصة » ، وشابت وجهه امارات تنبىء بخطر الامر وجلاله .

والحف الحداد فى الرجاء قائلا : « بل خذونى معكم » ، وهمس الى الشيطان فى صوت خفيض وهو يدق على جيبه بقبضة يده : « دعمهم ياخذونى ! » .

وما ان قال هذا حتى هب زابوروجاوى آخر يقول : « فلناخذه معنا ايها الرفاق ! » .

وانضم اليه آخرون قائلون : « اجل ، فلناخذه معنا ! » . « اذن فعليك ان ترتدى من اللباس ما ترتديه » .

وشرع الحداد يرتدى سترة زرقاء واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل رجل تغطيه المخمرات الذهبية قائلا : « لقد حان الوقت للمضى الى القيصرة » .

وتملك الدهول الحداد مرة اخرى وهم يدفعون به فى عربة عظيمة تتأرجح على زنبركات ، واخذت البيوت ذات الطبقات الاربع تمر به سراعاً على الجانبين ، بدا له ان اديم الطريق الجبلجمل يموج تحت وقع حوافر الخيل .

وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما ابهر الضياء ! ان الضوء لا يبلغ هذا المبلغ فى موطنى حتى فى اثناء النهار ! » .

ووقفت العربات امام القصر ، وترجل الزابوروجاويون ، ودخلوا بهوا فحماً ، وشرعوا يرقون درجا تتلأأ فيه الأنوار الساطعة .

وغمغم الحداد يقول بينه وبين نفسه : « يا له من درج ! ومن المؤسف ان يطأه المرء بقدميه ، يا للزخارف ! يقولون ان الحكايات تكذب، وحق الشيطان انها لا تكذب الا قليلا ! يا الهى ! يا للدرايزون ! وما اروعها من صنعة ! لاشك ان الحديد وحده قد تكلف خمسين روبلا سويا » .

وما ان صعد الزابوروجاويون الدرج حتى اجتازوا اول غرفة للاستقبال ، وتبعهم الحداد فى تهيب ، مشفقان تنزلق قدماه على خشب الأرض الأملس فى كل خطوة ، ثم ساروا مجتازين ثلاث غرف للاستقبال ، والحداد لا يكف عن الاعجاب الذى ملك عليه له ،

فلما ولجوا الغرفة الرابعة لم يتمالك نفسه من المضي الى صورة معلقة على الجدار ، وكانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها بين ذراعيها .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه قائلا : « يا لها من صورة ! ويا لهذا الرسم البديع ! انه يوشك ان ينطق ! وكأنما دبت الحياة فيه ! ثم الابن المقدس ! انه يضغط يديه الصغيرتين كل بالأخرى ثم يبتسم هذا المسكين ! والالوان ! يا الهى ! ما أروعها ! يخيل الى ان الصورة ليس فيها من تراب الحديد الا ما يساوى كويكا واحداً ، ان كل ما فيها أخضر زمردى وصباغ قرمزي ، أما اللون الأزرق فيتلالا تلالوا ، يا لها من قطعة فنية رائعة ! وانى لأحسب ان بطانة الصورة قد طليت بأغلى أنواع الرصاص الأبيض ، ومضى يبدىء ويعيد شاخصا الى الباب يتحسس القفل ، « وهذه الصورة على الرغم من بلوغها الغاية فى الروعة فان هذا القبض النحاسى لاكثر منها جمالا وابداعا ، آه ، يا لجمال الصقل ! انى لأحسب ان ذلك كله قد قام به الحدادون الألمان ، وتكلف أموالا طائلة » .

ولعل الحداد كان خليقا بأن يسترسل الى تأملاته هذه وقتا طويلا لو لم يلكزه فى ذراعه خادم يرتدى لباسه الرسمى ويذكره بالا بتأخر عن رفاقه ، واجتياز الزابوروجاويون غرفتين أخريين ثم توقفوا ، وقيل لهم ان ينتظروا فى الغرفة الثالثة ، وكان فيها عدد من القواد يرتدون زيهم العسكري الموشى بالذهب ، وانحنى الزابوروجاويون ذات اليمين وذات اليسار ، ثم توقفوا جميعا عن الحركة .

وبعد لحظة واحدة دخل الغرفة رجل أقرب الى البدانة ، عظيم الهامة فى جلال يرتدى زى زعماء القوزاق وحذاء أصفر ، وفى ركابه حاشية كاملة ، وكان أشعث الشعر يشوب عينيه شئ من الحول وتبدو على وجهه امارات الاستلاء والاعتداد بالنفس ، تنطق كل حركة من حركاته بما الفه من اصدار الأوامر ، ودب الاضطراب بين القواد الذين كانوا يذرعون الغرفة مزهوين بزيهم الموشى بالذهب ، وبدا عليهم وهم ينحنون له انحناءات كبيرة انهم يرقبون فى لهفة آية كلمة ينطق بها ، بل أقل حركة تصدر منه حتى يهرعوا فى الحال ملبين رغباته وطلباته ، ولكن زعيم القوزاق لم يعر ذلك كله أدنى

التفات ، وكل ما فعله ان اوما اليهم ، ثم اتجه الى الزابوروجاويين .
وانحنى الزابوروجاويون جميعا حتى مست جباههم الأرض .
فقال الرجل في تمهل وكانت الكلمات تخرج من أنفه بعض الشيء :
« او حضرتم جميعا الى هنا ؟ » .
فأجاب الزابوروجاويون وهم ينحنون مرة أخرى : « جميعا
يا باتكو ! » (١)

« لا تنسوا ان تحدثوا بالطريقة التي اشرت عليكم بها » .
« لن ننسى يا باتكو ! »
وسال الحداد واحدا من الزابوروجاويين : « هل هذا هو القيصر؟ »
فأجاب صاحبه : « القيصر حقا ! انه الأمير بوتمكنين نفسه ! » .

وطرقت أذني الحداد اصوات تنبعث من الغرفة الأخرى ، ولم
يدر في اى اتجاه يدبر بصره حتى يرى رتل السيدات يلجن الغرفة
مرتديات ثيابا من من الأطلس لها ذيول طويلة ، ولمة من رجال البلاط
فى سترات موشاه بالذهب وقد ربطوا شعورهم فى ضفيرة تسترسل
عنى ظهورهم ، لقد كان الفتى لا يرى فى ذلك كله الا غاشية من نور
وسنا يحار فيهما البصر .

وخر الزابوروجاويون جميعا على ايديهم وركبهم وهتفوا فى صوت
واحد : « الرحمة يامامو ، الرحمة ! » (٢)

واستلقى الحداد ايضا على الأرض فى غيرة وحماسة شديدين ،
وان كان لم ير شيئا ، وهرع بعض رجال البلاط ، ولكنوا
الزابوروجاويين .

فصاح الزابوروجاويون : « لن نهض يا مامو ! لن نهض ،
ولنمت ولكننا لن نهض ! » .

وعض بوتمكنين شفثيه ، ثم شخص اليهم بنفسه آخر الامر ، وهمس
فى اذن واحد من الزابوروجاويين فى صوت حازم بات ، فهبوا وقوا .

ثم تجرأ الحداد أيضا ، ورفع رأسه ، فرأى امامه امرأة قصيرة
القامة ، بل هى أقرب الى البدانة ، زرقاء العينين يحف بها ذلك

(١) باتكو فى الادروانية معناها الاب - المؤلف .
(٢) مامو فى الادروانية معناها الام - المؤلف .

الجلال السني الذي لا يملك اى انسان حيا له الا ان يخضع ويستسلم ،
اجل ذلك الجلال الذي لا نجده الا في الملكات .

وقالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهى تنظر الى الزابوروجاويين
نظرة فاحصة يشوبها الفضول : « لقد وعدنى سمو الأمير بان
يعرفنى اليوم ، من لم ارهم بعد من افراد شعبي » ، ثم مضت
تقول وهى تدنو منهم : « ار تحظون بالعناية الواجبة هنا ؟ » .

« اجل ، وشكرا لك يا مامو ! ان الطعام الذى يقدم لنا لجيد
كل الجودة ، وان كان لحم الضأن لا يشبه فى شىء ما نصيبه منه
فى زابوروجى ، ولكننا بداننا نتأقلم » .

وقطب بوتمكن حاجبيه اذ راي الزابوروجاويين ينهجون فى
اقوالهم نهجا يختلف تمام الاختلاف عما ارشدهم اليه .

وشد واحد من الزابوروجاويين قامته فى اعتداد بالنفس وتقدم
منها قائلا :

« كونى رحيمة يا مامو ! لم تماقبن شعبك المخلص ؟ ترى كيف
آثرنا غضبك ؟ هل وضعنا يدينا فى يد التتر الفجار ، او عقدنا اتفاقا
مع الترك ؟ وهل خنا عهدك فى قول او فعل ؟ ام فقدنا عطفك ؟ لقد
كان اول ما سمعناه انك امرت ببناء الحصون فى كل مكان لمقاومتنا ،
ثم سمعنا بانك تنوين ادخالنا فى زمرة الجنود النظاميين ، وها نحن
اولاء الان نسمع بمصائب جديدة فى طريقها الينا ، فاي خطأ ارتكبه
الجنود الزابوروجاويون ؟ هل اخطئوا فى حرك اذ عبروا بجيشك
بيريكوب واعانوا قوادك على هزيمة اهل القريم ؟ » .

وحك بوتمكن ، فى غير اكتراث ، احجار الماس التى كان يرصع
بها يديه بفرشاة صغيرة ، ولم ينبس ببنت شفة .

وسألتهم القيصة فى قلق : « ماذا تريدون ؟ » .

ونظر بعض الزابوروجاويين الى بعض نظرات ذات مغزى .

وقال الحداد يحدث نفسه : « هذا هو الوقت المناسب ! ان
القيصة تسألنا عما نريد ! » ، وانطح على الارض فجأة .

« لاتامرى بعقابي يا صاحبة الجلالة ! بل رفقاىى وارحمينى !
افلا تقولين لى يا صاحبة الجلالة ، وحاشاى ان اقصد الاساءة الى
شخصك الكريم ، مم صنع الخف الصغير الذى تنتعلينه ؟ فانى

لاحسب انه ما من صانع احدثية في اية مملكة في العالم يستطيع ان يصنع خفا مثله ، رحماك ياربى! تمنيت ان تنتعل زوجتى خفا كهذا!«
وضحكت الامبراطورة ، وضحك رجال البلاط ايضا ، وقطب بوتمين حاجبيه وابتسم في الوقت نفسه ، ولكز الزابوروجاويون الحداد تحت ذراعه ، وتساءلوا في عجب : « اجن الرجل ؟ » .

وقالت الامبراطورة في تلطف : « انهض اذا كانت الرغبة في خف كهذا قد استبدت بك الى هذا الحد ، فما ايسر تدبير الامر ! انتوا له فورا باحسن خف وليكن موشى بالذهب ، لشد ما اطرب حقا لمثل هذه الطوية السليمة ! » ، ثم مضت تقول . « هاك موضوعا خليقا بان يتناوله قلمك البارع » ، ملتفتة الى سيد متوسط العمر ذى وجه مكنتز اقرب الى الشحوب كان يقف على مسافة ما من الاخرين وكانت سترته المتواضعة بأزرارها الصدفية الكبيرة تنبىء بأنه ليس من رجال البلاط .

واجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو يحنى هامته : « ما اعظم فضلك يا صاحبة الجلالة ، وهيها ان يوفى هذا الموضوع حقه الا رجل من طراز لافونتين على الأقل ! » .

« انى لاقول لك مخلصه بان السرور الذى افاضته على روايتك « قائد اللواء » (١) لانزال آثاره عالقة في نفسى ، وان قراءة آثارك لمتعة اية متعة ! » ، ومضت الامبراطورة تقول وهى تلتفت مرة اخرى الى الزابوروجاويين : « على اننى سمعت انه ما من أحد منكم اقبل على الزواج في المسكر » .

فاجاب الزابوروجاوي الذى كان يحدث الحداد قائلا : « كيف هذا يمامو ؟ انك لتعلمين ان الرجل لاغنى له عن زوجة » . وعجب الحداد اذ سمعه يخاطب القيصرة خطابا كأنما تعمد فيه ان تكون لهجته خشنة كتلك التى يتحدث بها الفلاح ولو انه كان يستطيع ان يتحدث بلغة الكتب .

فقال يحدث نفسه : « يا لهم من قوم ذوى دهاء ومكر! وانى

(١) ألف رواية « قائد اللواء » الهزلية للكاتب الروسى الساخر فونفيزين من سنة (١٧٤٥ - ١٧٩٢) - المؤلف .

لاحسب انه لا يفعل هذا الا لغرض ! » .

واسترسل الزابورجواوى يقول : « لسنا نساكا ، بل نحن قوم
آثمون ، من السهل ان تقع في المعصية شأن جميع المسيحيين
الصادقين ، وكثير منا متزوجون ، ولكنهم لا يقيمون مع زوجاتهم في
المسكر ، وبعضنا لهم زوجات في بولندا ، وبعضنا في اوكرانيا ، بل
ان بعضنا لهم زوجات في تركية » .

وجاءوا للحداد في تلك اللحظة بالخف .

فصاح فرحا وهو يتناوله : « يا الهى ، ما ابداع ما وشى به
من تطريز ! يا صاحبة الجلالة ! مادام الخف الذى تنتعلينه كهذا
الخف - وانى لاحسب ان جلالتك تترحلقين به على الجليد - فما
بان قدميك ! لاشك انهما مصنوعتان من السكر الخالص ! » .

وكان للامبراطورة وايم الحق قدمان بديعتان صورتا احسن
تصوير ، فلم تتمالك نفسها من الابتسام وهى تسمع ذلك الاطراء
تنطلق به شفتا حداد ساذج ، يبدو في لباسه الزابورجواوى وسيما
بالرغم من وجهه القاتم .

وسر الحداد بهذه اللفتة الكريمة ، فصبت نفسه الى سسؤال
القيصرة الجميلة عن كل شيء بالتفصيل : اصحيح ان القياصرة
لا ياكلون الا الشهد ولحم الخنزير الحنيد وما اشبه ذلك ؟ الا انه
شعر ان الزابورجواوين ينخسونه بين ضلوعه نخسا ، فصح عزمه
على ان يلزم الهدوء ، وعندما التفتت الامبراطورة الى الرجال الذين
هم اكبر منه سنا وبدأت تسألهم عن سبيلهم في الحياة وعاداتهم في
المسكر ارتد الحداد الى الوراء وانحنى على جيبه وقال في رفق :
« ابتعد بى من هنا واسرع ! » ، ولم يلبث ان وجد نفسه خارج
ابواب المدينة .

هتفت زوجة النساج البدينة تقول في لثفة ، وهى واقفة مع جماعة
من نساء ديكانكا في عرض الطريق : « لقد غرق ! تالله انه غرق !
ولا قدر على ان ابرح المكان ابدا ان لم يكن قد غرق ! » .

وصاحت امرأة ارجوانيسة الأنف ترتدى سترة قوزاقية ملوحة
بذراعها : « وى ! اكاذبة انا اذن ؟ وهل سرقت بقره احد ، او
حصدت احدا حتى تنكرن قولى ؟ الا كتب على الله ان تعاف نفسى

شرب الماء ان كانت يربير شيخا العجوز لم تر بعيني رأسها الحداد وهو يشنق نفسه ! » .

وقال شيخ القرية وهو يفادر كوخ شوب ويلحق بالجماعة : « أو شنق الحداد نفسه ؟ وى ! ما كنت لأصدق هذا ! » .

وقالت زوجة النساج : « خير لك ان تقسولى : كتب الله على ان تعاف نفسى شرب الفودكا ايتها السكيرة العجوز ! لقد كان حتما عليه أن يكون في مثل جنونك حتى يشنق نفسه ، ، أغرق نفسه ؟ أجل أغرق نفسه في الفرجة التى بين الجليد ! وانى لأعلم ذلك علمى بأنك كنت في الحانة لتوك ! » .

وردت المرأة ذات الانف الأرجوانى في حنق وغضب : « أيتها الفاجرة ! انظرن ؟ بماذا تتهمنى ! لخير لك ان تعقلى لسانك أيتها الفاجرة ! أو تحسبين اننى لا أعرف أن القندلفت يذهب لزيارتك كل ليلة ؟ » .

واستشاطت زوجة النساج غضبا .

« ماذا تقولين عن القندلفت ؟ لمن يذهب القندلفت ؟ اى اكاذيب تختلقين ؟ » .

وشقت زوجة القندلفت طريقها الى المتشاجرين ، وكانت ترتدى سترة من القطن الأزرق مبطنة بجلد الأرانب ، وصاحت تقول : « القندلفت ؟ لأرينكما كيف تحترمان اسم القندلفت ! من منكما جرى اسم القندلفت على لسانها ؟ » .

فقالَت المرأة ذات الانف الأرجوانى مشيرة الى زوجة النساج : « هذه هى الفاجرة التى يزورها القندلفت » .

فقالَت زوجة القندلفت وهى تخطو صوب زوجة النساج : « اذن فانك انت أيتها العاهرة ! أجل انت ، اليس كذلك ؟ انت الساحرة التى نفثت فيه من سحرِك وسقيته شرابا دنسا لتحمله على القَدم أُنِك » .

فقالَت زوجة النساج وهى تتراجع مترنحة : « اختف ورائى أيتها الشيطان ! » .

« آه أيتها العاهرة الملعونة ! قصف الله عمرِك ، ولا كتب عليك ان ترى أطفالك ! أيتها المخلوقة الشقية ! » .

وعندئذ بصقت زوجة القندلفت في وجه المرأة الأخرى مباشرة .
وحاولت زوجة النساج أن تفعل بها مثل ما فعلت ، ولكنها بصقت
بديلا من ذلك على ذقن شيخ القرية ، ولم يكن حلقه بعد ، وكان
قد دنا من المتشاجرين حتى يزداد سمعا لما يدور بينهما من شجار .
وصاح الشيخ وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه :
ايه ايتها المرأة القذرة ! » .
وكانت حركته كافية لتفريقهن ، فانطلقن مهرولات كل في ناحية
يلقين اللوم على الشيخ صارخات هاتفات .

وردد الشيخ ولم يفرغ بعد من مسح وجهه : « ما أبشع هذا !
اذن فقد غرق الحداد ! يا الهي ! ما كان أبرعه من نقاش ! ويا
للسكاكين ومناجل الحصاد الجيدة التي كان يصنعها ! وما كان أقواه
من رجل ! » ، ومضى في تأملاته يحدث نفسه قائلا : « أجل ليس
في قريتنا الكثير من أمثاله ، والحق اننى لم الحظ وانا قابع في ذلك
الكيس الملعون أن الفتى المسكين كان شديد الإكتئاب ، اذن فهكذا
انتهت حياة الحداد ! لقد كان حيا بالأمس ، أما اليوم فلم يعد له
وجود ، وقد كنت أنوى أن أقصد اليه لاحدى فرسى البقعاء ! » .
والتمس الشيخ طريقه الى كوخه في هدوء وقد شغل باله بهذه
الأفكار المسيحية .

واضطربت اوكسانا أيضا اضطراب عندما بلغها النبأ ، وكانت
لا تثق كثيرا بقول بيريير شيئا : انها رأت الحداد يشنق نفسه ،
ولا بشرثرة النساء ، فقد كانت تعلم ان الحداد اتقى من ان يلقي
بنفسه الى التهلكة ، ولكن ماذا يكون لو انه كان قد رحل معتزما
الا يعود الى القرية أبدا ؟ والحق انه كان من المتعذر على المرء ان
يجد في أى مكان فتى قويم الخلق كهذا الحداد ، ثم انه كان مفتونا
بها! وقد احتمل نزواتها أكثر من أى فتى غيره ، وأخذت الحسناء
تنقلب في فراشها الليل بطوله ، على جانبها الأيمن تارة وعلى جانبها
الأيسر تارة أخرى ، ثم تعود الى جانبها الأيمن ثم الى الأيسر ،
واستمضى عليها النوم ، أجل أخذت تنقلب عارية في كامل فتننها
التي حجبتها الليل حتى عن نفسها ، وراحت تصب على رأسها اللوم
في صوت أوشك ان يكون جهيرا ، ثم هدأت بعض الهدوء فصح

عزمها على الا تفكر في شيء ، ومع ذلك فقد ظلت تفكر وتفكر ، لقد كانت تضطرم بنار الحمى ، وما ان لاح الصباح حتى كانت غارقة في حب الحداد الى اذنيها .

ولم يبد شوب سرورا ولا حزنا على مصر فاكولا ، فقد شغل فكره بأمر واحد ، ذلك انه لم يستطع ان ينسى خيانة سولوخا ، ولم يكف عن التنديد بها حتى اثناء نومه .

وانبلج الصبح ، وامتلات الكنيسة بروادها ولما يتنفس الصبح تماما ، ورسمت عجائز النساء عند مدخل الكنيسة علامة الصليب في ورع وتقى ، وكن يعصبن رعوسهن بأغطية من الكتان الابيض ويرتدين سترات من النسيج الابيض أيضا ، وقد وقفت امامهن سيدات في صدرات خضر وصفر ، بل كان بعضهن يرتدين معاطف زرقاء داكنة وشيت ظهورها برسوم مذهبة ، وحاولت الفتيات ان يشققن طريقهن مقتربات من مكان الايقونات ، وكن يرتدين ملء دكان من الشرائط تلتف حول رؤوسهن ، ويتقلدن القلائد والصلبان وقطع النقود حول اعناقهن .

وكان يقف امام هؤلاء جميعا السادة والفلاحون المتواضعون بشواربهم وقنزعات رعوسهم ورقابهم الغليظة وذقونهم التى حلقوها حديثا ، وكانوا كلهم يرتدون العباءات ذات القلائس تظل من تحتها سترة بيضاء جينا أو سترة زرقاء داكنة جينا آخر ، ويشيع السرور في كل وجه يقع عليه بصرك ، وكان الشيخ يلحق شفثيه مفكرا في المقائق التى سيفطر عليها ، اما الفتيات فكن يفكرن فيما هن بسبيله من تزحلق على الجليد مع الفتيان ، واخذت عجائز النساء يتمتمن بصلواتهن في غيرة وحماسة متزايدة . وكان المرء يستطيع ان يسمع في اية ناحية من نواحي الكنيسة سفيرييجوز القوزاقى وهو ينحنى الى الأرض ، على ان اوكسانا كانت تقف وحدها شاعرة باكتئاب لا عهد لها به ، فقد كانت تتمتم بالصلاة ولا تصلى ، وتزاحمت في قلبها مشاعر كثيرة متباينة كل منها اكثر اقلاقا للنفس واعظم اثارا للأسى من الآخر ، فلا يجد من ينظر الى وجهها الا حيرة ممضة وهما ثقيلتا وترقرقت الدموع فى عينيها وعجزت الفتيات عن التهكن بالسبب ، ولم يدر بخلدن ان الحداد هو المسئول عما هى فيه ،

على ان اوكسانا لم تكن هي الوحيدة التى شغل بالها على الحداد ، فقد لاحظ القرويون جميعا ان العيد قد خلا من البهجة المعهودة فى الأعياد ، وانه كان ينقصه شيء . ومما زاد الطين بلة ان صوت القندلفت كان غليظا أجش بعد ما كابد من رحلته وهو قابع فى الكيس ، واخذ يثر أزيزا لا يكاد يسمعه أحد . صحيح ان المرتل الذى كان يزور القرية ، راح يرتل من قرار النغم ترتيلا جميلا ، ولكن هذا الترتيل كان خليقا بأن يكون أعذب وأجمل فى وجود الحداد الذى الف دائما ، حين يرى القوم ينشدون صلاة « يا أبانا » أو صلاة « الطفل المقدس » ، ان يعتلى منصة المرنمين وينشد الأنشودة من فوقها بالنغمة التى جرى أهل بلتاوة على الترنم بها ، ثم انه كان الفتى الوحيد الذى يؤدى مهمة السادن ، وفرغ القوم من صلاة الفجر ، ثم انتهوا من القداس بعد أدائهم صلاة الفجر .. ترى ، أين اختفى الحداد حقا ؟ ..

وفى باكورة الصباح عاد الشيطان بالحداد طائرا بسرعة فاقت السرعة التى طار بها فى ذهابه ، ووجد فاكولا نفسه فى غمضة عين بجوار كوخه ، وانطلق الديك صائحا فى تلك اللحظة .

وهتف الحداد وهو ممسك بالشيطان من ذيله ، وكان قد أوشك ان يولى الأدبار : « الى أين ؟ صبرا لحظة يا صديقى ، فان ما بيننا لم ينته ، ذلك اننى لم أشكرك بعد » ، ثم امسك بقضيب جلده ثلاث جلدات ، فانطلق الشيطان المسكين يجرى كفلاح جلده مساعد القاضى لتوه ، وهكذا انقلب عدو البشرية من خادع يغوى الناس ويضلهم ويعبت بهم الى مخدوع جازت عليه الحيلة ، ثم ولج الحداد الغرفة الخارجية ، وأعد لنفسه مكانا فى القش ، ونام حتى حان وقت الفداء ، ثم استيقظ فراه ان الشمس قد اتملت كبد السماء ، وهتف يقول : « لتسدد افرطت فى النوم وفاتنتى صلاة الفجر والقداس ! » .

وغلب الحزن على الحداد الورع ، فقد اعتقد اعتقادا جازما ان الله قد شاءت ارادته ان يقتص منه لما انتواه من اثم بالقاء نفسه فى موارد التهلكة ، فاصابه بهذا النوم الثقيل الذى منعه من حضور الكنيسة فى

مثل هذا العيد المقدس ، على أنه اخذ يعزى نفسه بقوله : انه سوف يعترف للقس بكل هذا في الاسبوع المقبل ، وسوف يخشع من الآن فصاعد خمسين مرة كل يوم عاما كاملا ، ثم نظر في الكوخ ، فلم يجد به احدا ، ذلك أن سولوخا لم تكن قد عادت من الكنيسة بعد فيما يظهر .

وأخرج الخف بعناية من صدر سترته ، وراح يتعجب مرة اخرى من نفاثة صناعته وما خاضه من مغامرة عجيبة في الليلة الماضية ، واغتسل الفنى وارتنى اغلى ما عنده من ثياب ، وتحلى باللباس التى حصل عليها من الزابوروجاويين نفسها وأخرج من صندوق قبعة جديدة من الاستراخان الجيد ذات قمة زرقاء داكنة لم يلبسها مرة واحدة منذ اشتراها اثناء اقامته في بلتاوة ، وأخرج ايضا حزاما جديدا تمثلت فيه الوان قوس قزح ، وجمع هذا كله في مندبل ، وزاد عليه سوطا ثم مضى من فوره لمقابلة شوب .

وحملق شوب في الحداد وهو يدخل كوخه ، ولم يدرك : اى حال من احوال الحداد اعجب واغرب ؟ اقيامه من بين صفوف الاموات ، ام جراته في القدوم عليه ، ام تأنقه هذا التائق كأنه زابوروجاوى حق ؟ بل ازداد دهشة على دهشة عندما فك فاكولا المندبل وطرح امامه قبعة جديدة وحزاما لم ير لهما في القرية مثيلا من قبل ، ثم جثا امامه وقال في لهجة تفيض بالتوسل والابتهال : « الرحمة يا باتكو ! اضربنى ان شئت ، ولكن لا تفضب على ! هاك سوطا ، اضربنى به ما شاء لك الضرب ، فانى مسلم امرى اليك ، وهانذا اعترف بندمى على كل ما قدمت يداى ! اضربنى ، ولكن لا تحنق على ، فقد كنت يوما زميلا لآبى ، واكلتما الخبز والملح معسا وشربتما كأس الوفاء والاخلاص ! » .

واتما سر شوب في قرارة نفسه ، اذ رأى الحداد يجثو عند قدميه ، وهو الذى لم يدعن لاحد فى القرية ، بل لقد بلغ من شدة باسه انه كان يستطيع أن يلوى القطع ذات خمسة الكوبكات وحدى الخيل بين يديه كأنها الكمك ، واراد شوب ان يؤكد ماله من منزله فتناول سوطا ، وجلده به ثلاث جلادات على ظهره .

« وى ! هذا حسبى ، فانفض ! وتعلم ان تطيع دائما من يكبرونك

سنا ، ولننسى ما مر بيننا ، والآن حدثني بما تريد .
« زوجني أوكسانا ياباتكو ! » .

وفكر شوب قليلا ، ونظر الى القبعة والحزام ، وكانت القبعة جميلة
ينشرح لها الصدر ، ولم يكن الحزام دونها فى ذلك ، ثم فكر فى
سولوخا الخائنة وقال فى حزم : « حسنا ! فترسل الخطاب ! » .

وصاحت أوكسانا : « آه ! » ، عندما اجتازت عتبة الباب ورات
الحداد ، وراحت تحملق فيه وقد تملكها الدهشة والسرور جميعا .

وقال فاكولا : « انظري الخف الذى جئتك به ، انه الخف الذى
تلبسه القيصرة بلا فرق ولا خلاف » .

وقالت الفتاة وهي تلوح بذراعيها ولا تكف عن التأمل فيه : « كلا ،
كلا ! لا أريد الخف ، فاني راضية بك بصرف النظر عن الخف .. » ،
ثم علت وجهها حمرة الخجل ولم ترد .

وقصد اليها الحداد وأخذ بيدها ، وارتخت الفتاة الحسنة بصرها ،
وتجلى حسننها الفائق كما لم يتجل من قبل ، وقبلها الحداد المفتون
قبلة رقيقة ، فتضرج وجهها بحمرة قانية من الخجل ، وازدادت فتنة
على فتنة .

وكان الأسقف الطيب الذكر يجتاز ديكانكا راكبا العربة ، فاعجب
بموقع القرية ، وتوقف وهو يهبط الطريق أمام كوخ جديد .

وسال غببطه امرأة جميلة كانت تقف بجوار الباب وقد حملت بين
ذراعيها طفلا رضيعا : « كوخ من هذا الذى طلى بهذا الطلاء الباهر ؟ »

فأجابته المرأة وهي تنحنى : « كوخ الحداد فاكولا » . ولم تكن
هذه الفتاة سوى أوكسانا .

وقال غببطه وهو يلقي على الابواب والنوافذ نظرة فاحصة : « رائحة!
احل صنعة رائحة ! » ، وكانت النوافذ جميعا قد خططت بالطلاء
الأحمر ، وراح القوزاق فى كل مكان يمتطون سهوات جيادهم بجوار
الابواب وغلايينهم بين أسنانهم » .

ولكن غببطه زاد فاكولا اطراء عندما علم أن فاكولا اراد أن يكفر
عن ذنبه فى حق الكنيسة ، فطلا الجناح الأيسر كله من منصة المرتلين
باللون الأخضر وورصه بالأزهار الحمر .

ولم يكف فاكولا بذلك ، بل رسم الشيطان فى الجحيم على ناحية

من الجدار يطالع الداخل الى الكنيسة ، وكان منظره بشعا كل
البشاعة ، لا يمر به احد الا بصق عليه . وكانت النساء اذا لج طفل
فى البكاء بين اذرعهن حملنه ورفعنه الى حيث الصورة وقلن له :
« هاك ! وانظر ! ما أبشع هذا المنظر ! » ، فيحبس الطفل دموعه
ويختلس نظرة الى الصورة ، ثم يندس فى صدر أمه ويزداد بها
التصاقا .

انتقام رھیب



انتقام رهيب

- ١ -

كان ثمة هرج ومرج وضجيج فى حى من احياء كييف ، فقد كان الصاغ جوروبتس القوزاقى يحتفل بزواج ابنه ، وام الحفل عدد عظيم من الضيوف كانوا فى الايام الخالية يحبون الاكل الطيب، ويحبون الشراب اكثر ، ويحبون المرح اكثر واكثر ، وجاء ميليتكا الزابوروجاوى ، فيمن جاءوا ، ممتطيا صهوة جواده الاشقر مقبلا، لا يلوى على شىء من حفل صاخب اقيم فى سهل برشلاى حيث قضى سبعة ايام بليا ليها يثقل على جنود ملك بولنדה ويعب النيذ الاحمر عبا ، وجاء ايضا دانيلوبورولباش ، اخو الصاغ بالتبنى مصطحبا زوجته الشابة كاترينا وابنه البالغ من العمر اثنى عشر شهرا مقبلين من وراء نهر الدنيبير حيث بيت أسرته يقوم بين تلين ، واخذ الضيوف بحسن طلعة كاترينا الشابة ، وحاجبيها اللذين يحاكيان فى سوادهما المخمل الالمانى ، وثوبها الانيق المصنوع من النسيج الثقيل ، ونقبتها الحريرية الزرقاء وحذاؤها ذى الكعب الفضى ، ولكن دهشتهم كانت اعظم من عدم حضور والدها الشيخ معها ، فقد قضى الرجل عاما بل اقل من عام فى ذلك الاقليم ، ولم يسمع القوم عنه شيئا طيلة الواحد والعشرين عاما السابقة على ذلك ، ولم يات لزيارة ابنته الا بعد ان تزوجت ورزقت ولدا ذكرا ، ولا شك ان فى جمعته قصصا غريبة كثيرة جدية بان تحكى ، وكيف لا يكون هذا شأنه وقد قضى فى البلاد الاجنبية هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟ ان كل شىء فيها يختلف عما هو عليه فى بلادنا ، فالقوم ليسوا هم القوم كما ان تلك البلاد قد خلت من الكنائس المسيحية ، ومع ذلك تخلف الرجل عن الحضور .

وجاء اهل البيت للضيوف بفودكا مطيبة فيها زبيب وفيها برقوق ،

كما جاءوا لهم بكعكة زفاف فى طبق كبير ، وانقض الموسيقيون على الطبقة السفلى منها التى دست فيها قطع النقود عند خبزها ، وألقوا بكماناتهم وصنوجهم ودفوفهم التماسا لفترة قصيرة من الراحة ، وفى هذه الأثناء خرجت الفتيات والسيدات الشابات مرة أخرى ، بعد أن مسحن أفواههن بالمناديل المرطزة ، ووضع الفتيان أذرعهم فى خاصرتهم واخذوا يتلفتون حولهم فى استعلاء متأهين للمضى للقائهن ، واذا بالصاغ العجوز يبرز ايقونتين يبارك بهما الزوجين الشابين .

وكان قد أعطاها إياهما الناسك الموقر الأب فارفولومى ، ولم تكونا مركبتين على رصيعتين نفيستين ولا يشع منهما بريق لذهب أو فضة ، على أن أية روح شريرة ما كانت لتجرؤ على الاقتراب من أى امرئ وضعهما فى بيته ، ورفع الصاغ الايقونتين عاليا وهم بأن يتلو صلاة قصيرة ، واذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون فجأة صرخات يشيع فيها الرعب والفرع ، وتراجع القوم وأخذ كل منهم يشير فى رهبة الى قوزاقى وقف فى وسطهم ولم يدر احد من يكون ، ولكنه كان قد أبدع فى الرقص ، واستحوذ على الملتفين حوله ، وما ان رفع الصاغ الايقونتين حتى انقلبت سحنة القوزاقى فى الحال ، فازداد انفه كبيرا ، ومال على جانب وتبدل لون عينيه من السمرة الى الاخضرار وأزرق شفتاه ، وارتجف ذقنه ودق حتى غدا كالرمح ، وأطلت من فمه ناب ، وظهرت حذبة خلف رأسه ، واستحال رجلا عجوزا نالت منه الأيام .

وصاح القوم وقد التصق بعضهم ببعض : « انه هو ! انه هو ! » .
وصاحت الأمهات يتخطفن أطفالهن : « لقد ظهر الساحر مرة أخرى ! » .

وتقدم الصاغ فى مهابة واعتداد بالنفس وصوب اليه الايقونتين ثم هتف : « اغرب عنا يا صورة الشيطان ! فلا مكان لك هنا ! » ، فاخفى الشيخ الفريب وهو يفح فحيح الأفعى ، ويقمقع بأسنانه كانه الذئب » .

ولفظ القوم وثارن بينهم التكهنات ، وكان ضجيجهم أشبه بهدير البحر المت به عاصفة .

وتسأل الشبان : « من يكون هذا الساحر ؟ » ، ذلك انهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا .

وتتمت الشيوخ وهم يهزون رعوسهم : « تالله لتثورن المتاعب ! » ، واجتمع الناس في كل مكان من الغناء الفسيح زرافات ينصتون الى قصة الساحر الخيف ، على ان كلا منهم كان يرويها رواية تختلف عن رواية الآخر ، ولم يستطع أحد أن يقول عنه شيئا محققا .

ودحرج القوم برميلا من شراب العسل المخمر وجاءوا الى الغناء بجالونات كثيرة من النبيذ اليوناني ، وعاد الضيوف الى مرحهم ، وعزفت جوقة الموسيقى ، فأخذت الفتيات والسيدات الشابات ، كما أخذ كرام القوزاق في ستراتهم الزاهية الالوان يلدرون بسرعة وهم يرقصون ، وشرب الشيوخ الذين ناهزوا التسعين ، بل المائة ، كأسا أو كأسين ، ثم شرعوا يرقصون هم أيضا عائدين بالذكرى الى السنوات الخوالي التي لم تضع منهم سدى ، وظلوا يحتفلون حتى ساعة متأخرة من الليل احتفالا لا نجد له نظير اليوم ، وبدأ الضيوف يتفرقون ، ولكن لم يعد منهم الى البيوت الا القليل ، فقد بقى الكثيرون يقضون الليلة في فناء الصاغ الفسيح ، بل أخذ جمع عظيم من القوزاق الى النوم من غير دعوة ، فاستلقوا تحت الارائك أو على الأرض أو بجانب خيولهم أو بجانب الحظيرة ، وكان السكارى يرقدون حيث يتعثرون ويغطون غطيظا يصل الى اسماع أهل القرية جميعا .

- ٢ -

وانبعث من السماء ضوء رقيق غشى الأرض جميعا ، فقد بزغ القمر من خلف التل ، وغمر ضوءه ضفة الدنيبر الوعرة بقلالة بيضاء كالثلج ، أو كأنها النسيج الموصلى النفيس الذي اشتهرت به دمشق ، وانحسرت الظلال مرتدة الى أعماق غابة الصنوبر .

وكان ثمة قارب حفر من شجرة سندبان ، يسبح هابطا نهر الدنيبر ، وقد جلس غلامان في مقدمته ، ووضعوا قبعتهما القوزاقيتين السوداوين على جانب من رأسهما ، وراح الرشاش يتطاير من مجذافيهما كأنه الشرر ينبعث من حجر من الصوان .

ما بال هذين القوزاقيين قد صمنا عن الغناء ، وكفا عن الحديث عن القساوسة البولنديين الذين كانوا يتجولون في أوكرانيا يحملون القوزاق على اعتناق الكاثوليكية ، وعن المعركة التي استغرقت يومين مع التتر عند البحيرة الملحة ، ولكن كيف تنطلق عقيرتهما بالغناء ويتشدقان بالحديث عن ضروب البسالة ، وقد استغرق سيدهما في التفكير وتدلى ردن سترته القرمزية من القارب يخط في صفحة الماء ، وراحت سيدهما كاترينا تهز طفلها في رقة ولطف وقد تعلقت انظارها به ، على حين اخذ الفبار الرمادي الدقيق الذي يحمله الرشاش يلوث ثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل وقد تجرد من غطاءه الكتاني .

وبالها من متعة أن ترنو ببصرك من وسط الدنيبر الى التلال العالية والمروج الفسيحة والغابات الخضراء ، ولم تك هذه التلال تلالا بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تنتهى من أسفلها ومن أعلاها بقنن تشرف عليها السماء فى علاها ، وتشرف هى على السماء ، وأما الغابات القائمة على منحدراتها فلم تك أيضا غابات بالمعنى المفهوم ، بل كانت هى الشعر الذى يغطى رأس شيطان الحرجة الأشعث ، يتدلى الى الماء يفسل فيه لحيته التى تنبسط من تحتها السماء فى علاها ، وتمتد فوق رأسه مشرفة فى ذراها ، وكذلك لم تكن المروج مروجاً ، بل كانت نطاقاً أخضر يتوج قبة السماء ، ويتدلى من فوقه ومن تحته .

ولم يكن السيد دانيلو يتلفت حوله ، بل كان ينظر الى زوجته الشابة : « ما بالك غارقة فى الحزن أى زوجتى الصغيرة ومهجة قلبى كاترينا ؟ » .

قالت كاترينا وهى تخرج مندبلاً تمسح به وجه الطفل النائم : « لست غارقة فى الحزن أى زوجى دانيلو ! وإنما يملؤنى الخوف مما سمعته من القصة القريبة عن الساحر ، ويقول القوم : انه ولد بشع المنظر تتقحمه العين لا يرضى أى طفل بأن يلعب معه ، فهلا تستمع أى زوجى دانيلو الى القصة المخيفة التى يروونها عنه ! لقد خيل اليه أن الناس جميعاً يسخرون منه ، وكان اذا لقي انساناً فى الظلام ظنه يفتح فمه ويكشف عن أسنانه استهزاء به ، حتى اذا جاء اليوم التالى وجدوا هذا الانسان ميتاً لا حراك به . وقد عجبت لتلك

القصص وروعنى سماعها » وكان المنديل الذى أخرجه كاترينا لتمسح به وجه ابنتها قد طرزته بأوراق الشجر والتسوت مستعينة بالحريز الأحمر .

ولم ينبس السيد دانيلو ببنت شفة ، بل أخذ يحدق النظر فى الظلام حيث كان يلوح للأعين فيما وراء الغاية بمسافة كبيرة حافة مظلمة لسور بنى باللبن تقوم خلفه قصر قديم ، وكان جبين دانيلو يخطه ثلاثة خطوط من التجاعيد ، وأخذت يده اليسرى تربت شاربه الجليل .

وقال : « ليس المخيف فى الأمر انه ساحر ، بل المخيف انه ضيف شرير ، ترى أى نزوة بعثت به الى هنا ؟ لقد اثبتت ان البولنديين يتوون بناء حصن ليفرقوا بين الزابوروجاويين ، وقد يكون ذلك صحيحا ، تالله لأطحن بعش ذلك الشيطان اذا بلغتنى اية اشاعة بأنه يأوى اعداءنا فيه ، ولأحرقن هذا الساحر العجوز حتى لا تجد الغربان من بقاياها شيئا تنبش فيه ، وانى لأحسب ان لديه ذهباً وثروة من كل نوع ، وهناك يقيم الشيطان ! فاذا كان عنده ذهب ..

وسنمر بعد قليل بالصلبان . وتلك هى المقبرة ! وفيها يرقد اجداده الأشرار وقد تعفنت جثثهم وقد علمت بأنهم جميعا كانوا مستعدين ان يبيعوا انفسهم للشيطان بالمال . أجل كانوا مستعدين ان يبيعوا ارواحهم واجسادهم الفانية وكل ما يملكون ، ولو كان لديه ذهب حقا ، فما من داع يدعو الى الانتظار ، فليست كل حرب تأتى بالفنائم ! » .

« أعلم ما اتدبر ، وان قلبى ليحدثنى بانك لن تخرج من لقاءه بخير ، أنك تلهت وقد غلبت على محياك القسوة البالغة ، وتقطب حاجباك من شدة الغضب فوق عينيك .. » .

فقال دانيلو غاضبا : « اعقلى لسانك يا امرأة فلئن قدر لرجل ان يملك لا تقلب هو نفسه امرأة ، يا غلام ، على بنار أشعل بها غليونى ! » ، وعندئذ التفت الى غلام من الفلامين الذين كانا يجدفان ، ودق الغلام غليونه ينفض بعض الرماد الحامى ، وبدأ يحشو به غليون سيده ، ومضى دانيلو قائلا : « اتريد امراتى ان تخيفنى بذكر الساحر ! وى ! ان القوزاقى لا يخاف الشيطان ، ولا القس البولندى ! ، وماذا يكون من امرنا لو انصتنا الى السيدات يا ولدى ؟ ان خير الزوجات فى نظرنا الغليون والسيف الماضى ! » .

واخذت كاترينا الى الصمت ، وراحت تنظر الى النهر الهاجع ،
وهب النسيم فاثار الماء ، وتالق الدنيبر بلون الفضة كجلد ذئب يلوح
للعين ليلا .

وانعطف القارب واحتضن الضفة المشجرة ، وتبدت للانظار مقبرة ،
انقلبت صلبانها رأسا على عقب ، وتجمعت في لمة واحدة ، ولم يثبت
بين القبور زهر ولا عشب ، وانما كان يونس القمر وحشتها من علياء
سمائه .

وقال دانيلو وهو يلتفت الى المدافين : « اتسمعان الصيحات ايها
الغلامان ؟ ان شخصا يستنجدنا ! » .

وصاح الغلامان في صوت واحد وهما يشيران الى المقبرة : « اجل
نسمعها ، ويظهر انها تنبعث من تلك الضفة » .

ولكن الهدوء عاد فشمّل المكان ، والتف القارب مسائرا ثنية
الضفة البارزة ثم القى المدفان مجدافيهما فجأة وراحا يحملقان
امامهما دون ان يبديا حراكا وفعل دانيلو مثل ما فعلا ، وسرت
عدة من الفرع في اوصال القوزاقى .

وتهاوى صليب على قبر من القبور ، وبرزت من الارض جثة ذابلة
استرسلت لحيتها حتى بلغت وسطها ، واستطالت اظافرها فزادت
في الطول عن الاصابع نفسها ، ورفعت الجثة يديها عاليا في بطء ،
وكان وجهها كله متقلصا شائها ، يتم بجلاء عما تمنيه من عذاب فطيع ،
ثم اخذت تن في صوت مخيف وحشى : « انى اختنق ! انى اختنق ! » ،
حتى لقد بدا هذا الصوت يحز في القلب حز السكين ، ثم غابت في
باطن الأرض فجأة ، وتهاوى صليب آخر ثم برزت من الأرض جثة
ثانية اطول قامة واكثر بشاعة ، يغطى جسمها الشعر وتسترسل
لحيتها حتى تبلغ ركبتيها ، وتمتد اظافرها حتى تزيد على اظافر
الجثة الاولى ، ثم صاحت في صوت اشد هولا ورعبا : « انى اختنق » ،
ولم تلبث ان غابت في جوف الارض ، وتهاوى صليب ثالث وبرزت جثة
اخرى ، بدت للانظار كالهيكل العظمى تنشق عنه الارض ، وكانت
لحيتها تبلغ عقبها ، واطافرها تنفرس في الارض ، ورفعت الجثة
يديها الى السماء في حركة مفزعة كأنما تهم بان تمسك القمر ، واطلقت
صرخة خيل الى الاسماع ان احدا ينشر عظامها الصفر نشرا .

وصاح الطفل النائم على حجر كاترينا واستيقظ من نومه ،
وصاحت السيدة ايضا ، وترك المجدفان قبعتيهما تسقطان في النهر ،
ولم ينج سيدهما من رعدة سرت في جسمه .

وانطوت صفحة هذا كله كأن لم يكن ، على أن المجدفين لم يعودا
الى مجدافيهما الا بعد وقت طويل ، ونظر بورولباش في قلق الى زوجته
الشابة ، وقد تملكها الرعب وراحت تهز الطفل الذي لم يكف عن الصياح
بين ذراعيها ، وضمها دانيلو الى صدره وطبع قبلة على جبينها . .

وقال وهو يشير الى ما حوله : « لا تراعى يا كاترينا ! انظري ،
فما من شيء هناك ، وكل ما في الامر ان الساحر يريد أن يلقي الرعب
في قلوب الناس حتى لا يجرؤ احد على اقتحام وكره الدنس ، ولكنه
ان يخيف بهذا أحدا الا النساء ! فخلي عنك وأعطيني ولدي ! » .

وما ان فرغ دانيلو من قوله هذا حتى رفع ولده وقبله : « ايه
يا ايفان اظنك لا تخاف السحرة ، اليس كذلك ؟ اجبني وقل كلا
يا ايت ، فاني قوزاقي ، حسبك ! وكف عن البكاء ، فسرعان ما نبلغ
دارنا ، فتطعمك امك الثريد ، وتضعك في مهدك ثم تغنى لك :

هوه هوه باصغيري .

هوه هوه نم يا حبيبي .

المب والمب حتى تغدو رجلا .

يفخر بك القوزاق .

وتشير الارتباك في صفوف الأعداء .

« اميرني اذنك يا كاترينا ، فاني اظن ان اباك لن يعيش معنا في
سلام ، فقد كان حين اقبل علينا حزينا كاسف البال كأنما يملكه
الغضب ، ترى ، ما الذي حمله على المجيء اذا كان لا يروق له ؟
ثم انه لم يشأ ان يشرب نخب حرية القوزاق ، ولم يلاعب الطفل
قط ، لقد كنت خليقا بان اتق به من كل قلبي ، ولكنني عجزت عن
ذلك ، فقد احتسبت الكلمات في حلقى ، لا ، لا ! ليس لأبيك قلب
القوزاقي ! ان القلوب القوزاقية اذا تلاقى تفتتت من الصدور أو
كادت ليرحب كل منها بالآخر ، أي غلامي العزيزين ، أو قد اقتربنا
من الشاطئ ؟ لاهين لكما قبعتين جديدتين ، واححدة لك أنت
ياستيتسكو مصنوعة من المخمل والذهب ، انتزعتها من تترى هي

ورأسه ، وآل الى كل ما كان يتزين به اللهم الا روحه ، فقد تركتها
تذهب في ... مرحى لقد بلغنا البر ! وها نحن اولاء قد وصلنا الى
دارنا يا ايفان ، ولكنك لا تكف عن البكاء ! خذيه يا كاترينا .

ونزلوا جميعا من القارب ، وبدا للأنظار سقف مغطى بالقصب من
وراء التل ، وكان هذا هو بيت دانيلو وبيت أجداده ، وقام من ورائه
تل آخر ثم السهل المنبسط ، وما كنت لتجد هناك قوزاقيا واحدا وان
سرت مرتحلا مائة ميل .

- ٣ -

كان بيت دانيلو بين تلين في واد ضيق ينحدر حتى يبلغ نهر
الدينير ، وكان هذا البيت قليل الارتفاع مثل الاكواخ القوزاقية
المتواضعة ، ليس فيه الا غرفة واحدة ، ولكنه كان يسعه ويسع
زوجته وخادمتها العجوز واثني عشر غلاما من الغلمان المختارين
وكانت تلتف بالجدران من عل رفوف من خشب السنديان ، تكدست
فوقها الطاسات واوانى الطهى ، ومن بينها كؤوس فضية واقداح
شراب رصعت بالذهب ، وهدايا او غنائم من غنائم الحرب ، وعلقت
تحت الرفوف سيوف وبنادق و « قريينات » ورماح نفيسة ، اخذت
طوعا او كرها من التتر والترك والبولنديين ، وحملت كثيرا من آثار
الحرب ، وكان دانيلو ينظر الى هذه النفائس ، فيرى فيها شواهد
تذكره بالمواقع التى خاض غمارها . وامتدت أسفل الجدران اريكتان
من السنديان صقلهما المسحج صقلا ، وقام المهذبجوارهما امام اريكة
الموقد ، وقد علق بحبال تتدلى من حلقة ثبتت في السقف ، ودق
اديم الغرفة دقا جيدا وغطى بطبقة من الطين .

وكان دانيلو وزوجته ينمان على الاريكتين والخادم العجوز على
اريكة الموقد ، ويلعب الطفل وتهدهده امه حتى ينام في مهده ، ويرقد
الاثنا عشر غلاما في صف واحد على الأرض ، على أن اى قوزاقى
لا يرضى بالأرض المنبسطة بديلا ، فهو ينام عليها في الهواء الطلق ،
ولا يحتاج الى فراش من الريش او وسادة ، بل يكوم شيئا من القش
الندى تحت رأسه ويتمدد على العشب كما يحلو له ، وان صدره

ينشرح اذ يستيقظ في بهيم الليل ويتأمل السماء العالية المرصعة بالنجوم وتأخذه من برد الليل رعدة تمنعش عظامه القوزاقية ، ثم يشعل غليونه ، وهو يمتطى ويدمدم في نعاسه ، ويحكم حوله غطاءه المصنوع من جلد الماعز .

ولم يستيقظ بورولباش ميكرا بعد ما اصاب من مرج في امسه ، فلما استيقظ جلس في ركن من الأريكة ، واخذ يشحد سيفا تركيا جديدا ، كان قد قايض به لتوه ، وشرعت كاترينا تعمل في تطريز منشفة من الحرير بخيوط من ذهب .

وهبط عليها ابو كاترينا فجأة ، غاضبا مقطب الجبين ، وقد وضع بين أسنانه غليونا اجنبيا ويمم شطر ابنته ، واخذ يسألها في صرامة عن السبب في عودتهما متأخرة كل التأخر في الليلة الماضية .

وقال دانيلو وهو ماض في عمله :

« اى حماى ، ان الذى يسأل في ذلك هو انا لا هي ! اجل ، ان الزوج هو المسئول لا الزوجة ، واسمح لى ان اقول : ان هذه هي السنة التى جرينا عليها هنا ، ولست ادري ، لعل السنة في بلاد الكفار تجرى على غير هذا ! » .

وتورد وجه حميه وتألقت عيناه ببريق وحشى .

وغمغم مخاطبا نفسه : « من اولى بالسهر على البنت من ايها ؟ وليكن ما تريد ، ولاوجهن السؤال اليك : اين كنت تهيم حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

« آه ، هكذا يكون الخطاب يا حماى العزيز ! وهانذا اجيبك باننى شببت عن الطوق منسذ وقت طويل ! وانى لقادر على ان اسوس الجواد ، كما احسن استعمال السيف المرهف ، فضلا عن امور اخرى استطيعها ، وانى لقادر على ان ارفض تقديم حساب لاحد عما افعل » .

« انى لاعلم انك تلتمس العراك يا دانيلو ! فان الرجل اذا ابى ان يفصح كان صدره منظويا على الشر » .

فقال دانيلو : « فلنفكر كما تشاء ولافكر انا كما اشاء ، وانى لاحمد الله على اننى لم اشترك بعد في اى عمل مشين . لقد وقفت دائما انا فح عن مذهبي الارثوذكسى وبلادى ، ولم أنهج نهج بعض المشردين الذين يضربون في الارض ، فلا يعلم مستقرهم الا الله ، ويتركون المسيحيين

الصالحين يهلكون حتى الموت ، ثم يعودون ليجنوا ثمرة ما لم يزرعوه ،
انهم لاسوا من الاوثان ، فهم لا ياتمون أبدا بكنيسة الله ، واولئك
هم الذين يجب ان يحاسبوا الحساب العسير على ضلالهم وما كانوا
فيه يهيمنون » .

« ايه ايها القوزاقي ! هل علمت اني لا اجيد الرماية ، وانما
تخترق رصاصتى القلب على مسيرة سبعمائة قدم ! وليس لى ان
افخر ببراعتي فى السيف ، فانى لاترك غريمى قطعا ادق من الحب
الذى يصنع منه الثريد » .

فقال دانيلو : « مرحبا بك » ، وراح فى خفة يرسم بالسيف اشارة
الصليب فى الهواء كأنما كان يعلم السبب الذى حمله على شحذه .

وصاحت كاترينا صيحة عالية ، وقد أمسكت بذراعه وتعلقت به :
« دانيلو ! تدبر ما انت فاعل ايها المجنون ، وانظر فى وجه من ترفع
يدك ! ابتاه ، لقد ابيض شعرك ، فقسدا ناصعا كالثليج ، ولسكنك
استسلمت للغضب كالفتى الطائش ! » .

فقال دانيلو مهددا زوجته : « ايتها الزوجة ! انك لتعلمين اننى
لا ارضى عما تفعلين ، فانصرفى الى ما تنصرف اليه النساء ! » .

وصلصل السيغان صلصلة مخيفة ، وتقارعت النصال وانار
القوزاقيان الشرر كأنه الغبار ، وانطلقت كاترينا الى غرفة مستقلة
تبكى ، والقت بنفسها على الفراش ، وسلت اذنيها كى لا تسمع صليل
السيجين . على ان القوزاقيين لم يكونا يتقاتلان قتال الجبناء الرعايد
حتى تستطيع ان تخدم صوت ضرباتهما ، واوشك قلبها ان ينفطر ،
وخيل اليها ان صوت قعقة السيجين ينساب فى جسمها كله : « كلا ،
كلا ، ان هذا فوق ما احتمال ، اجل فوق ما احتمال ، ومن يدري ؟
لعل الدم القانى يسيل الآن من الجسد الأبيض ، ولعل زوجى العزيز
الآن عاجزا لا حول له ولا قوة ، وأنا ارقد هنا ! » ، وعادت ادراجها
ممتعة الوجه لا تكاد تقوى على التنفس .

وكان القتل بين الرجل رهيبا تماثلت فيه الكفتان، ولم يتحقق لاحد من
القوزاقيين الغلبة على الآخر ، فقد كان ابو كاترينا يهاجم حينما ، فيبدو
ان دانيلو على وشك الاستسلام ، ويهاجم دانيلو حينما آخر ، فيلوح
على الوجه الغضوب انه قد أشرف على الاذعان ، ثم يعود القتال بينهما

فيدور سجالا . وكان الرجلان يتميزان غيظا ، ويلوحان بسيفهما ، ويصلصل السيوفان ، ويتطاير النصلان مقعقعين من مقبضيهما . وهتفت كاترينا : « حمدا لله ! » ، ولكنها عادت فصرحت عندما ابصرت القوزاقيين ، وقد تناولا بندقيتهما ، ووضعوا فيهما حجر الصوان ، ثم رفعوا الزناد .

واطلق دانيلو النار فأخطأ ، وصوب ابوها بندقيته ، وكان رجلا عالي السن لا يبلغ في حدة بصره مبلغ غريمه الفتى ، الا ان يده لم ترتجف ، ودوت طلقة فترنج دانيلو وخضب الدم القسائي الردن الايسر من سترته القوزاقية .

وصاح دانيلو : « كلا ! لن استسلم بهذه السهولة ، فان اليد النيمنى هي التى تتخضب بالدم ، ولدى غدارة تركية معلقة على الجدار لم تخنى قط ، فاهبطى الى ايتها الزميلة القديمة ! وقدمى يدا لصديقك ، ومد دانيلو يده .

فصاحت كاترينا فى يأس وهى تمسك بيده ، وتجتو عند قدميه : « دانيلو ! اتوسل اليك لرحمة بى ، فانى لا اعرف لى الا نهاية واحدة ، ولبستت الزوجة تبقى بعد ان يقضى زوجها ، وليكون نهر الدنيبر قبرى ، وفى مياهه الباردة مثواى ولكن انظر الى ابنك يا دانيلو ، انظر اليه ! من ذا الذى يدل هذا الطفل المسكين ؟ ومن الذى يشمله برحمته ؟ ومن يعلمه الرقص على صهوة الجواد الاسود الاصيل ، والقتال فى سبيل الدين والحرية ، والشرب والمرح كما يفعل القوزاق اجمعون ؟ لتهلكن يا بنى ، لتهلكن ! فان اباك لا يريد ان يفكر فيك ! انظر كيف يدبر راسه ، آه ، لقد عرفتك الآن ! انك لوحش ضار وليست انسانا ! ان قلبك قلب ذئب وعقلك عقل ثعبان داهية لقد كنت احسب ان قلبك فيه ذرة من رحمة وان صدرك الحجري ينطوى على شىء من المشاعر الانسانية ، ولكن واخية املى فيك ! تالله لينشرح صدرك وترقص عظامك فى القبر فرحا حين تسمع الوحوش البولنديين الانجاس يلقون بابنك فى اللهب ، وحين تسمع صرخات ولدك تملوه المسكين او يغمره الماء الحار ! آه ، انى اعرفك ! واعرف انك تسر اذ تقوم من قبرك وتزكى النار من تحته بقبعتك ! » .

« كفى يا كاترينا ! تعال يا حبة قلبى ايفان ، ودعنى اقبلك . كلا

يا بنى ، لن يلمس أحد شعرة من رأسك ، ولسوف تنمو وبشدة عودك وتكون فخرا لبلادك ، ولسوف تطير كالعاصفة ومن ورائك القوزاق وعلى رأسك قبعة من المخمل وفي يدك سيف مرهف ، ثم مضى دانيلو يقول لأبى كاترينا الذى كان يقف بلا حراك ولا تظهر على وجهه سيماء الغضب أو امارات المسألة : « اعطنى يدك يا أبت ! ولننس ما دار بيننا ! واسمح لى ان أسألك الصفح عما بدر منى فى حقك . ما بالك لا تمد لى يدك ؟ » .

وصاحت كاترينا ، وهى تطوق أباهما بذرعايها وتقبله : « ابتسأه ! لا تكن غليظ القلب ، وأصفح عن دانيلو ، ولن يعود أبدا الى الإساءة اليك ! » .

فأجاب أبوها وهو يقبلها وفى عينيه بريق غريب : « انما أصفح عنه اكراما لك وحدك يا ابنتى ! » .

وسرت رعدة خفيفة فى جسم كاترينا، فقد بدا لها فى قلبته وما شاب عينيه من بريق نذير خطر ، واستندت بهرفقيها على المنضدة التى كان دانيلو يضمده فوقها ذراعه الجريح ، وراح زوجها يتمتم بأنه أساء التصرف ، ولم يفعل ما يفعله القوزاقى الحر ، اذ طلب الصفح ولما يقترف ذنبا أو يأت نكرا .

- ٤ -

وطلع الصبح ، ولكن الشمس لم تشرق ، وتلبدت السماء بالغيوم، وأخذ الرذاذ يتساقط على السهول والغابة ونهر الدنيبر الفسيح ، واستيقظت كاترينا وقلباها مثقل بالهموم وقد خضبت الدموع عينيهما، وتملكها القلق والضجر .

« اى زوجى العزيز ، يا زوجى الغالى ! لقد رأيت رؤيا غريبة ! » .
« اى رؤيا ، يا حبيبتي كاترينا ؟ » .

« رأيت رؤيا غريبة ، تجلت لى كأنها الحقيقة الواقعة ، فقد تمثل لى أن أبى هو ذلك الوحش الذى شاهدناه نفسه فى منزل الصاغ ، ولكنى أتوسل اليك ألا تؤمن بهذا الحلم ، فان الانسان يرى فى أحلامه أوهاما وحماسات على اختلاف الألوان والأشكال ، أجل ، رأيت فى

المنام اننى اقف امامه مرتجفة الاوصال مأخوذة اللب ، تئن عروقتى لكل كلمة تخرج من فيه ، آه لو سمعت ما قال ! » .

« وماذا قال يا حبة قلبى كاترينا ؟ » .

قال : « انظرى الي يا كاترينا ، وتأملى مقدار حسنى ووسامتى ! ان الناس ليخطئون بقولهم اننى دميم ، ولشد ما اصلح زوجا لك ! الا ترى ما تجود به عيناي من نظرات ، ثم صوب الى عينين تتقدان نارا ، فصرخت واستيقظت » .

« اجل ، فما اكثر ماتصدق الاحلام ، ولكن اتعلمين ان الهدوء ليس مستتباً فيما وراء التلال ؟ وانى لأحسب ان البولنديين بدءوا يظهرين مرة أخرى ، وقد بعث الى جورويبتس برسالة يوصينى فيها بالتزام اليقظة والحذر ، ولا عليه فانى لست نائما ، وقد اقام رجالى اثني عشر متراسا من الشجر الذى اجثوه بليل ، ولتتحفن الجنود من العامة ببرقوق من الرصاص ، اما الخاصة فسوف نحملهم على الرقص بانسياط » .

« او يعلم ابنى بهذا ؟ » .

« ان اباك ليثقل على ، وانا لا استطيع ان اخرجه من صمته ولا بد انه اقترف آثاما كثيرة فى البلاد الاجنبية ، ترى ، ائمة سبب آخر يدعوه الى هذا الموقف ؟ لقد اقام بيننا هنا اكثر من شهر لا يمرح قط كما يمرح القوزاقى الحق ، ويأبى ان يحتسى شراب العسل الاسود ، الذى انتزعته من اليهود فى بريست » ، ثم صاح دانيلو : « ايه يا غلام ، اذهب الى الكيلار يا غلام وعجل ، وائتنى بشراب اليهود ! انه يأبى ان يشرب حتى الفودكا ! فما قولك فى هذا ؟ انى لا اعتقد اعتقادا جازما يا سيدتى كاترينا انه لا يؤمن بالمسيح ، فما رايك انت ؟ » .

« لا يعلم الا الله حقيقة ما تزعم اى زوجى دانيلو ! » .

ومضى دانيلو يقول وهو يتناول الكوز الفخار من القوزاقى : « ما اعجب الامر يا زوجتى ، فان الكاثوليك الاقدار انفسهم يضعفون امام الفودكا ، ولا يمتنع عن الشراب الا الترك دون سواهم . ايه يا ستيتسكو ، او اصبحت جرعة طيبة من شراب العسل فى الكيلار ؟ » .

« انما ذقته يا سيدى » .

« انك تكذب يا بن الكلب ! انظر كيف حط الذباب على شاربك !

وانى لارى فى عينيك انك اتيت على نصف سطل منه ، ايه يا لكم من فتية ابها القوزاق ! وما اعظم تهوركم ! وجود الواحد منكم لصاحبه بكل ما يملك الا الخمر يحتفظ بها لنفسه . لقد اتقضى على آخر سكرة لى وقت طويل ، اى زوجتى كاترينا ، اليس كذلك ؟ » .

« وقت طويل حقا ! وى ، لقد » .

« لا داعى ، لا تراعى ، فلن اشرب الا كوزا واحدا » ، ثم غمغم وقد ابصر حماه ينحنى ليدخل الغرفة : « ها هو ذا شيخ الدراويش التركى قد الم بالباب ! » .

وقال الاب وهو يخلع قبعته ويسوى حزامه الذى كان يتدلى منه سيف مرصع بالأحجار الكريمة : « ما هذا يا ابنتى ؟ لقد اغتلت الشمس كبد السماء ولم يعد الغذاء بعد ! » .

« ان الغذاء جاهز يا سيدى وسنقدمه فى الحال » ، ثم مضت ربة البيت الشابة تقول للخادم العجوز التى كانت تمسح الطاسات الخشبية : « الى بقدر من لقيمات القاضى ! صبرا ، ولاتين بها بنفسى ، واذهبى انت لتنادى الفلمان » .

واستوا جميعا على الأرض فى حلقة ، فجلس الاب تجاه الايقونات وعن يساره دانيلو وعن يمينه كاترينا وعشرة من الفتيان الاخيار يرتدون سترات زرقا وصفرا .

وقال الاب ملقيا ملعقته بعد ان اصاب من الطعام قليلا : « لا احب لقيمات القاضى ، فليس فيها نكهة ولا طعم » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « انى لاعلم انك تؤثر عليها حساء اليهود » ، ثم مضى يقول فى صوت مرتفع : « ما لك تقول : ان لقيمات القاضى قد خلت من الطعم يا حماى ؟ اترها سيئة الصنع ام ماذا ؟ ان زوجتى كاترينا تصنع من لقيمات القاضى ما لم يدق مثله شيخ القرية نفسه الا قليلا ، وما من داع يقتضيك الزراية بهذه اللقيمات ، فانها طعام مسيحي ، يصيب منه القوم الصالحون والتديسون الابرار جميعا » .

ولم ينبس الاب بينت شفة ، وأمسك دانيلو فلم يزد حرفا .

وقدم لحم الخنزير المشوى بالكرنب والبرقوق .

وقال أبو كاترينا وهو يتناول ملء ملعقة من الكرنب : « لا احب لحم الخنزير ! » .

فقال دانيلو : « لم لا تحب الخنزير ، انما الترك واليهود هم الذين لا يأكلون لحم الخنزير » .

وقطب الاب حاجبيه وزاد غضبا على غضب .

ولم يصب من الطعام الا قليلا من ثريد الحنطة السوداء المزوج بالبنين ، واستعاض عن الفودكا بسائل أسود في زجاجة أخرجها من صدره .

ونام دانيلو بعد الغذاء نوما عميقا ولم يستيقظ الا قرب المساء ، وجلس يكتب الى معسكر القوزاق ، وأستوت زوجته الشابة على أريكة الموقد تهز المهد بقدمها . أجل جلس دانيلو في مكانه وعينه اليسرى على ما يكتب ، وعينه اليمنى تطل من النافذة ، وقد أبصر من خلال النافذة على مسافة بعيدة ، التلال المتلألأة ونهر الدنيبر ، تمتد خلفه الغابة الزرقاء الداكنة . وكانت السماء في تلك الليلة الصافية الأديم تتالق فوقه ، ولكن دانيلو لم يكن يحدق النظر في السماء البعيدة او في الغابة الزرقاء ، بل كان يرقب لسان الأرض الذي يقوم عليه الحصن القديم ، فخيّل اليه ان ضوءا يتلألا في نافذة صغيرة ضيقة من نوافذ الحصن ، على أن السكون كان شاملا فلا جرم اذن أن يكون ما تراءى له وهما من الأوهام ، ذلك انه لم يسمع الا همهمة نهر الدنيبر العميقة تنساب مياهه من تحته وصوت تكسر الأمواج يتجاوب في الفضاء وبعضها يلاحق بعضا ، ولم يكن النهر يفعل ذلك عن اضطراب ، بل يفمغم ويدمدم كالرجل العجوز ، لا يجد شيئا يروق له ، فقد تغير كل شيء من حوله ، واشتبك في عراك دائم والتلال والغابات والمروج التي تحف بضفتيه ، وحمل شكاته منها الى البحر الأسود .

ورأى دانيلو على صفحة الدنيبر المريضة قاربا بدا كالنقطة السوداء ، ثم عاد الضوء بتلألا في الحصن ، وأطلق دانيلو صفيرا خافتا فهرع اليه الخادم المخلص .

« أسرع باستيتسكو واثت بسيف مرهف وبندقية واتبعني ! » .

وسألته كاترينا : « او عزمت على الخروج ؟ » .

« اجل يا زوجتى ، فان الواجب يقتضىنى ان القى نظرة على كل ناحية واستوثق من ان كل شىء يسير على ما يرام » .

« ولكننى اخشى البقاء هنا وحدى ، وقد اثقل النوم جفنى وماذا يكون من امرى اذا رايت الرؤيا نفسها مرة اخرى ؟ ثم اننى لا اومن أبدا بأنها رؤيا ، فقد بدت لى حقيقة واقعة » .

« لتبقين معك المرأة المجوز ، وهناك ينام القوزاقى فى الغرفة الخارجية وفى الفناء » .

« لقد استفرقت المرأة المجوز فى النوم فعلا ، وانا لا اثق فى القوزاق لامر ما ، افلا تستمع لى يا زوجى دانيلو ، وتغلق باب الغرفة من دونى وتأخذ المفتاح معك فلا يستبد بى الخوف وتدع القوزاق يرفدون امام الباب ؟ » .

وقال دانيلو وهو ينفض التراب عن بندقيته ويحشوها بالبارود :
« ليكن ماثسائين ! » .

وكان ستيتسكو الامين قد وقف مجهزا بكل ما يتزود به الرجل القوزاقى من عتاد ، ووضع دانيلو قبعتَه المصنوعة من فراء استراخان على راسه ، واوصد النافذة، ثم اغلق الباب بالزلاج واقفله، ومضى فى رفق يلتمس طريقه بين اتباعه القوزاق المستفرقين فى النوم ، واجتاز الفناء ميمما شطر التلال .

وكانت السماء قد صفا اديمها او كاد . وهب من نهر الدنيبير نسيم عليل ، وخيم السكون فلا تسمع نامة ولا صوتا الا نواح نورس يتردد فى الفضاء البعيد ، ثم انبعث فى الجو فجأة حفيف خافت ، فاخبتاً بورولباش وخادمه الامين وراء الحسك الذى كان يخفى متراسا من الاشجار المجتثة ، ذلك ان شخصا كان يهبط سفح التل مرتديا سترة حمراء وقد حمل غدارتين وتدلى على جانبه سيف .

وقال دانيلو وقد شخص ببصره فيه من خلف الشجيرات : « انه حماى ! ترى اين يذهب هذه الساعة وماذا يدبر ؟ ايه يا ستيتسكو ، لا تدعه يغيب عن بصرك ، وانظر اى طريق يسلك » .

وهبط الرجل ذو السترة الحمراء ضفة النهر ، ثم انعطف متجها الى لسان الأرض .

فقال دانيلو : « آه ، اذن فهذا هو مقصده ! وى ياستيتسكو !
لقد مضى الى وكر الساحر ! » .

« تالله انه لا يقصد سواه يا مولاي دانيلو ! والا راينا على الجانب
الآخر ، ولكنه اختفى قرب القصر » .

« لنبرزن من مخبئنا ونقتف أثره ، فان وراء الائمة ما وراءها ،
وى يا كاترينا ، ألم أقل لك : ان أبك رجل شرير لا يسلك فى شىء
مسلك المسيحي الصالح ؟ » .

ومرق دانيلو وخادمه الأمين مجتازين لسان الأرض ، وسرعان
ما غابا عن الأنظار فى طوايا الغابة السكثيفة التى تكتنف الحصن .
وتألق ضوء فى النافذة العليا ، ووقف القوزاقيان تحتها يلتمسان
سيلا الى تسلقها ، ذلك أنهما لم يريا بوابة أو بابا ، وما من ريب فى
أنه كان فى الفناء باب ، ولكنهما حارا كيف يتسلقان السور اليه ؟
لقد كان يبلغ آذانهما على البعد صليل السلاسل وتفزز الكلاب .

وقال دانيلو وقد رأى شجرة سنديان كبيرة تقوم تجاه النافذة :
« ما بالى اضيع الوقت ؟ ابق هنا يا غلام ! لاتسلقن شجرة السنديان ،
حتى أستطيع أن ارى مباشرة ما بداخل الغرفة » .

وخلع حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل ، ثم أمسك
بالغصون ورفع نفسه ، وكان الضوء لا يزال يتألق ثم أستوى على غصن
قريب من النافذة ، وأمسك بالشجرة ، ونظر فى الغرفة ، فوجد فيها
ضوءا وان خلت من الشموع وكان على الجدران رموز خفية وأسلحة
معلقة ، ولكنها كانت جميعا عجيبية تخالف ما يحمله الترك أو أهل
القريم أو البولنديون أو المسيحيون أو السويديون النبلاء . وكانت
الخفافيش تمرق تحت السقف روحة وجيئة ، فتنعكس ظلها على
الأرض والأبواب والجدران مقبلة مدبرة كلمح البصر ، ثم انفتح الباب
فى سكون ، ودخل رجل يرتدى سترة حمراء ، ويمم شطر المائدة
مباشرة ، وكانت مغطاة بمفرش ابيض : « انه هو ! انه حماى ! » ،
وانزلق هابطا قليلا ، وازداد بالشجرة التصاقا .

ولكن حماه لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى : هل كان أحد
يختلس النظر اليه من خلال النافذة ؟ فقد أقبل على الغرفة مكتئبا
كأسف البال ، ونزع المفرش عن المائدة ، فامتلات الغرفة فى الحال

بضوء أزرق شفاف ، ولكن أمواج الضوء الذهبى الشاحب التى غمرت
الغرفة كانت تطفى ، ثم تنحسر كمياء البحر الأزرق ، فلا تمتزج
به ، بل تتخلله سباحة فى خطوط كالعروق تجرى فى صميم المرمر ،
ثم وضع الرجل قدرا على المائدة ، وراح يلقي ببعض الاعشاب فيها .

وانعم دانيلو النظر ، فوجده قد نضا عنه السترة الحمراء ، وارتدى
سروالا فضفاضا كالذى يرتديه الترك ، وحمل غدارتين ، ووضع على
رأسه قبة غريبة طرزت جميعا بحروف لا هى بالروسية ولا بالبولندية،
وتطلع دانيلو الى وجهه ، فوجده قد بدأ يتغير ، واستطال أنفه وتدلّى
على شفثيه ، ولم يلبث فمه أن بلغ أذنيه ، وبرزت سن ملتوية من
بين شفثيه ، وتمثل أمامه الساحر الذى ظهر فى حفلة زفاف ابن
الصاغ ، وراح بورولباش يحدث نفسه قائلا : « لقد صدقت رؤياك
يا كاترينا ! » .

وشرع الساحر يدور حول المائدة ، وأخذت الرموز التى على
الجدران تمضى فى التغير ، وازدادت سرعة الخفافيش فى مروقها
محلقة هابطة ورائحة غادية ، وبدأ الضوء الأزرق يخفت ثم يخفت حتى
بدا للأنظار انه قد تلاشى أو كاد ، ثم انبعث فى الغرفة ضوء وردى
جميل ، وتراءى للعين ان هذا الضوء العجيب راح يغمر كل ركن من
أركان الغرفة فى صوت يتجاوب رنينه خافتا رقيقا . ثم غاب الضوء،
وساد الغرفة ظلام دامس ، وخيم السكون الا من همهمة كصوت
الريح تنطلق فى هدأة الليل مرفرفة فوق صفحة الماء الساجى ، فتعمل
شجرة الصفصاف الفضى حتى تدفع به الى احضان الماء . وخيل
الى دانيلو ان القمر يتألق فى الغرفة والنجوم تسبح خلالها ، وتطوف
بها لمحات خفية من زرقة السماء الداكنة ، بل هو قد احس بلفحة من
برد الليل تهب عليه منها ، ومر بخياله طائف جملة يشد شاربته
ليستوثق من انه ليس فى منام ، فقد تراءى له ان السماء التى كان
يراها من خلال النافذة وقد ولت وحل محلها بيته هو ، وقد تدلت
على جدرانه سيوفه التترية والتركية ، والتفت بالجدران رفوف جوت
قدور الطهى وأوانيه ، وعلا المائدة خبز وملح ، وتدلّى المهد من السقف،
ولكن وجوها مخيفة كانت تطل بدلا من الأيقونات ، ورقد على أريكة
الموقد ثم هبط ضباب كثيف فحجب هذا كله ، وعاد الظلام فأسدل

ستاره ، وانبعث الضوء الوردى فى صوت عجيب فغمر الغرفة من جديد ، ثم تجلى الساحر مرة أخرى ، ووقف بلا حراك مرتديا عمامته الغريبة ، وزادت الأصوات ارتفاعا وعمقا ، وتآلق الضوء الوردى الرقيق وتآلق . ورفرف فى وسط الغرفة شئ ابيض كالمسلة ، وخيل الى دانيلو ان العمامة لم تكن غمامة ، وانما هى امرأة قد تمثلت للعين هناك ، ولكن مم صنعت ؟ أمن الهواء حقا ؟ وما بالها وقفت دون ان تمس الأرض أو تستند على شئ ؟ ولم شفت حتى بدا من خلالها الضوء الوردى والرموز السحرية التى على الجدار ؟ وها هى ذى تحرك الآن رأسها الشفاف ، ويتآلق فى عينيها الزرقاوين الباهتتين ضوء رقيق ، وقد تجعد شعرها ثم استرسل على كتفها كأنه ضباب رمادى شاحب ، واصطبغت شفاتها بحمرة خفيفة كشقشقة الفجر يخاليل الأنظار بنوره القرمزى يومض من خلال السماء الصافية بصبح ، وكان حاجباها الأسودان لا يظهران الا لماما ، آه ! لقد كانت هى كاترينا ! وأحس دانيلو بأطرافه تتجمد حتى غدت كالحجر ، وحاول أن يتكلم ، ولكن شفثيه تحركتا فى صمت ولم ينطلق منهما أى صوت .

ووقف الساحر ساكنا لا يريم .

ثملقى عليها بالسؤال وقد وقف طيفها امامه يرتعد: «أين كنت؟» .
فأنت فى صوت رقيق : « واهالى ! لماذا دعوتنى ؟ لقد كنت فى غاية السعادة ، أجل كنت فى المكان الذى ولدت فيه وأقمت بين ربوعه خمسة عشر عاما ، آه ، الا ما أطيبه من مكان ! ويا للمرج الأخضر الفياح الذى الفت ان المب فيه ابان طفولتى ! لقد وجدت الأزهار البرية الحبيبة كههدى بها دائما . ولا تغفل عن كوخنا وحديقتنا ! وآه من الحنان الذى غمرتني به أمى وهى تطوقنى بذراعيها ! ويا للعجب الذى تجلى فى عينيها ! لقد دلتنى وطبعت قبلة على شفثى وعلى وجنتى ، ومشطت شعري الأشقر بمشط جميل ! » ، ثم حدجت الساحر بعينيها الباهتتين وقالت : « لم ذبحت أمى ؟ » .

وهز الساحر اصبعه فى وجهها مهددا ، وقال : « أو قد سألتك ان تتحدثنى فى هذا الامر ؟ » ، وارتعدت الروح الجميلة الشفافة : « أين سيدتك الآن ؟ » .

« لقد استسلمت سيدتى كاترينا للنماس ، فسرت لذلك ووليت

هاربة ، ذلك اننى كنت مشوقة منذ سنوات طويلة الى رؤية امى ،
وقد عدت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرى ، وهاندى احس باننى
اصبحت فى خفة العصفور ، لم ارسلت فى طلبى ؟ » .

وقال الساحر فى صوت رقيق هامس يصعب على الاذن ان تبتين
كلماته : « اذكرين كل ما قلته لك بالامس ؟ » .

« اذكره ! اذكره ! ولكننى لا ابخل بشيء فى سبيل نسيانه ،
مسكينة كاترينا ! انها لا تعلم كثيرا مما تعلمه روحها ؟ » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « اذن فهذه روح كاترينا ! » ولكنه
لم يانس فى نفسه الجراة على الايمان بأية حركة .

« تب يا ابت واستغفر ! اليس من المفزع ان يقوم الموتى من قبورهم
بعد كل جريمة قتل تقترفها ؟ » .

فقال الساحر مهددا : « لقد عدت الى سيرتك الاولى ! لاسلكن
السيبل التى اشاء ، ولاحملنك على فعل ما اريد ، ولسوف تحبنى
كاترينا ! » .

فتاوهت هاتفة : « تب لك ! انك لوحش ولسنت بأبى ، كلا ! لن يكون
لك ما تريد ! صحيح ان سحرك الدنس يهب لك من القوة ما تستطيع
به ان تستحضر روحها وتعذبها ، ولكن الله وحده هو الذى يستطيع
ان يسيرها كما يشاء ، حاشى ! كاترينا لن تنزل الى اقتراف هذا
الانم ما دمت احل فى جسدها . ابتاه ! لقد دنت ساعة القصاص
الرهيب ! وهيهات ان تحملنى على خيانة زوجى المخلص المحبوب ،
وان كنت شخصا آخر غير أبى . ولو قد عفى زوجى ، وتنكر لعهدى
ما خنته ، فان الله لا يحب من يخلف وعده وينكر العهود والمواثيق » ،
ثم تعلقت عينها الشاحبتان بالنافذة التى ربض دانيلو من تحتها ،
ووقفت ساكنة لا حراك بها .

وصاح الساحر : « فيم تحديقن النظر ؟ ومن ذا الذى تربنه هناك ؟ »

واضطرب طيف كاترينا ، الا ان دانيلو كان قد هبط الى الأرض ،
وانطلق هو وخادمه الأمين ستيتسكو . يشق الطريق الى داره فى
الوادي ، وغمغم يقول بينه وبين نفسه وقد احس برعدة تسرى فى
قلبه القوزاقى : « يا للفضاعة ! يا للفضاعة ! » ، واجتاز فى عجلة فناء

داره فوجد القوزاق قد استسلموا للنوم فيه كشأنهم ، الا واحدا
جلس يسهر عليهم وهو يدخن غليونه .
وكانت السماء مرصعة بالنجوم .

- ٥ -

وهتفت كاترينا وراحت تمسح عينيها بردد قميصها المطرز ،
وتحدق في زوجها بنظراتها وهو واقف قبالتها : « لشد ما ابهج قلبي
انك ابقظتنى ! الا ما ابشع الحلم الذي رايت ! لقد أوشك ان يزهب
منى الأنفاس ! اواه ! لقد ظننت انى احتضر » .

« وكيف كان حلمك ؟ كان هكذا ؟ » ، وراح بورولباش يحدث
زوجته بكل ما رأى .

وسألته كاترينا في دهشة : « ايه يا زوجي ، كيف عرفت حلمي ؟
ولكن كلا ، فاني لا اعرف الكثير مما حدثتني به ، اجل ، لم ار فى
حلمى ان ابى قتل امى ، ولم اشهد الموتى فى رؤياى ، كلا يا دانيلو ،
انك لم تسرد الحلم على حقيقته ، اواه ! ويا لآبى من رجل مخيف ! » .

« ما من عجب انك لم تحلمى بما رايت ، وان ما تعرفينه لا يبلغ
عشر معشار ما تعرفه روحك ، اتعرفين ان اباك عدو المسيح ، فقد
حدث فى العام الماضى وانا اتاهب للانضمام الى صفوف البولنديين فى
الحرب التى شنوها على اهل القريم وكنت آنئذ لا زال حليفا لاولئك
القوم الكافرين - ان علمت من رئيس رباط الأخوة (وهو يازوجتى
رجل تقى ورع) ان عدو المسيح له سلطان على الأرواح ، فهو قادر
على استحضار ارواح الناس جميعا ، ذلك ان الروح تهيم كما تشاء
حين يخلد الجسم الى النوم ، وتطوف مع رؤساء الملائكة حول عرش
الله ، وقد كرهت وجه ابيك مذ وقع عليه بصرى لأول وهلة ، وما كنت
لاتزوجك لو عرفت ان لك ابا على هذه الشاكلة ، فقد كان اولى بى ان
اهجرك ، ولا احمل ضميرى وزر الاقتران بريبة عدو للمسيح » .

فصاحت كاترينا وقد اخفت وجهها بيديها وانفجرت باكية : « اى
دانيلو ! ما الذى تأخذه على ؟ او قد خنت عهدك يا زوجي المحبوب ؟
واى ضر ارتكبت حتى أثرت غضبك ؟ ألم اصدق فى خدمتك ؟ وهل

كانت تبدر منى كلمة واحدة حين تعود مرحا من سكرة ؟ ألم ذلك
ابنا مشرق الوجه ضاحك الجبين ؟ » .

« لا تبكى يا كاترينا ، لقد عرفتك الآن ، وما من شيء يحملنى على
هجرانك ، وانما الوزر وزر ابيك وحده » .

« لا تقل انه ابنى ! فما هو أبى ! والله على ما اقول شهيد ، انى
انكره ! اجل انكر ابنى ! فهو عدو للمسيح ، وقد عصى الله ! ولو
قد رأيتَه يهلك أو يفرق ما مدت يدا لانقاذه ، ولئن ألهب عشب
سحرى حلقه ما ناولته قطر من ماء ، وليس لى من أب سواك ! » .

- ٦ -

وكان الساحر مقيدا بالسلاسل الحديدية يرقد فى جب عميق
تحت الأرض بدار دانيلو وقد اوصد من دونه باب احكم اغلاقه بثلاثة
اقفال ، واخذت النار تشتعل فى قصره الجهنمى الذى يعلو نهر
الدينير ، وراحت امواج النهر تصطبخ وتغور حول الجدران متوهجة
كالدّم القانى ، ولم يكن ما نزل بالساحر من حبس فى هذا الجب القائم
تحت الأرض جزاء له على السحر الذى يمارسه او الاعمال الشريرة
التي يقترفها ، فان الله وحده هو مجازيه على هذه الافعال ، وانما كان
السبب فى حبسه هو خيانتَه للعهد سرا ، ذلك انه كان قد تأمر هو
وأعداء روسيا الارثوذكسية على بيع الشعب الاوكرانى الى الكاثوليك
واحراق الكنائس المسيحية . لقد كان الساحر مكتئبا كاسف البال
تطوف بذهنه افكار سود كالليل البهيم ، ولم يبق له فى هذه الدنيا
الا يوم واحد ، فقد كان ينتظر مصيره غدا ، ويا له من مصير رهيب
أرحم ما فيه أن يلقى به حيا فى مرجل يلقى حتى يموت أو يسلم
عنه جلده الاثم ! لقد كان الساحر مفتما مهموما منكس الرأس ، ولعله
كان يتوب ويستغفر وقد اصبح على حافة القبر ، ولكن ذنوبه لم تكن
بالذنوب التي يغفرها الله . وكانت من فوقه نافذة صغيرة بغشاها
شباك من حديد ، وتطلع الساحر من النافذة راسفا فى اغلاله المصلصلة
أملا أن تكون ابنته ، تلك الحمامة الوديمة البريئة ، مارة بمحبسه ،
فتدركها الرحمة بأبيها ، ولكنه لم يجد احدا . وكان الطريق يمر

تحت النافذة مقفرا لا يجتازه مخلوق ، وانما يجرى من تحته نهر
الدينير يضطرب غير حائل بأحد ، وبهمهم ويهدر ويبلغ صوت
رشاشه الرتيب مسامع السجين كئيبا موحشا .

ثم ظهر شخص يسير في الطريق ، وكان هذا الشخص رجلا من
القوزاق ، وتهد السجين من أعماق قلبه ، وعاد الطريق فخلا من
المارة ، ثم بدا شخص يهبط التل ، ورفرف معطف اخضر بفعل الريح ،
وتألق على رأس صاحبه غطاء ذهبي ، لقد كانت هي ! واقترب
المعطف من النافذة شيئا فشيئا ، وتبين انها أخذت تدنو من السجين
الآن .

« اى ابنتى كاترينا ! ارثى لحالى وارحمينى ! » .

ولزمت كاترينا الصمت المطبق ، وأبت ان تنصت ، ولم تلتفت
الى السجين تلقى عليه نظرة ، ثم مرت به واختفت ، وأفقرت فى
عينيه الدنيا بأسرها ، وأخذ نهر الدينير يهدر فى وحشة وكآبة ، ويثقل
القلب بحمل من الحزن والأسى ، ولكن ترى هل كان الساحر يعرف
شيئا من هذا الحزن ؟ .

كان النهار يلفظ انفاسه الأخيرة والشمس تولى ، ولم تلبث ان
اختفت ، وحل المساء ، وأصبح الجو رطيبا منعشا ، وانبعث ثور يخور
فى مكان ما ، وانطلقت أصوات تسبح من بعيد ، ولا شك انها كانت
لقوم يعودون من العمل الى ديارهم وهم يمرحون وتراءى للأنظار
قارب يشق عباب نهر الدينير ، ولم يفكر أحد فى أمر ذلك السجين
المقيد بالأصفاد ، وأخذ هلال فضى يتألق فى السماء ، وأقبل انسان
من الجهة المقابلة يسير فى الطريق ، ويتعذر على العين ان تستبين شكله
فى الظلام ، وكان هذا الانسان هو كاترينا تعود أدراجها .

« اى ابنتى ، هلا تستمعين الى بحق المسيح ! ان صفار الذئاب
المتوحشة نفسها لا تمزق أمها اربا اربا ، اى ابنتى ! هلا تجودين
بنظرة واحدة على ابيك الاثم ! » .

ولكنها لم تحفل به ، ومضت فى طريقها ! .

« اى ابنتى ، انى أستحلفك بأملك الشقية ! » .

فتوقفت .

« ادنى منى واستمعى لكلماتى الأخيرة ! » .

« لماذا تناديني يا عدو الله ؟ لا تقل يا ابنتي ! فليس بيننا قرابة ولا نسب ! ماذا تريد مني حتى تستحلفني بأمي الشقية ؟ » .

« كاترينا ، لقد اقتربت نهايتي ، وانى لأعلم ان زوجك يريد ان يربطني بذيل فرس برية ويطلقها تركض في الخلاء ، ومن يدري ؟ لعله يدبر لى مصيرا أشد هولاً من هذا المصير ! » .

« ولكن افى هذه الدنيا قصاص يجزيك الجزاء العادل على ما ارتكبت من آثام ؟ الا فلتنتظر ما يحل بك من قصاص ، ولن يطلب احد لك الرحمة » .

« كاترينا ، انا لا اخشى القصاص فى هذه الدنيا ، وانما الذى اخشاه هو عذاب الآخرة . كاترينا ، انك لطاهرة نقية ، ولسوف ترفرف روحك حول عرش الله فى الفردوس ، واما روح ابيك الشريرة فسوف تحترق فى نار لا تنطفئ لها جذوة ولا يخمد لها اوار ، بل تزداد ضراماً على ضرام ، فلا تجودها فطرة من ندى ، او تمر بهسا نسمة من ريح ! » .

فقلت كاترينا مشيخة عنه : « لا حيلة لى فى التخفيف من عذابك » .

« كاترينا ! صبرا ، فقد بقيت لى كلمة واحدة ! فى وسلك ان تنقذى روحى ، فانك لا تعرفين بعد مبلغ ما تصل اليه رحمة الله وكرمه ، الم تسمى قصة بولس الرسول ؟ لشد ما لج هذا الرجل فى الاثم ، ولكنه تاب بعد ذلك وانا ، فدخل فى زمرة القديسين الأبرار ! » .

فقلت كاترينا : « وماذا استطيع ان افعل لاقتذ روحك ؟ وكيف يجوز لى انا المرأة الضعيفة ان أفكر فى هذا ؟ » .

« لو استطعت الخروج من سجنى لنبت كل شىء ، وتبت الى الله ، ولدت بكهف واكتفيت بقميص من الشعر القيه على جسدى ، واقمت الصلاة لا انقطع عنها ليلى ولا نهارى . أجل لو حدث هذا لامسكت عن اكل اللحم بل السمك ايضا ! واقتربت الغبراء فى منامى ، ومضيت أصلى وأصلى بلا انقطاع ! ولو اقتضت مشيئة الله الا يغفر برحمته من ذنوبى الا ايسر اليسر لدفتت نفسى فى الأرض حتى عنقى ، او حبستها فى سجن عليه أسوار من الحجارة ، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى ألقى حتفى ، ووهبت للرهبان متاعى جميعاً

لعلهم يرتلون الصلوات على روحى أربعين يوما وأربعين ليلة .
وفكرت كاترينا قليلا ثم قالت : « اذا كنت أستطيع ان اخرجك من
محبسك فكيف أستطيع ان افك قيودك ؟ » .

فقال : « اننى لا اخشى الاغلال ، اتقولين : انهم قيدوا يدي وقدمي ؟
كلا ، فقد القيت على عيونهم غشاوة ولم الق لهم يدي ، وانما مددت
لهم خشبتين جافتين » . ثم مضى يقول وهو يسير الى وسط القبو :
« هاك ، انظري ! فما من قيد يغل الآن يدي او قدمي ! وما كنت
لاخشى هذه الجدران ايضا فانى أستطيع ان انفذ منها ، ولكن زوجك
لا يعرف سر هذه الجدران ، قد بناها ناسك ورع ، وما من قوة من قوى
النشر بقادرة على تخلص منها سجيننا الا اذا توسلت بالمفتاح الذى جرى
الناسك على ان يفلق به هو نفسه صومعته ، تلك الصومعة التى سابني
مثلاها سواء بسواء ، انا الائم الممعن فى الائم ، حين املك حريتي مرة
اخرى » .

فقال كاترينا وهى تقف ساكنة بالباب : « استمع الى ، فانى
مطلقة سراحك ، ولكن ماذا يكون لو خدعتنى ولم تنب وعدت كما كنت
ريبيا للشيطان ؟ » .

« حاشي يا كاترينا ، فلم يبق فى اجلى الا القليل ، لقد دنت نهايتي
وان لم يقتصوا منى بالقتل ، اتصدقين اننى عولت على ان اسلم
القصاص الأبدى نفسى ؟ » .
وصرف المفتاح فى القفل .

وقال الساحر وهو يقبلها : « وداعا ! وليكلاك الله بعنايته ورحمته
يا ابنتى ! » .

وقالت كاترينا : « لا تلمسنى ايها الائم الزنيم ، واذهب وعجل ! » .
وولى الساحر .

وقالت كاترينا تحدث نفسها وقد استبد بها الرعب ، واخذت تنظر
الى الجدران نظرة زائفة : « ماذا دهانى حتى اطلقت سراحه ؟ وماذا
اقول لزوجي الآن ؟ لقد اصيحت من الهالكين ، وام يبق لى الا ان ادفن
نفسى حية ! » وانبعثت تبكي وتنتحب واوشكت ان تسقط على كتلة
الخشب التى كان السجين يجلس عليها ، ثم مضت تقول فى صوت
رقيق : « ولكننى اتقذت روحا ، فاتيبت بذلك عملا صالحا ، الا اننى

خدعت زوجى للمرة الاولى ، اواه ! ما افظع ما اتيت ! وما اشد على
نفسى ان اكذب عليه ! وى ! ان شخصا يقترب ! أنه هو زوجى ! « ،
وصرخت صرخة تفيض بالأس والقنوط ، وسقطت على الارض
فاقدة الوعى .

- ٧ -

وما ان ثابت كاترينا الى رشدها حتى رأت الخادم العجوز وسمعت
صوتا يهتف بها : « اننى انا هى ، يا ابنتى ! اننى انا هى يا حبيبتى! » ،
وانحنت المرأة عليها ، وبدا انها تهمس بشيء فى اذنها ، ومدت يدها
الواهنة الذابلة ونضحتها بالماء .

وقالت كاترينا وهى تجلس ملتفتة حولها : « اين انا ؟ ان نهر الدنيبر
يهدر امامى ، والتلال تقوم من خلفى ، فالى اين اخذتنى ؟ » .

« لقد نقلتك الى خارج البيت ، وحملتك بين ذراعى من القبو
الخائق ، ثم عدت فأغلقت القبور حتى لا يسيء اليك سيدى دانيلو » .

وقالت كاترينا وهى تنظر الى حزامها : « واين المفتاح ، فانى
لا اراه ؟ » .

« لقد اخذه زوجك ليلقى نظرة على الساحر يا ابنتى » .

فصاحت كاترينا تقول : « ليلقى نظرة على الساحر ! اذن فقد
هلكت ! » .

« فلينقذنا الله برحمته من هذا البلاء يا ابنتى ! وحسبك ان تتذرعى
بالصمت يا سيدتى الصغيرة ، فلا يعرف احد من هذا الأمر شيئاً » .

وقال دانيلو وهو يمضى الى زوجته : « لقد هرب الملعون عدو المسيح!
أتسمعين يا كاترينا ؟ لقد هرب ! » ، وانبعث الشر من عينيه ، وأخذ
سيفه يقعقع الى جانبه ، اما زوجته فكانت أقرب الى الأموات منها
الى الأحياء .

وغمغمت وهى ترتعد : « او اطلق سراحه احد يا زوجى العزيز ؟ » .

« أجل ، لقد صدق ظنك ، فان الشيطان هو الذى أطلقه من
محبسه ، انظرى ، لقد ترك مكانه كتلة من الخشب مصفدة بالأغلال ،
ويخيل الى ان مشيئة الله قد قضت بالأى يخشى الشيطان يد رجل

من القوزاق ! ولو قد دار بخلد احد ان يأتى مثل هذا الفعل وعلمت
بأمره ما وجدت عقابا أستطيع ان اجزيه به ! » .

ولم تستطع كاترينا ان تقاوم رغبتها فى السؤال : « واذا كنت انا
التي فعلت هذا ... ؟ » . ثم كفت عن الكلام وقد تملكها الفرع .

« لو كنت فعلت هذا ما أصبحت زوجتى ، ولوضعتك فى كيس ثم
خطته من دونك ، وقذفت بك فى عرض الدنيبر » .

ولهت كاترينا مبهورة الانفاس ، واحست بشـمرها يقف على
راسها .

- ٨ -

وكان البولنديون قد تجمعوا فى حانة على طريق الحدود ، وظلوا
يحتفلون فيها يومين لا يخاطهم من الفوغاء الا القليل ، وما من شك فى
ان اجتماعهم كان لغارة يشنونها ، فقد حمل بعضهم البنادق ، وانبعثت
المهاميز تجلجل والسيوف تصلصل واخذوا الاعيان يمرحون ويتفاخرون ،
ويتشدقون بما اتوه من عجيب الفعال ، ويسخرون بالمسيحيين
الأرثوذكس ، ويسمون الأوكرانيين عبيدهم ، ويفتلون شواربهم فى
قحة ، ويتمرغون على الأرائك . وكان من بينهم قسيس ، ولكنه كان
على شاكلتهم لا تبدو عليه سمة واحدة من سمات القسيس المسيحى ،
فقد كان يشرب معهم وينادمهم ويجرى لسانه الأثم بكلمات يندى لها
الجبن خجلا .

ولم يكن الخدم احسن حالا من اسيادهم ، فقد شمروا عن اردان
سترتهم المهلهلة ، وراحوا يسرون متبخرين كأنهم من ذوى الجاه
والخطر ، ويلعبون الورق ويضرب كل منهم الآخر بالورق على أنفه ،
وكانوا قد جاءوا معهم بزوجات غيرهم ، يسمى العيون ، واختلط الحابل
بالبابل ، الا ان القوزاق كانوا فى قمة مرحهم ، يأتون من الاعاييب
أشكالا والوانا فيجذبون صاحب الحانة اليهودى من لحيته ، ويرسمون
بالطلاء صليبا على جبينه الفاجر ، ويرمون النساء بطلقات فارغة من
البارود ، ويرقصون الرقصة الكراكوفية مع قسيسهم الزنديق . ولم
تشهد الأرض الروسية من قبل مثل هذا الأثم حتى بين التتر ، ولعل

الله قد اقتضت مشيئته أن ينزل بروسيا هذا الخزي العظيم على ما اقرتفت من آثام . وكان يسمع في غمرة هذه العريضة الشبيهة بعريضة المجانين لفظ صادر عن دار دانيلو التي تعلقو نهر الدنيبر وعن زوجته الحسنة .
وكان من الجلي أن هذه العصابة تدبر أمورا شنعاء .

- ٩ -

وجلس دانيلو على المائدة في داره وقد استند الى مرفقه ، واستغرق في تأملاته . وجلست كاترينا على أريكة الموقد تغنى .

وقال دانيلو : « أي زوجتي ، اننى لحزين ، مصدع الراس كسير القلب ، وقد انهد منى الجسم حتى لبدو لى أن منيتى أصبحت قريية » .
وكانت كاترينا تريد أن تقول : « آواه ! يا زوجى الحبيب ! اسند رأسك على ! ما بالك تستسلم لمثل هذه الأفكار السود ؟ » ، ولكنها لم تجرؤ على النطق بهذه الكلمات فقد حز في نفسها أن تأتي هذا الاثم وتلقى من زوجها التذليل والاعزاز .

وقال دانيلو : « استمعى الى أي زوجتي ! لا تتخلى عن ابننا ، حين ينتهى اجلى ، وليحرمك الله طعم السمادة في الدنيا والآخرة أن فعلت ، فما اشقى أن تتحلل عظامى فى الأرض الرطبة ، واشقى من ذلك وقع على روحى ! » .

« زوجه ، ماذا تقول ؟ الست أنت الذى كنت تسخر منا نحن النساء الضعيفات ، ان أمامك عمرا مديدا لا بد أن تعيشه » .

« كلا يا كاترينا ، ان قلبى يحس بدنو الاجل ، والدنيا تضيق فى عيني ، وأماننا أيام شداد ، آه ! انى لأذكر ، اجل اذكر السنوات ... وهيات أن تعود ! لقد كان يعيش آتئذ ، كوناشيغتشى العجوز الذى تمثل فيه شرف جيشنا ومجده وفخاره ! ان الفرقة القوزاقية تمر الآن أمام عيني كأنما يحدث ذلك اليوم » .

« لقد كانت ايماننا مجيدة يا كاترينا ! يستوى فيها شيخ القوزاق المجوز على ظهر جواد أسود أصيل ، ويتألق الصولجان فى يده ويقف الحرس من حوله ويسير على جانبيه بحر ضخ احمر من الزابوروجاويين وما ان يشرع الزعيم فى الكلام حتى يقف الجميع كأنهم سمروا فى الأرض

تسميرا . لقد كان العجوز يبكى حين يحدثنا عن الغزوات والمواقع الماضية ، آه ياكاترينا ، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك في تلك الأيام ! ان أثر الجرح الذى فى راسى لا يزال ظاهرا حتى الآن ، وقد نفذت فى جسمى أربع رصاصات فى أربعة مواضع ، ولم يشف منها جرح واحد تمام الشفاء ، ويا للذهب الذى غنمناه فى تلك الأيام ! » .

« لقد ملا القوزاق قبعاتهم بالأحجار الكريمة ، ويا للجياد ! ، وى ! ان عدد ما سقناه اماننا منها لفوق ما تتصورين ! هيهات أن أقاتل مثل هذا القتال مرة أخرى ! ان الوهم ليصور لى اننى لا زلت قوى الجسم لم تمض بى السن بعد ، ولكن السيف يسقط من يدى ، وهأنذا اعيش مقيدا لا أفعل شيئا ، ولست ادرى : لم اعيش ؟ لقد تلاشى النظام فى أوكرانيا ، واصبح أفراد الجيش وضباطه يتشاجرون كما تتشاجر الكلاب ، وليس من فوقهم رئيس يمسك بزمامهم ، وبدل خاصتنا كل شىء ووسموه بطابع البولنديين . واخذوا عنهم اساليبهم الماكرة الخبيثة . لقد باعوا ارواحهم واعتنقوا مذهب الاونيات ، وراح اليهود يضطهدوا الفقراء ، آه ! اين تلك الأيام ! اجل اين تلك الأيام الماضية ! واين انت يا أيام شبابى ؟ اذهب الى القبو يا غلام وائتنى بابريق من نبيذ العسل ! ولأشربن نخب الماضى ، نخب السنوات التى ذهبت ولن تعود ! » .

وقال ستيتسكو وهو يلج الفـرفة : « كيف نستقبل ضيوفنا يا مولاي ؟ ان البولنديين مقبلون من جانب المرج » .

وقال دانيلو وقد هم بالوقوف : « لا اعرف سبب مجيئهم ، اسرجوا جيادكم أى رجالى المخلصين ! وارشدوا دروعكم واشهروا سيوفكم ! ولا تنسوا أن تزودوا بمئوناتكم من الرصاص ، فان الواجب يقتضينا أن نكرم ضيوفنا ! » .

وما ان هم القوزاق بأن يسرجوا جيادهم وبحشوا بنادقهم حتى كان البولنديون قد غطوا سفح التل كما تغطى أوراق الأشجار اديم الأرض وقت الخريف .

وقال دانيلو وهو ينظر الى البولنديين الأشداء وهم يتقدمون الصفوف ، يتميلون فى رزانة ووقار على ظهور جيادهم الاصيلة ذات السروج الذهبية « آه ! هاكم أعداء نختير قوتنا معهم ! ولعل من

نصيبنا ان نخوض غمار جولة مجيدة اخرى ! فطبيبي ايتها النفس القوزاقية للمرة الاخيرة ! وهلموا ايها الفتيان ، فقد اقبل العيد ! » .
واقيم العيد على التلال ، وكان القصف والمرح عظيمين ، فقد اخذت السيوف تتلاعب والرصاص يتطاير والجياد تصهل وتضرب الأرض بقوائمها ، وكان الصباح يذهل العقل ، والدخان حتى عن نفسها ، وراحت تصب على رأسها اللوم فى صوت يعرف عدوه من صديقه ، وكلما دوت رصاصة سقط فارس كريم عن سرجه ، وكلما برق سيف هوى رأس على الأرض يدمدم ويفمغم بكلمات متقطعة لا تفصح ولا تبين .

على ان قبعة دانيلو القوزاقية كانت تبدو للعيان دائما فى غمرة هذه الزحمة ، وكان حزامه الذهبى يطوق سترته الزرقاء الداكنة يتالق ويتلألا ، وعرف جواده الأسود الأصيل يخفق مع الريح . وكان دانيلو يمرق هنا وهناك فى خفة الطائر يصرخ ويلوح بسيفه الكريم يطيح بالرءوس يمئة ويسرة . ايه ايها القوزاقى ، أطح بالرءوس وامرح ! واشف قلبك النبيل ! ولكن لا تنظر الى السترات والحلى الذهبية وطأ الذهب والجواهر بقدميك ! ولكن التفت ورائك ، فقد اخذ البولنديون الاشرار يشعلون النار فى الاكواخ ويسوقون الماشية المرتاعة امامهم .
وعاد دانيلو ادراجه كالزوبعة ، واخذت القبعة ذات الريشة الحمراء تتالق بجوار الاكواخ ، ويتفرق شمل الزحمة الضاربة حوله .

وتقاتل البولنديون والقوزاق ساعة بعد ساعة ، فما بقى من الجانبين الا القليل، ولم يخفف دانيلو من حرارته ، بل راح يطعن برمح الطويل فرسان البولنديين فيسقطهم عن سروجهم ويطأ جواده الأصيل الجرىء مشاتهم ، حتى أوشك فناء داره ان يخلو من الفزاة . وتعلق البولنديون بأذيال الفرار ، واخذ القوزاق ينتزعون السترات الذهبية ، والزينات الفاخرة عن أولئك الذين قضاوا عليهم ، وانطلق دانيلو يطارد من ولى الأدبار منهم ، وتلفت ليجمع شتات رجاله ، ولكن الغضب غلب عليه ، فقد رأى ابا كاترينا .

وكان الرجل يقف على سفح التل يصوب بندقيته نحوه ، وحث دانيلو جواده مندفعاً اليه لا يلوى على شيء : قف ايها القوزاقى ! انك تسعى الى حتفك بظلفك ! ثم انطلقت رصاصة وتوارى الساحر خلف التل ، وغاب عن الانظار ، وانما لمح ستيتسكو الأمين سترة الساحر

الحمراء وقبمته الغربية ، وترنج القوزاقى وسقط على الأرض ، وهب ستيتسكو لنجدة سيده ، فوجده ملقى فوق الثرى وقد غمض عينيه المتألمتين وراح الدم القانى ينبثق من صدره . على أنه كان يحس وجود خادمه الامين بلا شك . ورفع دانيلو حاجبيه فى تضاقل وتألمت عيناه وهمس : « وداعا يا ستيتسكو ! قل لكاترينا الا تتخلى عن ابننا ! وانتم يا خدم المخلصين لا تتنكروا له ! » ، ثم أمسك ، وفارقت روحه الكريمة جسده النبيل ، وازرقت شفتاه ، وأخذ القوزاقى الى نوم طويل لا قيام بعده .

وانتخب خادمه الامين واوما الى كاترينا : « تعالى يا سيدتى ، تعالى ! لقد كان زوجك يلهو ويشرب ، وها هو ذا ينام الان على الأرض الرطبية نشوان ثملا ، ولن يفيق الا بعد زمن طويل ! » .

وعصرت كاترينا يديها وارتمت على الجسد المسجى : « اى زوجى ، أنت الذى ترقد هنا مغمض العينين ؟ انهض ايها الحبيب ومد يدك ! انهض ! والى نظرة واحدة على زوجتك كاترينا . حرك شفتيك ، وقل كلمة واحدة ، كلمة واحدة فحسب . ما بال لسانك قد انعقد ولج فى الصمت يا زوجى الكريم ؟ لقد أسود لونك حتى حاكى البحر الاسود ، وكف قلبك عن النبض . لم شاعت كل هذه البرودة فى جسمك ياسيدى وتاج رأسى ؟ يخيل الى أن دموى لم تبلغ من الحرارة ما يبعث الدفء اليك ! ان بكائى لم يرتفع الى حد العويل حتى يوقظك ! أين من يقود كتابك الان ؟ ومن ذا الذى ينطلق بجوادك لاسود الاصيل ويهتف بالصوت المجلجل ويقود القوزاق ملوحا بسيفه ؟ أيها القوزاق ، أيها القوزاق ! أين من كان رمز شرفكم ومجدكم ؟ انه ملقى الان مغمض العينين على اديم الثرى الرطب ! ادفنوني ، ادفنوني معه ! واهبلو على عيني التراب ! ، ودعوا الواح شجر الاسفندان يجثم على صدرى الأبيض ! فأى نفع أرجوه الان من ملاحظتى وحسنى ؟ » .

وحزنت كاترينا وبكت ، وثار النقع فغطى الافق البعيد ، ذلك ان الصاع جوروبتس العجوز كان قد خف لنجدة مواطنيه .

- ١٠ -

ما أجمل الدينير تنساب مياهه فى الجو الهادىء منطلقة ناعمة

خلال الغابات والتلال ، لا ينبعث منها صوت ولا تحس لها خريرا ولا هديرا ! فاذا نظرت اليه لم تدر : ايتحرك هذا الخضم فى جلالة أم لا يتحرك ؟ وقد تكون مياهه من البللور المنصهر تشق طريقها خلال البقاع الخضر كأنها لوح من الزجاج الأزرق لا يعرف له مدى ولا تدرك له نهاية ، ويطيب للشمس اللافحة فى مثل هذا الجو ان تطل من برجها العالى وتختلس النظر الى نفسها وتنفذ اشعتها المتألقة فى مياه النهر الرطبية الساجية ، ويحلو للضفتين الشجراوين ان ترقبا ظللهما المتألقة وهى تنعكس فى الماء ، وتدنو الغابات فى حلتها الخضراء هى والأزهار البرية من حافة النهر حانية عليه تتأمله فلا تمل من الإعجاب بصورتها الرائعة المائلة فيه ، ثم تتسم له وتحييه بايماءة من اغصانها . على انها لم تكن لتجرؤ على النظر فى عرض الدنيبر ، وانما يستطيع ذلك الشمس والسماء الزرقاء . الا ما أروعك يا نهر الدنيبر : وهيهات ان يكون لك مثل فى هذا العالم ! ، وما اجمل نهر الدنيبر فى ليلة من ليالى الصيف الدفيئة حين تستسلم للكبرى عيون الناس جميعا ! فيجمع الانسان والحيوان والطير ، ولا يبقى الا الله وحده ساهرا يرمى بجلاله وعظمته الارض والسماء ، ويهز ثوب ملكوته فى عظمة وجلال ، فتتناثر النجوم فيه ، وتتألق ويسطع نورها على العالم وتنعكس جميعا على صفحة نهر الدنيبر، وتنطوى كلها فى احضانه المظلمة ، لا يفلت منها احد الا اذا انطفأ نوره فى السماء . وتتدلى الغابات السود تناثرت فيها الغربان النائمة والتلال انشقت شعبا من تعاقب الدهور وكر الايام ، وتحاول جاهدة ان تطويه فى غمرة من ظلالها الوارفة ، ولكن هيهات !

فما من شىء فى العالم يستطيع ان يخفى عن الأنظار نهر الدنيبر ، فهو ينساب عميقا فى زرقة داكنة ، وينتشر ماءه فى جميع الأرجاء ، فتراه العين فى منتصف الليل كما تراه فى الظهيرة بعيدا جدا ، على قدر ما يمتد البصر ، وهو ينكمش من برد الليل ، فيدنو من الشاطئ اكثر ويخلف وراءه اثرا من لجين يلمع لمعان النصل فى السيف الكريم ، وتعود مياهه الزرق الداكنة فتحجج مستسلمة للنوم . الا ما اجمل نهر الدنيبر وهو على هذه الحال ! وهيهات ان تجد له بين انهار العالم ميلا ! .

فاذا تجمعت سحب العاصفة الزرق الداكنة فى السماء اهتزت الغابة

السوداء حتى الجذور ، وتراقصت أشجار السنديان وأضاء البرق العالم كله فجأة ، وراح يتلوى بين السحب ، وعندئذ يكون نهر الدنيبر مخيفا مهرولا تهدر أمواجه صاخبة تحاكي الجبال وتنقض على التلال ، وترتد مندفعة تومض وتثن وتلول وتنوح في الفضاء البعيد ، وتنهج نهجا الأم المعجوز اذ تودع ابنها وهو ماض الى الحرب ، وينطلق الفتى ممطيا صهوة جوده الأسود الاصيل فى جراءة وأستهتار ، وقد وضع ذراعيه فى خاصرته ، ومال بقبعته اللطيفة على جانب رأسه ، وراحت الأم تركض ورائه منتحبة تتعلق بركابه وتمسك باللجام ، ثم تعصر يديها عصرا من أجله وتذرف الدمع حارا سخينا .

وكانت جذامير الأشجار المحروقة والأحجار التى على الضفة النائية تصطبغ من حولها الأمواج تبدو غريبة المظهر سود اللون . وضربت الأمواج القارب الذى ادلى الى الماء وقذفت به الى الشاطئ ورفعته ثم هوت به . ترى أى قوزاقى هذا الذى اجترا على التجديف فى قارب ، ونهر الدنيبر العريق فى ثورته وهياجه ؟ لا شك انه يجهل أن النهر يبتلع الرجال كأنهم الذباب .

وبلغ القارب الشاطئ ، ونزل منه الساحر ، ولم يكن الرجل منشرح الصدر صافى الزاج ، فقد حز فى نفسه أن يرى الجنازة التى أقامها القوزاق احتفالا بسيدهم القتيل . ودفع البولنديون الثمن غاليا ، فقد لقي الموت منهم أربعة وأربعون رجلا فى كامل عدتهم وزينتهم ، ومزق ثلاثة وثلاثون خادما اربا اربا ، وأسر الآخرون بجيادهم لتباع الى التتر .

وهبط الساحر درجا من الحجارة بين الجذامير المحترقة الى موضع حفر فيه جبا عميقا فى الأرض ، ونزل الى الجب رفيق الخطا ، محاذرا أن يصدر عن الباب صرير ، ووضع قدرا على المائدة غطاها بقطعة من النسيج ، وأخذ يلقي فيها يديه الطويلتين بعض الأعشاب الغريبة ، وتناول ابريقا مصنوعا من خشب نادر ونزح به بعض الماء ثم سكبته وهو يحرك شفثيه ويردد تمويذة من تماويذه ، وغمر الجب ضوء وردى ، وغدا وجه الرجل بشعا تتقحمه العين ، ولاح أن الدم قد غطاه الا من تجاعيد عميقة يفساها السواد ، واتقدت عيناه بالشرر ، لبس هذا الاثم الزنيم ، كيف يمضى ممعنا فى شروره وقد كلل الشيب لحيته، ورسمت التجاعيد خطوطا على وجهه وأضنت الأيام جسمه ! .

وانبعثت سحابة بيضاء ترفرف في الجب وبرقت ملامح الساحر بشيء يشبه البشر ، ولكن ما باله قد وقف ساكنا فاغر الفم لا يريم ولا يجرؤ على الاتيان بأية حركة ، ولماذا وقف شعر رأسه ؟ وتلا لا أمامه من خلال السحابة محيا شبح غريب ، أقبل يزوره بلا استئذان ولا دعوة ، وازداد الوجه وضوحا وأخذ يتفرس في الساحر لا يحول عنه نظره ، وكانت ملامحه كلها - الحاجبان والعينان والشفقتان - غير مألوفة لديه، فلم يسبق له أن رآها في حياته قط ، والظاهر ان الوجه كان بريئا كل البراءة مما يخيف ، ولكن الفزع استبد بالساحر ، وظل الوجه الغريب يتفرس فيه من خلال السحابة ، ثم انقشعت السحابة ، ولكن الوجه الغريب ازداد وضوحا على وضوح وظلت العينان الثاقبتان تحدجانه بنظراتهما ، وامتقع لون الساحر حتى غدا كصفحة النسيج الناصع ، وصرخ صرخة مدوية وقلب القدر ، فاخفى كل شيء عن الأنظار .

- ١١ -

وهتف الصاغ جوروبيتس المعجوز : « ليطمنن بالك أيتها الأخت العزيزة ، فقلما تصدق الأحلام ! » .

وقالت زوج ابنة العروس : « ارقدى أيتها الأخت ولاسمعين في طلب سيده عجوز ، بل امرأة حكيمة لا تقف أمامها أية روح شريرة ، فتمعنك على ما أنت فيه » .

وقال ابنه وهو يتحسس سيفه : « لا تخشى شيئا ، فلن يسء اليك أحد ! » .

وأخذت كاترينا تنظر اليهم جميعا وقد اظلت عينيها غشاوة من الحزن والكتابة ، ولم تجد ما تقوله ، الا انها أخذت تحدث نفسها قائلا : « انا التي تسببت في هلاك نفسي ، فقد أفلت سراحه ! » .

ثم قالت آخر الأمر :

« انه لا يدع لي فرصة للطمانينة وهدوء البال ! وهانذا قد قضيت معكم هنا في كيبف عشرة ايام سويا ، فما خف لي حزن ، وكنت اظن اننى استطيع على ايسر تقدير أن انشئ ابني في سلام حتى يثار

لايه ، انه يظهر لى فى الحلم فظيما كل الفظاعة ، بشما كل البشاعة !
وقاكم الله شر رؤيته على هذه الحال ! ان قلبى لا يزال يضرب ، لقد
كان يصيح بى : لاظمن ابنك اربا اربا يا كاترينا ان لم تتزوجينى ! » ،
ثم اقلت بنفسها على المهد وهى تنتحب ، وتملك الرعب الطفل ، فمد
يديه الصغيرتين وعلا صوته بالبكاء .

وكان ابن جوروبيتس يفلى من الفيظ وهو يسمع تلك الكلمات .
اما جوروبيتس نفسه فقد نارت نأثرته .

« فليخاطرن بالقدوم الى هنا ذلك الملعون عدو المسيح ، وسوف
يعلم ان كان قد بقى فى ساعة القوزاقى المعجوز فضلا من قوة » .
ومضى يقول وهو يتطلع بعينه الثابتين الى السماء : « علم الله
اننى هرعت لنجدة أخى دانيلو ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه !
فقد وجدته يرقد على أديم الثرى الرطب كما رقد كثير من القوزاق
من قبل ، ولكن ما اروع الحفلة التى اقمناها لجنارته ، فقد اتينا على
القوم ولم نترك بولنديا واحدا على قيد الحياة ! ليطمئن بالك يا بنيتى !
فان يجرؤ احد على ان يصيبك بأذى ما دام فى انا أو ابنى عرق ينبض ! »

وما ان انتهى الصاغ القوزاقى المعجوز من حديثه هذا حتى اقترب
من المهد ، ورأى الطفل غليونه الأحمر المرص بالفضة والكيس الذى
حمل فيه الحجر الصوان والصلب القادح للنار يتدليان من سير
من الجلد ، فمد ذراعيه نحوه وهو يضحك ، فهتف الصاغ المعجوز
وهو يفك الغليون ويعطى الطفل اياه : « انه ينهج نهج ابيه ، يحلم بغليون
وهو بعد فى المهد ! » .

وتنهدت كاترينا واخذت تهز المهد ، واتفق الجميع على أن يقضوا
الليلة معا ، وسرعان ما استغرقوا فى النوم ، وثقلت جفون كاترينا
ايضا واستسلمت للنعاس .

وشمل السكون الفناء والدار جميعا ، ونام من بالدار الا القوزاق
الذين كانوا يقومون بالحراسة ، واستيقظت كاترينا فجأة واطلقت
صرخة ، فاستيقظ الباقون ايضا وصاحت تقول : « لقد ذبح ! لقد
قتل ! » ، واندفعت الى المهد والتف الجميع حوله وانمقد لسانهم من
الرعب والفرع اذ وجدوا الطفل راقدًا فيه وقد فارق الحياة ، ولم
ينبس احدهم ببنت شفة ، وراحوا يعجبون من امر هذه الجريمة التى
لم يسمع بمثلها احد .

تمتد سلاسل من الجبال الشامخة على مبعده من اوكرانيا ، فيما وراء بولنده ومدينة لمرج العامرة ، وانتشرت هذه الجبال ، جبلا في اثر جبل كحلقات من الحجارة انتشرت على الارض ذات اليمين وذات اليسار ، تحيط بها طبقات من الصخر ترد عنها عادية البحر الصاحب المضطرب ، وتتوغل السلاسل الحجرية في الافلاق وترانسيلفانيا ، وتشمخ بانفها كحدوة الحصان الضخمة بين شعبي غاليسيا وهنغاريا ، ولا وجود لمثل هذا الجبال في بلادنا ، فان البصر يرتد عنها وهو كليل ، ولم يسبق لانسان ان وطئ بقدمه بعض قننها ، ان منظرها لعجيب ، ومن يدري ؟ لعل بحرا صاخبا قد افلت من شاطئيه الفسيحين اذ المت به عاصفة وقذفت بأمواجه الهائلة عاليا ، فاستحالات حجرا وظلت معلقة في الفضاء بلا حراك ، او لعل سحبا كثيفة من سحب العاصفة قد سقطت من السماء وهوت الى الارض ، والا فمن اين جاءت هذه الجبال بذلك اللون الأشهب الذي نعهده في تلك السحب تومض قننها البيض وتتألق في ضوء الشمس .

وقد يسمع المرء اللغة الروسية تدور على الالسنه حتى جبال الكريات ، اما فيما وراء هذه الجبال مباشرة فلا يزال يتردد هنا وهناك صدى للهجتنا القومية ، فاذا اوغلت الى ابعد من ذلك اصبح المذهب واللغة غير اللغة ، ويقيم الشعب الهنغاري الغفير العدد هناك ، وهم يركبون الخيل ويقاتلون ويشربون كالفوزاق سواء بسواء ولا يبخلون بالقطع الذهبية يخرجونها من جيوبهم لشراء حلى خيولهم وستراتهم النفيسة ، وتقوم بين الجبال في تلك البلاد بحيرات واسعة عظيمة ساكنة الاديم كالزجاج وتمكس المرايا قمم الجبال العارية وسفوح التلال الخضراء .

ولكن اى فارس هذا الذى يمتطى صهوة جواد ضخم اصيل بلبل سواء تأقت النجوم او خبا ضياؤها ؟ واى بطل من العمالقة ذلك الذى مضى بجواده يخب خيما تحت الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة جواده الجبار على صفحة المياه الساجية ، والتقى على الجبال ظله الرهيب الممدود ؟ لقد كانت درعه المصفحة

تنالق وقد اسند رمحا على كتفيه واخذ سيفه يققع الى جانب السرج ،
وانكفات خوذته الى الامام ، وكان شاربه اسود وعيناه مغمضتين وقد
ثقلت جفونه بفعل الكرى ، اجل لقد كان هذا الفارس نائما يمسك اعنة
الجواد مستسلما للنعاس ، وكان يمتطى صهوة الجواد نفسه غلام
صغير ، خادم استسلم للنعاس ايضا وقد تعلق بالبطل ، ترى ، اى
رجل كان ؟ واين كانت وجهته ؟ وفيم كانت رحلته ؟ من يدري ؟

لقد ظل بعد السير فوق الجبال يوما او اكثر من يوم ، ثم لاحت
تباشير الصباح واشرقت الشمس فغاب عن الانظار ، وانما كان رواد
الجبال يشاهدون من حين الى حين ظلا طويلا يمرق فوق الجبل على
الرغم من أن السماء كانت صافية الاديم لا تفشاهما سحابة ، وما أن
عاد الليل فاسدل ستار الظلام حتى ظهر مرة اخرى وانعكست صورته
على صفحة البحيرات يتبعه ظله المرتمش ، واجتاز البطل في رحلته
جبالا كثيرة وبلغ آخر الامر جبل كريفان الذى لا يدايه في الارتفاع جبل
من جبال الكربات ، فهو يشمخ بانفه على الجبال الاخرى كالملك المتوج ،
وعندئذ توقف الجواد وراكبه ، واستفرقا في نوم زاد عمقا على عمق ،
وحجبتهما السحب المسفة عن الانظار .

- ١٣ -

« صه ، ولا تدقى هذا ايتها الموضع ، فان طفلى نعسان ، وقد
ظل يبكى وقتا طويلا ثم استسلم للنوم ، انى ذاهبة الى الغابة ايتها
الموضع ، ولكن ما بالك تنظرين الى على هذا النحو ؟ انك لمخيفة ، تطل
من عينيك كلابتان من الحديد ، الاتيا لك ، ما اطولهما ! وهما يتوهجان
توهج النار ! لاشك انك ساحرة ! آه ! فان كنت ساحرة فاقربى عن
وجهى ! فلسوف تسرقين ابنى ! يا للضاغ من غبى احمق ! فهو يظن
اننى انعم بالعيش في كيبف ، كلا ان زوجى وابنى هنا ، فمن يدبر
امر البيت ؟ لقد خرجت في خفة حتى ان الكلب والهرة لم يسمعا ديب
قدمى ، اتريدين ان تعودى الى شبابك ايتها الموضع ؟ ليس هذا بعسير
على الاطلاق ، وما عليك الا أن ترقصى ، انظرى كيف ارقص ؟ » .
وما أن اتمت كاترينا هذا الحديث المضطرب حتى شرعت ترقص

وهى تدير عينها الناطقتين بجنونها وتضع ذراعيها في خاصرتيها ،
ثم صرخت وأخذت تضرب الأرض بقدميها ، وانطلق كعابها الغضيان
يقعقان في نشاز لا إيقاع فيه ولا نغم ، وطفقت تدور في سرعة كالمطائر
لا تستقر ولا تستريح ، وهي تلوح بيديها وتومئ برأسها ، حتى
بدا للأنظار إلا مناص من أن تسقط على الأرض فاقدة الوعي أو تحلق
في الجو حتى تبلغ العالم الآخر .

ووقفت الموضع العجوز حزينة كاسفة البال وقد خضب الدمع
وجهها المتفضع ، وأثقل الهم والأسى قلوب القوزاق الأمناء وهم ينظرون
إلى سيدتهم ، وخارت قواها آخر الأمر وتشبث بالموضع الذي هي
فيه تضرب الأرض بقدميها في ضعف ووهن ، زاعمة أنها ترقص دورا ،
ثم توقفت وقالت : « عندى أيها الفلمان فلادة ليس عندكم مثلها ! »
وصاحت فجأة وهي تشهر خنجرا تركيا أخذته من حزامها : « ابن
زوجي ؟ آه ! ليس هو السكين الذي أنا في حاجة إليه » ، وعندئذ
انهمرت الدموع من عينها حزنا وكمدا وقالت : « ان قلب أبي ليكن
في أعماق نفسه ، ولن يصل إليه هذا النصل ، فقد قد قلبه من حديد ،
وطرقته ساحرة في نار الجحيم ، لم لا يأتي أبي ؟ الا يعلم أن الوقت قد
حان لطفه ؟ يخيل إلى أنه يريد مني أن أذهب إليه بنفسى، يبدو... »
ثم سكتت وضحكت ضحكة غريبة ، ومضت تقول : « لقد تذكرت قصة
مضحكة ، أجل تذكرت كيف دفن زوجي ، فقد دفن حيا كما تعلمون ،
وحملنى ذلك على الضحك ! انصتوا ، انصتوا ! » ولكنها لم تتكلم بل
راحت تغنى :

انطلقت عربة خضبها الدم تسابق الريح

ورقد فوقها قوزاقى

أصيب برصاصة في صدره وطمنة في قلبه

وفى يده اليمنى رمح

يقطر منه الدم

وينهال كالنهر المتدفق

وقد حنت على النهر شجرة دلب

وقف فوقها غراب ينمق

* * *

وها هي ذى الام تبكى القوزاقى

لا تبكى ابنتها الام ولا تحزنى ؟
فقد تزوج ابنك
واختار فتاة كريمة عروسا له
وقامت فى الحقول العاربية اكمة من الثرى
بلا باب ولا نافذة
وهكذا تنتهى قصتى

* * *

لقد كانت سمكة ترقص مع سرطان البحر
ولتقض البرداء على أم
من لايجبنى

* * *

وهكذا خلطت بعض سطور من أغان مختلفة ببعض ، وكانت كاترينا
تقيم منذ يومين فى بيتها هى ، وابت أن تسمع شيئا عن كيف ،
ورفضت أن تتلو صلاتها أو تلقى أى انسان ، وكانت تتجول من
الصباح الى المساء فى ادغال السنديان المظلمة ، فتخدش المساليج
الحادة وجهها وكتفيها البيضاوين ، وتثير الريح شعرها المرسل ،
وتخشخش أوراق الخريف تحت قدميها ، ولكنها لم تكن تحفل
بشيء . وقد كان من الأمور المخيفة أن يسر أحد فى الغابة من
وقت أن يخبو وهج الشمس الغاربة الى حين تظهر النجوم أو يضيء
القمر ، ذلك ان الأطفال الذين لم يعمدوا يتسلقون فى هذه الأثناء
فوق الأشجار ويتملقون بغصونها ، ويتدحرجون فى الطرقات وقفار
القرىض ينشجون ويضحكون ، وتبرز المدارى اللواتى فقدن أرواحهن
واحدة فى اثر الأخرى من أعماق الدنيبر وتسترسل جدائلهن الخضر
على أكتافهن ، ويقطر الماء من شعرهن الطويل على الأرض فى صوت
منغوم وتتألق عذراء من خلال الماء كأنه نقاب شفاف من البللور ،
وتبتسم شفتيها فى خفاء وغموض وتشرق وجنتاها وتخلب عيناها
اللب حتى ليضطرم الفؤاد بنار الحب ، ويخيل للمرء أنها سوف
تمطره بالقبلات حتى تزهق منه الانفاس ، ألا فلتنج بنفسك أيها
المسيحى ! فان شفتيها باردتان كالثلج ، وفراشها ... هو الماء
البارد ، وسوف تداعبك وتمايك حتى تقضى عليك ثم تجرك الى

النهر. ولم تك كاترينا تنظر الى واحدة من هاتيك المدارى ، ولا تخش فى خبلها عرائس البحر، فقد كانت تهيم ليلا وفي يدها سكينها تبحث عن ابيها ، وتمتسح عنه .

وفي باكورة اليوم التالي جاء الى المنزل زائر حسن الطلعة يرتدى سترة حمراء وسأل عن دانييلو ، واستمع الى قصته ، ثم مسح بردنه عينيه المخضبتين بالدموع وهز كتفيه ، وقال : « انه حارب مع بورولباش جنبا الى جنب ، وخاضا المصارك مع الترك واهل القريم ايضا جنبا الى جنب ، وما كان ليدور بخلده قط أن تكون نهاية دانييلو على هذه الصورة ، وانباهم الزائر بأمر أخرى كثيرة ، ثم طلب ان يرى كاترينا .

ولم تحفل كاترينا اول الأمر بشيء مما قاله الضيف ، الا انها بدأت من بعد تنصت اليه ، كأنما تمى ما يقول : وأخبرها كيف كان يعيش مع دانييلو كالأخوين ، وكيف انهما أختفيا ذات مرة من أهل القريم تحت سد من السدود ، وكانت كاترينا تنصت اليه وهى تحدجه بنظراتها .

وقال القوزاق بينهم وبين انفسهم وهم ينظرون اليها : « لتشفين ، ان هذا الضيف كليل بشفائها ! فهى تنصت اليه كأنما تمى مايقول» .

وأخذ الزائر يصف فى هذه الأثناء كيف أسر اليه دانييلو يوما قائلا : « لا تنس يا أخى كوبريان ، حين تقضى مشيئة الله بأن أغادر هذه الدنيا .. أن تتخذ كاترينا - أجل تتخذها زوجة لك » .

ونظرت اليه كاترينا نظرة نفاذة ثم صرخت : « آه ، انه هو . انه أبى ! » وانقضت عليه بسكينها .

وقاومها الزائر زمنا طويلا محاولا أن يخطف السكين منها ، ثم نجح آخر الأمر فى انتزاعها منها ورفعها ليضرب ، ثم حدث حادث جلال . فقد قتل الأب ابنته المجنونة .

واندفع القوزاق اليه وقد استبد بهم الدهول ، الا أن الساحر كان قد ففز على ظهر جواده وغاب عن الأنظار !

وحدثت عجيبة من العجائب فيما وراء كيف لم يسمع الناس

بعثلها من قبل ، واجتمع النبلاء وزعماء القوزاق كافة ليشاهدوا هذه العجيبة ، فقد تكشف الفضاء البعيد لأعين الناس من جميع النواحي ، وبدا للأبصار على البعد البعيد مصب نهر الدنيبر في زرقته الداكنة ومن ورائه البحر الأسود ، وابصر الذين خرجوا من القوم مرتحلين - بلاد القريم ترتفع بشمابها من أعماق البحر كما ابصروا نهر سيفاش العامر بالبطائح وبرزت الى اليمين بلاد غاليسيا .

وسأل الناس الشيوخ وهم يشيرون الى قنن الجبال البيض والشهب التي تجلت بعيدا في أفق السماء ، كالسحب او هي اشبه : « وما هذه ؟ » .

وقال الشيوخ : « تلك هي جبال الكريات ! وبعضها يقطبه الجليد دائما وتعلق به السحب وتقضى عليه ليلتها » .

ثم حدثت عجيبة جديدة ، فقد انقشعت السحب من اعلى القنن وظهر فوق ذروتها فارس كامل العدة مغمض العينين ، تجلى للقوم بوضوح كأنه واقف بالقرب منهم .

وعندئذ قفز من بين صفوف القوم المأخوذون الخائفين رجلا امتطى صهوة جواد واخذ يتلفت حوله في نظرات زائفة كأنما يريد ان يطمئن الى ان احدا لا يطارده ، ولم يلبث ان اطلق جواده يسابق الريح ، وكان هذا الرجل هو الساحر . ترى ما الذى روعه ؟ .. لقد نظر الرجل في فزع الى الفارس العجيب فتبين فيه ذلك الوجه الذى ظهر له عندما كان يردد تعويذته ، ولو قد سأله احد عن سبب اضطرابه حين رأى هذا المنظر لم يحرج جوابا . ثم تلفت الرجل في خوف ووجل حوله ، راجعا الى داره ، ولعله اراد ان يسأل الروح الشريرة عن سر هذه العجيبة ، وهم بأن يقفز بجواده فوق جدول من ماء يعترض طريقه واذا بجواده يتوقف فجأة وهو ماض بأقصى سرعته ثم التفت اليه فرأى ، وما اعجب ما رأى ! لقد قهقهه الجواد ضاحكا ! وتآلق صفان من الأسنان البيض تألقا مخيفا في الظلام ، فوقف شعر الساحر على رأسه ، واطلق صرخة مدوية وبكى بكاء من أصابه مس ، ولوى عنان جواده ميمما شطر كيف لابلوى على شيء ، وخيل اليه أنه مطارد من كل جانب ، تسعى الأشجار التي تحيط به في الغابة السوداء وتجاهد لخنقه ، وتومئ،

بلحاها السود وتمد اليه أغصانها الطويلة ، وراحت النجوم تستبق هذا الآثم وتشير اليه ، بل أخذ الطريق نفسه يطير وراءه .
وهرب الساحر اليائس لانذا بالاماكن المقدسة في كيف .

- ١٥ -

وكان ناسك من اهل الورع يجلس وحيدا في غاره وامامه مصباح صغير لا يرفع عينيه عن الكتاب المقدس ، ومضت سنوات وسنوات وانقطع عن الدنيا واخذ الى غاره ، وصنع الناسك لنفسه نعشا من الواح الخشب ينام فيه بدلا من الفراش ، واغلق العابد الصالح كتابه وراح يصلى ، واذا برجل غريب الهيئة بشع المنظر يلج عليه الغار فجأة ، وابصر الناسك الورع الرجل ، ففزغ ونكص على عقبه ، اذ وجده يرتجف من اعلى رأسه الى اخمص قدمه كورقة في مهب الريح ، وزاغت نظراته ، ومضت عيناه ببريق من الرعب ، وكان وجهه المخيف تقشمر منه الأبدان .

وصاح الرجل في يأس : « صل يا ابتاه ! صل ! صل لنفس ضالة » ، وخر على الأرض جاثيا .

ورسم الناسك الورع اشارة الصليب ، وتناول كتابه وفتحه ، ثم تراجع مذعورا ، وسقط الكتاب من يده .

« كلا ، ايها الآثم الزنيم ! فقد اغلقت من دونك ابواب الرحمة !
اغرب عنى ! فلست بقادر على ان اصلى من اجلك ! » .

فصاح الساحر مغيظا محنقا : « لست بقادر ؟ » .

« انظر ، ان حروف الكتاب المقدس تقطر دما ! وما رات الدنيا اشد اثما منك » .

« ابتاه ، انك تسخر منى ! » .

« اليك عنى ايها الآثم الملعون ! فانى لا اسخر منك ، وانما غلبنى الخوف على امرى ، وما من خير يجنيه المرء من صحبتك » .

« كلا ، كلا ، وانما انت تسخر منى - لا تنكر ! فانى ارى الابتسامة تتلألأ على شفئك ، وصفى أسنانك العتيقة يتالقان فى نصوع ! »

وانقض الساحر على الناسك الورع كالمسوس وقتله .

وانبعثت في الجو انة فطيعة تردد صداها في الغابة وفي الحقول،
وارتفعت من وراء الغابة اذرع يابسة زاوية لها مخالب طويلة ، ثم
ارتجفت وغابت عن الأنظار .

وعندئذ خلا قلب الرجل من الخوف واصبح لا يخشى شيئا ،
على انه احس بالاضطراب يعمر نفسه جميعا ، فقد احس بطنين
يدوى في اذنيه واصاب راسه دوار كأنه شرب حتى ثمل ، واظل
كل شيء غشاوة كأنها من نسيج العنكبوت ، وقفز الرجل ممتطيا
صهوة جواده ومضى الى كانيف لايلوى على شيء معتزما ان يقصد
منها راسا الى تتر القريم عن طريق تشركاس ، ولو انه لم يكن
يدري لذهابه علة ولا سببا . وقطع الرجل في رحلته يوما ، ثم
آخر ، ولم تبد كانيف للأنظار ، وكان الطريق الذي مضى فيه هو
الطريق الصحيح ، وكان خليقا بأن يبلغ هذه المدينة قبل ذلك
بوقت طويل ، ولكن لم يبد لكانيف ظل ولا اثر ، وتالقت قباب الكنائس
من بعيد .

على ان هذه المعالم لم تكن لكانيف بل لشومسك ، وذهل الساحر
اذ وجد انه التمس في رحلته طريقا آخر ابعد ما يكون عن الطريق
الصحيح ، فلوى عنان جواده متجها صوب كييف ، ولاحت له بعد
يوم مدينة اخرى ، لم تكن هي كييف بل جاليتش ، وهي قريبة من
هنغاريا ، ولكنها تبعد عن كييف اكثر مما تبعد عن شومسك وسقط
في يده فلفل راجعما ، على انه احس مرة اخرى بأنه يسير طريقه
القهقري ، وما كان لاحد ان يعرف ما يدور في اعماق الساحر ،
ولو رأى احد ما يدور في اعماقه او عرف ما يختلج في طوايا
نفسه ما ذاق في ليلة طعم النوم او اشرفت اساريره بالضحك قط
طول حياته . ولم يكن ذلك الذي تضطرب به جوانح الساحر حقدا
او رعبا او غضبا مريرا ، وانما كان شيئا لا تستطيع كلمة من الكلمات
في اية لغة من لغات الأرض التعبير عنه . لقد كان قلبه يتقصد
ويضطرم ، يود لو استطاع ان يظأ العالم كله تحت قدميه ويحمل
الأرض جميعا من كييف الى جاليتش بما فيها من ناس وحيوان
وغير ذلك ويقذف بها في اعماق البحر الأسود ، ولم يكن الفل او
انحد يدافعه الى ذلك ، وانما الذي كان يحفره اليه سبب لا يدري

من امره شيئا . وارتعدت اوصال الساحر اذ رأى جبال الكربات
وجبل كريفان الشاهق وقد غشيت قمته سحابة شهباء ، وراح
الجواد يركض بين الجبال كالريح ، وانقشعت الغيوم فجأة وظهر
الفارس قبالته بقدمه الهائلة الرهيبة .

وحاول الساحر ان يقف وشد اليه العنان ، ولكن الجواد سهل
سهيلا مخيفا واخذ يطوح معرفته ، واندفع نحو الفارس ، واحس
الساحر بأن كل ما فيه قد تجمد . واخذ الفارس الساكن يتحرك
وفتح عينيه فجأة وابصر الساحر يندفع نحوه ، فضحك ، وتردد
صدى الضحكة الهائلة في جنبات الجبال كزئير الرعد ، ودوت في
قلب الساحر فأحس لها رجفة تشيع في جميع اوصاله ، وخيل اليه
ان كائنا عظيم القدرة قدملك عليه قياده ، وراح يتحرك بين جوانحه
ويدق قلبه وعروقه دقا ! يا لها من ضحكة مخيفة تردد صداها
في طوايا نفسه !

ومد الفارس يده الباطشة ، وأمسك بالساحر ، ورفع في الهواء ،
فمات في الحال ، ثم فتح عينيه ، ولكنه كان قد قضى ، واطلت
من عينيه الجامدتين نظرة مخيفة لا تجد لها مثيلا في عين ميت ولا
في عين صاح قام من بين القبور ، وراح الساحر يقلب عينيه
الجامدتين ذات اليمين وذات الشمال فرأى الموتى يقومون مثله سواء
بسواء : من كييف ومن غاليسيا ومن جبال الكربات ! ..

وقام هؤلاء الأموات من بين القبور يعلو وجوههم الشحوب ،
تفشها صفرة شديدة ، وكل واحد منهم أطول من أخيه ، وأبرز
عظاما ، وتكاثوا على الفارس الذي كان ممسكا بفريسته البشعة .
وضحك الفارس مرة أخرى ، وقذف بالساحر في هوة ، وقفزت
الجثث جميعا الى الهوة وأنشبت أسنانها في لحم الميت ، وحاول
ميت آخر ، أطول من جميع الأموات ، وابشعهم خلقة ، ان ينهض ،
ولكنه لم يستطع ، فقد نما حجمه نموا عظيما ضرب في باطن الأرض
طولا وعرضا حتى عجز عن القيام ، ولو قد فعل لقلب جبال
الكربات وترانسيلفانيا وتركية رأسا على عقب ، وغاية ما استطاع
انه تحرك قليلا ، فزلزل الأرض جميعا واطاح بيوت عدة وسحق
قوما كثيرين ! .

وينبعث من جبال الكريات في كثير من الأحيان صوت مجلجل ما ان يبلغ سمعك حتى يخيل اليك ان الف طاحونة من طواحين الماء اخذت تمخض بدواليبها الماء مخضا . وما هذا الصوت الا صوت الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثة القى بها في الهوة المشؤمة التي لم يرها انسان ولا جرؤ مخلوق على اجتيازها . وكثيرا ما تزلزل الأرض زلزالها وتتقلب من طرف الى طرف ، ويقول العلماء : ان ذلك يرجع الى وجود جبل قريب من البحر يتصاعد منه اللهب وتتدفق الأبخرة الساخنة ، ولكن الشيوخ الذين يقيمون في هنغاريا وغاليسيا يعلمون ما لا يعلم هؤلاء ، فهم يقولون : ان العلة تكمن في هذا الميت الذي نما واستطال في جوف الأرض ، فاذا حاول ان يقوم زلزلت الأرض زلزالها .

- ١٦ -

اجتمعت زحمة من الناس حول عازف البندورة المعجوز في مدينة جلوكوف ، وراحت تنصت ساعة الى عزف هذا الرجل الأعمى ، الذي لا نظير له في العزف على البندورة وانشاد الأغاني العجيبة ، وتفنى الرجل أولا بحكم زعماء القوزاق في الأيام الخالية كما تفنى بحكم السفايداشنى والخملنتسكى . لقد كانت الأيام غير الأيام ، وكان القوزاق وقتئذ في عز مجدهم يطئون اعداءهم تحت أقدامهم ولا يجرؤ احد على السخرية منهم ، وغنى الشيخ أيضا أغاني مرحة ، واخذ يتلفت الى الجماعة كأنما عيناه تبصران ، وانطلقت أصابعه التي ثبت فيها رقائق صغيرة من العظم تتراقص على الأوتار كالذباب ، لقد بدا انها هي نفسها تشدو بالنغم ، وكان الشيوخ بفضون ابصارهم والشباب يحملقون في الغنى لايجرعون على الحديث ولو بهمس .

وقال الشيخ : « اصبروا ، ولاتشدن لكم قصة من قصص الغابرين » ، وأزداد القوم منه دنوا ، وانشد الأعمى يغنى :

« في أيام ستيفان امير ترانسيلفانيا وملك البولنديين ، كان يعيش قوزاقيان : ايفان وبترو ، واقام الفتیان معا كالأخوين ، وقال بترو

لصاحبه : اسمع يا ايفان ، فلنقتسم كل ما نحنيه من ربح ، فاذا حل بأحدنا فرح شاركه صاحبه في فرحه ، واذا ألم به حزن حزن من أجله ، واذا غنم غنيمة شاطره اياها ، واذا وقع في الأسر باع كل ما يملك يفتديه به أو القى بنفسه في الأسر معه . والحق أن القوزاقيين كانوا يفتسمان كل ما يكسبانه ، فاذا وقع في أيديهما قطع من الماشية أو الجياد أخذ كل نصيبه لا ينقص عن الآخر أو يزيد.

* * *

« وشهر الملك ستيفان الحرب على الترك ، وظل يقاتل ثلاثة أسابيع لا يستطيع لهم طردا ، وكان للترك باشا يستطيع في نفر من الانكشارية أن ينكل بكتيبة من الجند بأكملها تنكيلا ، فلما رأى الملك ستيفان ذلك نادى في الجند أن المقاتل الباسل الذي يأتيه بهذا الباشا ينفحه جائزة تساوى راتب الجيش كله . »
وقال ايفان لبترو : « لنذهبن ولنأته بالباشا يا اخي » ومضى الفتيان القوزاقيان في رحلتها ، وذهب كل منهما في طريق .

« ولم يكن لأحد أن يتكهن : اظافرا يعود بترو أم خائبا ؟ ولكن ايفان ساق الباشا الى الملك وقد طوق عنقه بحبل ، وقال الملك : « احسنت يافتى » وأمر بأن يعطى من المال ما يساوى راتب الجيش كله ومن الأرض ما يشاء ويختار ، ومن الماشية ما ترضى به نفسه ، وما أن تلقى ايفان من الملك هذه العطية حتى اقتسم المال وبترو ، فأخذ بترو نصفه ، وعز عليه أن يظفر ايفان بكل هذا التكريم من الملك وطوى صدره على رغبة في الانتقام . »

* * *

« ومضى القوزاقيان يسيران ميممين شطر الأرض التي افاءها الملك على ايفان فيما وراء جبال الكريات ، واركب ايفان ابنه على ظهر الجواد خلفه ، وشده اليه برباط ، ودهمهم الليل وهم ماضون في الطريق ، واخذت الطفل سنة من النوم ، وبدأ النعاس يداعب جفون ايفان : لا تنم ايها القوزاقى ، فان مسالك الجبل مخوفة ! ولكن جواد القوزاقى كان يعرف الطريق لا تزل قدمه ولا تتمش ، وكان بين الجبال هاوية لا يعلم مستقرها ، الذى يبلغ عمقه ما بين السماء والأرض ، إلا الله ، وكان الطريق يمر فوقها مباشرة ،

لايسير فيه الرجلان الا جنبا الى جنب ، فان كانوا ثلاثة ضاق بهم كل الضيق . واخذ الجواد يخطو في حذر وعلى ظهره القوزاقى الوستان ، وسار بترو بجواره الى جانبه ، وشاعت الرعدة فى اوصال بترو جميعا وتقطعت انفاسه من فرط السرور ، وتلفت حوله ثم دفع صاحبه الذى آخاه ، فسقط الجواد فى الهاوية وعلى ظهره القوزاقى والطفل جميعا .

« ولكن ايفان تعلق بفصن فلم يهو الى القاع الا الجواد ، واخذ يتسلق الهاوية حاملا ابنه فوق ظهره ، وما ان اشرف على حافة الهاوية حتى رفع بصره ، فرأى بترو ممسكا برمح وقد تهيأ لدفعه الى الهاوية ، فهتف : « رحماك يارب ، تمنيت ان تغض منى البصر ما حييت ولا ارى اخى يتربص لى برمح يدفنى به الى الهاوية ! اخى العزيز ! ان كان هذا نصيبى فانفذ فى رمحك ، ولكن ما ذنب هذا الطفل البريء حتى ينزل به هذا البلاء العظيم ؟ » ، فضحك بترو ودفعه بالرمح فسقط القوزاقى هو وطفله الى قاع الهاوية ، واستولى بترو على ثروته كلها ، واخذ يعيش عيشة الباشوات لا يملك احد ما يملكه من خيل حاشدة ، ولا يداينه احد فيما يقتنى من قطعان الماشية ، ثم عدا الموت على بترو .



« وما ان قضى بترو حتى دعا الله - روحى الاخوين ايفان وبترو فمثلتا بين يديه ، تقدمان الحساب ، وقال الله : « ان هذا الرجل لمجرم ائيم ، يا ايفان لسوف يمضى وقت طويل قبل ان اجد له ما يستحق من جزاء ، فاختر له انت الجزاء ! » وفكر ايفان طويلا : اى جزاء يختار ، ثم قال :

« لقد اصابنى هذا الرجل ببلاء عظيم ، وسلك مسلك يهوذا فحرم اخاه ذريته الشريفة ، وما مثل الرجل يحرم ذريته الشريفة الا كمثل حبة القمح يلقى بها فى الأرض ، فتذهب هباء ، فان هى لم تنبت عز على الناس ان يعرفوا انه قدلقى بها فى الأرض . »

« فاللهم اكتب على ذريته الا يذوق منهم احد طعم السعادة فى هذه الدنيا ، وان يكون آخرهم شر ما رأت العين من الخاطئين لا يقترب ذنبا الا تملل اجداده فى قبورهم حتى اذا ذاقوا من العذاب ما لم يذقه احد من الأحياء قاموا من قبورهم يسمعون ! اما بترو هذا الذى خان

العهد والميثاق ، فاللهم اكتب عليه ان يعجز عن القيام من قبره وان يلقى فيه اشد النكال ، فيعض الأرض كالمجنون ، ويتلوى من الألم تحت الثرى ! » .

« فاذا حان الحين ، وبلغت شرور هذا الرجل غايتها فاخرجني يا كريم على ظهر جوادى من قمة الهاوية الى اعلى قنة فى الجبال ، وابعث به الى فلقى به من تلك القنة الى اعماق الوهاد طرا وارسل اجداده جميعا من كل فج من فجاج الأرض عاشوا فيه ، واطلقهم ينشبو اسنانهم فيه جزاء مالقوا على يديه من عذاب ، ودعهم ينهشوه الى ابد الأبدين حتى ينشرح خاطرى وأنا اراه يسأم العذاب اشكالا والوانا ، واكتب على بترو ، هذا الذى خان العهد الا يقوم من قبره ، والى فى قلبه شهوة النهش ، ولينقلبن على طول الزمن حتى يزداد عذابه ، وسلط عليه من النكال ما لم يذقه احد من قبله ولا من بعده ، فما من عذاب اقسى على المرء من تعطشه الى الانتقام وقصور يده عنه »

فقال الله : « ايه ايها الانسان ، ما افظع الجزاء الذى هداك اليه عقلك ! ولتستوين الى الأبد على ظهر جوادك ، فلا تبرح المكان الذى اخترت ، ولكن ملكوت السماء قد اوصد دونك ! » وتم له ما اراد ، ولا يزال هذا الفارس الغريب مستويا على ظهر جواده الأصيل فى جبال الكريات يشاهد الموتى يفترسون الجثة فى الهاوية التى ليس لها قرار ويحس بجثة الرجل الميت تتضخم وتتضخم تحت الثرى ، وبراى وهو يقضم عظامه ، ويتمذب اشد المذاب ويزلزل الأرض زلزالا تنخلع له القلوب » .

وفى الأعمى من انشاد قصته وراح يضرب الأوتار مرة اخرى ، ويتغنى بمدائح مضحكة تدور حول فوما وبيريما وستكليار ستوكوزا ، واستبدت النشوة بمستمعيه شبابا وشيوخا فلم يفيقوا من أحلامهم ، وظلوا خشعا يتدبرون فى هذه القصة الفظيعة من قصص الأيام الخالية .

ایفان فیودوروفتش شبونکا
وخالته



ايفان فيودوروتش شبونكا وخالته

ان لهذه القصة قصة رواها لنا ستيبان ايفانوفتش كوروشكا الذى وفد علينا من جادياخ ، ولا شك انك تعلم ان ذاكرتى ضعيفة كل الضعف ، ويستوى عندى ان تقص على شيئا او لا تقص ، فهى كالغريبال تلقى فيه الماء . وقد حملنى احساسى بهذا الضعف الى ان اطلب منه عامدا ان يسجل هذه القصة فى مفكرة ، وهب الله له الصحة والعافية ، فقد كان دائما كريما معى ، وشمر ستيبان عن ساعده وسجلها ، ثم وضعها فى المنضدة الصغيرة ، وانى لاحسب انكم تعرفونها ، فهى تقوم فى الركن الذى تقع عليه اعينكم حين تدخلون من الباب ، ولكننى نسيت انكم لم تطنوا منزلى من قبل ، ولا جدوى من انكار ان زوجتى المعجوز التى عشت معها ثلاثين عاما لم تتعلم القراءة . وقد لاحظت انها تخبز الفطائر على ضرب من الورق ، وهى تجيد خبزها ايها القراء الاعزاء ، وانا زعيم بانكم لن تجدوا خيرا منها فى اى مكان . وقد اتفق لى ان نظرت الى فطيرة من تحت ، فماذا وجدت ؟ وجدت كلمات مكتوبة : فمضيت الى المنضدة كأنما هتف بى هاتف ان افعل ، فلم اجد فيها الا نصف الكتاب ! فماذا كنت اصنع ؟ اليس من الحمق ان نتشاجر فى مثل هذه السن ؟

وحدث ان كنت مارا بمدينة جادياخ فى العام الماضى ، وقبل ان ابلغ المدينة ربطت عن عمد عقدة فى مندبلى حتى لا انسى سؤال ستيبان ايفانوفتش عن القصة ، ولم يك هذا كل ما فى الامر ، فقد كنت عاهدت نفسى بالا اعطس فى المدينة الا ذكرت ما صحت عليه نيتى ، ولم يأت ذلك كله بثمره ، فقد ركبت عربة اجتزت بها المدينة وعطست ، بل مخطت ، ثم نسيت ، ولم افكر فى القصة الا بعد ان تجاوزت باب المدينة بنحو ستة فيرستات او نحوها ، وكان ما ليس منه بد ، اكرهت على طبع القصة دون الخاتمة على انه اذا شاء احدكم ان يعرف على وجه

الخصوص ما انتقطع من حوادث القصة فما عليه الا أن يقصد الى جادباخ ويسأل عن ستيبان ايفانوفتش ، ولسوف يسره ان يروى له القصة ، وأنا زعيم بأنه لن يسوءه ان يبدأ من اولها ، وهو يقيم غير بعيد من الكنيسة المشيدة بالأجر ، فالى جوار هذه الكنيسة زقاق صغير ما ان تنعطف فيه حتى تجد باب بيته هو الثانى او الثالث .

وخير من هذا وذاك إن تمضى فى طريقك حتى تجد فناء انتصب فيه قائم كبير يقوم فوقه طائر من طيور السلوى ، وتخرج منه فلاحه بدبنة فى نقبة خضراء (وجدير بنا ان نذكر أيضا ان الرجل عزب) تسعى للفتاك ، ومن يدرى ؟ لعلك تلقاه فى السوق حيث يشاهد كل صباح قبل التاسعة ينتقى السمك والخضر لمائتته ويتحدث مع الأب أنتيب او المقاول اليهودى فان رأيت عرفته لتوك ، ومن ذا الذى يلبس السروال المصنوع من الكتان الملون او السترة القطنية الصفراء سواه ؟ وقد تعرفه بشيء آخر ، فقد الف ان يطوح ذراعيه فى مسيره ، وكان دنيس بتروفتش ، مساعد القاضى الراحل ، اذا رآه قادما من بعيد قال : « أنظروا فيها هى ذى طوحونتنا مقبلة علينا ! » .

- 1 -

ايفان فيودوروفتش شبونكا

مضت أربع سنوات على اعتزال ايفان فيودوروفتش خدمة الجيش ، وجاء الرجل ليقيم فى مزرعته بفيتربينكى ، وقد التحق وهو بعد حدث يسمى فانيوشا ، بمدرسة ناحية جادباخ ، ولست أنسى انه كان غلاما جم الأدب مجدا ، وقد جرى مدرس النحو الروسى نيكيفور نيموفيتش دبيرتشا ستى (✱) ، على القول بأنه لو كان جميع الصبيان يبذلون فى الدرس قصارى جهدهم كما يفعل شبونكا ما حمل معه الى الفصل المسطرة المصنوعة من خشب الاسفندان ، وراح - على حد قوله - يضرب بها ايدى الكسالى والخبثاء من الصبية حتى كل ساعده . وكانت كراسة شبونكا نظيفة دائما مسطرة الهوامش لا تجد فى موضع منها اية بقعة وان هانت ، وجرى الغلام على أن يجلس هادئا ساكنا

(✱) ظرف مشتق من الفعل فى الروسية

مشبك الذراعين لا يحول عينيه عن المدرس ، ولم يلجأ قط الى الصاق
قصاصات الورق على ظهر الغلام الذى يجلس أمامه ، ولا انقطع عن
الصف مرة او دفع الصبية الآخرين فأخرجهم منه قبل ان يدخل
المدرس . وما أحس تلميذ بحاجة الى مبراة يصلح بها قلمه الا بادر الى
ايفان فيودوروفتش وهو عليم بأن جعبته لا تخلو منها دائماً ، فيخرج
ايفان فيودوروفتش - أو فانيوشا فحسب ، كما كان يلقب في ذلك
الحين - مطوانه من صندوق جلدى صغير مثبت في عروة من عرى
سترته الرمادية ، ولا يطلب من السائل الا شيئاً واحداً هو الا يستعمل
الحد المرهف لحك القلم منبها اياه ان ثمة حداً مثلوما جعل له هذا
الغرض . وسرعان ما استرعى هذا المسلك الحميد نظر مدرس اللاتينية
الذى كان سعاله فى الدهليز خليقاً بأن يلقى الرعب فى قلوب تلاميذ
الفصل كله ، قبل ان تطل من الباب سترته المصنوعة من الصوف
الخشن ووجهه الجذور . وقد بادر هذا المدرس المخيف ، الذى ألف
ان يحتفظ دائماً بحزمتين من المقارع على مكتبه ويسوق نصف تلاميذه
الى الجثو على ركبهم ، فاتخذ من ايفان فيودوروفتش عريفاً للفصل ،
على الرغم من ان كثيراً من تلاميذ الفصل كانوا يفوقونه قدرة وكفاية .

أما وقد بلغت فى رواية القصة هذا الحد فليس يجدر بى ان أغفل
حادثة اثرت فى مستقبل ايامه كلها ، فقد حاول أحد الصبية الذين
وكل اليه الاشراف عليهم ان يحمل العريف على احسان الشهادة فيه
بالرغم من انه لم يكن قد حفظ درسه ، فأتى الى الفصل بكعكة غارقة
فى الزبد ملفوفة بالورق ، وكان ايفان فيودوروفتش حريصاً على أداء
الواجب فى معظم الأحيان ، الا أنه كان هذه المرة جائعاً ، فعجز عن
مقاومة الاغراء ، واخذ الكعكة وامسك بكتاب رفعه امام وجهه وراح
يأكل ، وشغل باله بهذا الامر ، وفاته ان الفصل قد خيم عليه سكون
رهيب أشبه بسكون القبور ، ولم يبق الى نفسه مروع اللب فرعاً الا
حينما امتدت يد من معطف من الصوف الخشن وامسكت به من
أذنه وجرتة الى وسط الغرفة ، وقال المعلم المخيف : « الى بهذه
الكعكة ! الى بها ، الا تسمع ؟ اعطيتها ايها الوغد ! » .

وامسك بالكعكة الفارقة فى الزبد بين اصابعه ، وألقى بها من
النافذة ناهياً الصبية فى حزم الا يلحقوا بها سراعاً يلتمسونها فى الغناء ،

ثم أخذ يضرب ايفان فيودوروفتش ضربا ليما موجعا على يديه ، وكان في ذلك محقا كل الحق ، فقد كانت اليدان دون سواهما من أعضاء جسمه المسئولين عن أخذ الكعكة ومهما يكن من شيء فان الحياء الذي عرف به دائما أخذ يزداد ملحوظة منذ ذلك الحين ، ولعل هذا السبب نفسه هو الذي جعله لا يشعر ابدا بالرغبة في الالتحاق بخدمة الحكومة ، فقد علمته الأيام أن المرء لا يفلح دائما في اخفاء مساويه .

وكان الفتى قد اشرف على الخامسة عشرة من عمره عندما انتقل الى السنة الثانية ، فترك قواعد الحساب الأربع ودرس الدين ، ودخل في المسائل المطولة وكتاب واجبات الانسان والكسور ، ولكنه رأى ، كما يقولون ، انه كلما اوغل في الغابة ازدادت كثافة . وتلقى نبأ بأن اياه قد فارق الحياة ، فلم يبق في المدرسة الا سنتين آخرين ، ثم التحق بفرقة المشاة برضاء امه .

ولم تكن هذه الفرقة قط من الطبقة التي ينتمى اليها كثير من فرق المشاة ، وكانت تعسكر في اماكن ريفية ، الا أنها لم تكن تقل قط عن كثير من فرق الفرسان . وكان معظم الضباط يشربون الكحول صرفا ، ويجيدون جر اليهود من خصللات شعرهم اجادة الفرسان لذلك ، وكان بعضهم يرقص المازوركا ايضا ، ولم يترك قائد الفرقة فرصة الا انتهزها وذكر هذه الحقيقة اذا تحدث مع أى انسان من علية القوم ، وكان يقول وهو يربت على بطنه بعد كل كلمة : « ان بعض ضباطي يرقصون المازوركا ، بل ان عدد من يرقصونها منهم كبير ، كبيرا جدا » ، ولو شئنا ان نبين لقرائنا مبلغ ما وصلت اليه الفرقة من ثقافة لتعين علينا ان نذكر فوق ما ذكرنا ان اثنين من الضباط كانا مفرمين بلعب الورق . وقد الفا ان يقامرا بسترتهما الرسمية وقبعتهما وحمالتي سيفيهما بل بملابسهما الداخلية ، وهذا اكثر ما يمكن ان تجد في فرقة من فرق الخيالة نفسها .

على ان اتصال ايفان بمثل هؤلاء الزملاء لم يخفف من حيائه ، اما وقد كان لا يشرب الكحول صرفا ، مؤثرا عليه احتساء قدح مملوء بالفودكا المألوفة قبل الغذاء والعشاء ، ولا يرقص المازوركا او يلعب الورق ، فقد الف بطبيعة الحال ان ينفرد بنفسه دائما ، وهكذا كان يتفق ان يخرج بقية زملائه يمتطون ظهور جياد استاجروها ويمضون

وقته في شئون لا تطيب الا لئله من ذوى الخلق الرضى والنفوس
لريارة اصحاب الاراضى الصغار ، على حين يخلد ايفان الى داره وينفق
الوادعة ، ويروح يصقل ازراه او يقرأ كتابا من كتب الطوالع ، او
ينصب الفخاخ للفيران في اركان غرفته او يخلع سترته الرسمية
ويستلقى على فراشه .

زد على انه لم يكن في الفرقة احد اكثر مواظبة على اداء واجباته من
ايفان فيودوروفتش ، وكان يحسن تدريب فصيلته حتى ان قائد سريره
كان يعده دائما مثالا يود لو احتذاه بقية زملائه ، ولذلك لم يمض عليه
وقت طويل ، اجل لم يمض على ترفيته الى رتبة الصول الا احد عشر
عاما فقط ، حتى رقى الى رتبة الملازم الثانى .

وتلقى في هذه الاثناء انباء تقول : ان امه قد ماتت وان خالته - ولم
يكن يعرفها الا مما سمع به من انها نشاته وهو بعد طفل ، وانها ارسلت
له وهو فى جادياخ الكمشرى الجافة وكعك الشهد اللذيذ الشهى الذى
كانت تصنعه بنفسها (وكانت على علاقة سيئة بامه ، وهذا هو السبب
في ان ايفان فيودوروفتش لم يرها فى السنوات الاخيرة) - اجل خالته
هذه قد تمهدت ، بما جبلت عليه من طيبة النفس ، بالسهر على ضعته ،
وبعثت اليه في حينه خطابا تنبئه بذلك .

ومضى ايفان فيودوروفتش في اداء واجبات وظيفته كشأنه وانما
كل الثقة بحسن ادراك خالته . ولو كان ايفان كبعض الرجال الآخرين
الذين هم في مثل مركزه لادارت عقله هذه الترقية . على انه كان
لا يعرف للاختيال والزهو معنى ولا طعما ، فقد ظل في رتبة الملازم
الثانى كما كان فى رتبة الصول هو هو ايفان لم يتغير ولم يتبدل ،
وقضى اربع سنوات اخرى فى الفرقة بعد ذلك الحادث الذى كان له
شأن عظيم فى حياته ، وما هم بالنزوح هو وفرقتهم من ولاية موجيليوف
الى روسيا العظمى حتى تلقى الخطاب التالى :

« ابن اختى العزيز ايفان فيودوروفتش :

انى لابعث اليك بشيء من نسيج الكتان ، خمسة جوارب مشغولة
بالابرة وأربعة قمصان من الكتان الهفهاف ، ثم انى اريد ان اتحدث
اليك فى امر ذى بال ، اما وقد نلت رتبة لها شأنها - وانى لاحسب
انك تعى هذا وتدركه - وبلغت سنا تؤهلك الى تولى شئون مزرعتك

بنفسك ، فما من سبب يدعوك الى البقاء في الخدمة العسكرية ، واني
لاشعر بأن السن قد تقدمت بي حتى أصبحت عاجزة عن القيام بأمر من
امور مزرعتك ، ولدى والحق يقال ، امور كثيرة اود ان اتحدث بشأنها
معك شخصيا .

« تعال يا فانيوشا ! واني اذ اتطلع ببالغ السرور الى رؤيتك لابعث
اليك بخلص تحياتي ،

خالتك الودود المحبة

(فاسيليا تسوبشفسكا)

حاشية : في حديقة خضرنا لفت عجيب ، يبدو للانظار على ما فيه
من غرابة غريبة اقرب الى البطاطس منه الى اللفت .

وكتب ايغان فيودوروفتش الى خالته ، بعد تلقية خطابها هذا
بأسبوع ، الرد التالي :

« سيدتي المحترمة الخالة العزيزة فاسيليا كاشبوروفنا : اشكرك
كل الشكر على ما بعثت الي من منسوج الكتان ، فقد كان الدهر قد اكل
وشرب على جواربي خاصة ، وراح الجندي المعين لخدمتي يرفوها مرة
في اثر مرة ، فما ان اتم المرة الرابعة حتى ضاقت على كل الضيق ،
اما آراؤك التي ابديتها بشأن خدمتي في الجيش فاني اوافقك عليها
كل الموافقة ، وقد ارسلت اول امسر اوراق اعفائي . وما ان اتلقى
امرا باعفائي حتى ابادر باستئجار عربة . واما ما كلفتنى اياه من
الحصول على قمح من السلالة السيبيرية فقد عجزت عن اجابتك الى
طلبك ، وليس في ولاية موجيليوف كلها شيء من هذه البذور ، واما
الخنازير التي هنا فكلها يتغذى على كسب مصانع الجعة وقليل من
الجعة التي يفسد طعمها .

وارجو ان تقبلي يا سيدتي الجليلة والخالة العزيزة عظيم احترامي ،

ابن اختك

(ايغان شبونكا)

وتلقى ايغان فيودوروفتش اخيرا الامر باعفائه من خدمة الجيش
برتبة الملازم ، فاستأجر يهوديا ينقله بعربته من موجيليوف الى جادياخ
ونقده اربعين روبلا ، ومضى في رحلته حين اكتست الأشجار بأوراق

قليلة غضة ، وتأتق اديم الأرض بالخضرة اليانعة وعبقت الحقول بعبير الربيع .

- ٢ -

الرحلة

ولم يقع خلال الرحلة شيء ذو بال ، ومضى الرجلان في رحلتها اياما تزيد قليلا على اسبوعين ، وقد كان ايفان فيودوروفتش خليقا بأن يبلغ مقصوده في زمن أقصر من ذلك قليلا ، لولا أن اليهودي كان يقيم السبت من كل اسبوع ، فيطرح على رأسه غطاء جواده ويخلد الى التعبد طوال اليوم . على ان ايفان فيودوروفتش كان ، على ما واتتني الفرصة وذكرت من قبل ، رجلا لا يستسلم للملالة او السأم ، فاذا حل به وقت كمثل هذا الوقت ، فتح صندوق ثيابه وأخرج ملابسه الداخلية وراح يفتش فيها جيدا حتى يطمئن باله الى انهاغسلت وطويت على الوجه الأكمل ، وينزع الزغب في عناية من حلته العسكرية الجديدة التي خلعت في صنعها من الشريط المقصب يعلو كتفها ، ثم يعود فيطوى هذا كله في الصندوق على احسن وجه ممكن . ولم يكن صاحبنا مغرما بالقراءة ، فاذا اتفق ونظر في كتاب من كتب الطوالع فانما يفعل ذلك لانه يريد ان يعود الى قراءة ما قرأه من قبل عدة مرات، وهذا هو شأن الرجل الذي يقيم في المدينة يذهب الى النادى كل يوم لا يسمع جديدا ، بل ليلقى اصدقاء الف ان يجاذبهم اطراف الحديث منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، وشأن الكاتب في دواوين الحكومة يقرأ دليل المناوين عدة مرات في اليوم مفتطبا اشد الاغتباط لا لشيء الا ما تعود عليه من قوائم الاسماء المطبوعة من تسلية ، ويغمغم بينه وبين نفسه ، قائلا : « آه ! ايفان جافريلوفتش ... الخ ! ، وها هو ذا اسمي مثبتا هنا ! وى ! وى ! » ، ثم يعود فيقرأ القائمة مرة اخرى مبديا ما سبق ان ابداه من علامات التعجب بلا خلاف .

وبلغ ايفان فيودوروفتش يوم جمعة قرية صغيرة على مسيرة مائة فيرست من جادياخ ، يعسد ان أنفق في رحلته اسبوعين ، وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل حين وصل هو واليهودي والعربة الى احد الخانات .

ولم يكن الخان يختلف فى شيء عن غيره من الخانات القروية المألوفة فى القرية ، وقد جرى أرباب هذه الخانات على أكرام المسافر أكراما لا مزيد عليه ، فيقدمون له الدريس والشوفان كأنه جواد من جواد المراحل ، فإذا أراد أن يصيب من الغذاء ما يصيب القوم من أهل الوقار والاحترام فما عليه إلا أن يرد شهيته حتى يتهيأ له ذلك فى فرصة مقبلة . وكان إيفان فيودوروفتش يعلم كل هذا ، فتزود مقدما بحزمتين من حلقات الخبز وحلقة من المقاتق وطلب قدحا من الفودكا التى لا يخلو منها أى خان ، وراح يتناول عشائه فجلس على أريكة ، وضعت أمامها منضدة من السنديان ثبتت فى اديم الأرض الصلصالية تشبثا مكيئا .

وطرقت أذنيه فى هذه الأثناء قرعة عربية ، وسمع صرير الأبواب ، ومضى وقت طويل قبل أن تدخل العربية الفناء ، وانطلق فى الجو صوت مجلجل طفق ينهر صاحبة الخان المجوز . وسمع إيفان فيودوروفتش شخصا يهتف بها قائلا : « لادخلن خانك ، فإذا عضتني فيه قطعة واحدة فقسما بالله لأضربنك ، أجل لأضربنك أيتها الساحرة الشمطاء ! ولن أعطيك مقابل الدريس ! » .

وانفتح الباب بعد لحظة وولجه ، أو قل حشر نفسه فيه حشرا ، رجل بدين يرتدى سترة رسمية خضراء ، وقد ثبت رأسه لا يريم فوق عنقه القصير الذى بدا للأنظار أغلظ وأفحل بفضل ما علاه من ذقن مزدوج ، وكان مظهر الرجل يدل على أنه من ذلك الطراز من الناس الذين يحفلون بتوافه الأمور والذين سارت حياتهم كلها سيرا رقيقا رضيا .

ورأى الرجل إيفان فيودوروفتش فقال : « أسعد الله يومك يا سيدى ! » .

وانحنى إيفان فيودوروفتش فى صمت .

ومضى الوافد الجديد يقول : « هل لى ان أسأل من ذا الذى أتيج لى شرف التحدث إليه ؟ » .

وما أن سمع إيفان فيودوروفتش قوله حتى نهض على كره منه ووقف وقفة انتباه كشأنه إذا وجه إليه قائد الفرقة سؤالا ، وأجابه قائلا :

« الملازم التقاعد فيودوروفتش شبوتكا » .

« افلا تسمح لي بأن أسأل أي مكان تقصد ؟ » .

« مزرعتي في فيتربنكي » .

وهتف السائل اللفظ « فيتربنكي ! » ، ثم أردف وهو يتجه إليه ملوحاً بذراعيه كأنما يقف في سبيله أحد أو يشق طريقه شقاً في زحمة الناس : « اسمح لي يا سيدي ، اسمح لي ! » وأقبل على أيمنان فيودوروفتش وطوقه بذراعيه ، ثم طبع قبلة على خده الأيمن وقبله على خده الأيسر ، ثم عاد وطبع قبلة ثالثة على خده الأيمن . وسر أيمنان فيودوروفتش كثيراً بهذه التحيّة لأن خدى الغريب المثلثتين كانا لشفتيه كالوسادتين الناعميتين .

واسترسل الرجل البدن يقول : « اسمح لي ان أقدم نفسي يا سيدي ! فانا جارك وأحد أصحاب الأراضى فى ناحية جادياخ نفسها ، أقيم فى قرية خورتشه ، والمسافة بينها وبين فيتربنكى لا تتجاوز خمسة فيرستات ، واسمى جريجورى جريجوريفتش ستورثسينكو ، وقد حقت عليك زيارتى ، فى خورتشه ، ولن أعود الى التحدث اليك ان لم تفعل ، وانى لفى عجلة من أمرى الآن ادبر شأننا من شئون عملى » ، ثم مضى يقول فى صوت رقيق مخاطباً سائس خيوله : « وى ! ما هذا ؟ » ، وكان هذا السائس غلاما يرتدى سترة قوزاقية رتقت عند المرفقين وتبدت الحيرة على ملامحه ، ثم ولج الرجل الغرفة ووضع الحقائق والصناديق على المائدة ، وأردف : « ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » وأخذ صوت جريجورى جريجوريفتش يزداد تهديداً ووعيدا وهو يقول : « اوقد قلت لك ان تضعها هنا ايها الغلام الطيب ؟ اوقد قلت لك ان تضعها هنا ايها الوغد ؟ او لم أقل لك ان تسخن الدجاج اولاً ايها اللثيم ؟ » ، ثم صاح وهو يدق الأرض بقدمه « اغرب عنى ! بل صبراً يا وجه القرد ! أين السلة التى وضعت فيها القناني ؟ » ، وقال وهو يسكب قدحا من الشراب الحلو : « ايمنان فيودوروفتش ! هلا تصيب شيئاً من هذا الشراب المنعش ! » .

وأنشأ أيمنان فيودوروفتش يقول فى تردد : « آه ، لا أستطيع ذلك حقاً - فقد سبق لي أن » .

ورفع صاحب الأرض صوته قائلاً : « لن أقبل عذراً ! لن أقبل ! ولست بمعاهد مكاني حتى تصيب من الشراب شيئاً ! » .

ورأى ايفان فيودوروفتش ان الاعتذار من ذلك مستحيل ، فجرع القدح فى شىء من الرضا .

وقال جريجوريفتش وهو يقطع دجاجة ويضـمها فى صندوق خشبى : « هذه دجاجة يا سيدى ، ولا أخفيك ان طاهيتى يافدوخا مفرمة بأن تصيب من الخمر من حين الى حين قطرة فقطرة ، فاذا وقعت على شىء فما أكثر ما يحف بين يديها » ، ثم انقلب الى الغلام الذى يرتدى السترة القوزاقية وكان يحمل فراشا ووسائد من الريش ، وهتف قائلا : « ايه يا غلام ! اسط فراشى على الأرض فى وسط الغرفة ! ولا تنس أن تضع قدرا مليحا من القش تحت الوسادة ! وانزع قطعة من القنب من مغزل المرأة اسد بها اذنى اثناء الليل ، ولا اخفيك يا سيدى اننى الفت ان اسد اذنى بالليل منذ ان وقمت لى تلك الحادثة الملعونة التى تسلل فيها صرصور الى اذنى اليسرى فى خان روسى . ان اصحاب اللهى المسترسلة لقسوم تهوشت عقولهم على ما تبينت بعد ، فحتى المرق يحتسونه والصراصر تجرى فيه ! وهيات ان اصف لك ما حل بى من هذا الصرصور ، فقد احسست فى اذنى بدغدغة ، دغدغة شديدة ، كدت أفقد معها عقلى ، وقد شفنتى عجوز ساذجة من ناحيتنا ، أفلا تعلم كيف فعلت عذا ؟ لقد سحرتة سحرا فبرز لها ، ولم يقتض منها ذلك الا الهمس ، والهمس فحسب ، فما قولك يا سيدى فى الأطباء ؟ انى لاحسب أنهم يخدعوننا ويسخرون منا ، وقد تعرف عجوز من النساء فى بعض الاحيان ما لا يعرف كل هؤلاء الأطباء عشر معشاره ! » .

« لعمرى ان ما تقول يا سيدى لهو عين الحق ، وما من ريب فى ان ثمة حالات ... » ثم أمسك ايفان كأنما عجز عن التماس الكلام المناسب .

وقد يكون لنا بعض العذر اذا ذكرنا فى هذا المقام ان ايفان لم يكن قط يميل الى كثرة الكلام ، ولعل ذلك يعود الى حياته او رغبته فى التعبير عما يريد بأسلوب طلى شائق .

وهتف جريجوريفتش لخادمه : « هز القش جيدا ، هزه جيدا ! ان القش فى هذا الخان غاية فى الرداءة ، وليس ببعيد ان تجد فيه علوجا فى اية لحظة . اسمح لى يا سيدى بأن أرجو لك ليلة طيبة !

فاننا لن نلتقى غدا ، فقد عزمت على الرحيل قبل بزوغ الفجر ، ان غدا السبب ولسوف يخلد فيه صاحبك اليهودى الى العبادة، وما من حاجة تدعوك الى الاستيقاظ مبكرا . لا تنس دعوتى ، ولن يخاطب لسانى لسانك الا اذا اتيت لزيارتى فى خورتشه .

وما ان فرغ جريجورى جريجورييفتش من قوله حتى بادر غلامه ، فخلع سترة سيده وحذاءه المرتفع والبسه منامته ، وتمدد جريجورى جريجورييفتش على فراشه فبدا كفراش ضخم من الريش القى به على فراش آخر .

« ايه يا غلام ! اين انت ايها الوغد ؟ تعال هنا ررتب لحافى ايه يا غلام ! ضع شيئا من القش تحت راسى حتى يرتفع ! او سقيت النجياذ او لم تسقها بعد ؟ زدنى قشا ! هنا ، تحت هذا الجانب ! ورتب اللحاف جيدا ايها الوغد ! احسنت وأكثر من هذا ، اف ! » .

وتنهذ جريجورى جريجورييفتش مرتين ثم اطلق من أنفه صغيرا مزعجا ملاء أرجاء الغرفة ، وكان فى بعض الاحيان يفظ غطيظا عاليا تستيقظ له المعجوز فجأة من غفوتها على اريكة الموقد ، ثم تحملق حولها فى دهشة ، فلا ترى شيئا ، فيهدا بالها ثم تستسلم للنوم مرة اخرى .

واستيقظ ايفان فيودوروفتش فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد صاحب الأرض البدين قد رحل ، وكان هذا الحادث هو الحادث الوحيد الجدير بالذكر فيما وقع لبطل قصتنا أثناء رحلته . واقترب ايفان بعد يومين من مزرعته الصغيرة .

واحس بقلبه يجيش عندما اطلت عليه الطاحونة ملوحة بأذرعها ، وراح اليهودى يسوق جواده الهرمة مصعدا فى التل ، ولاح لعين ايفان ذلك الصف من شجر الدلب يربض تحت الطاحونة ، وتألقت البركة تالقا من خلال الاشجار ، وهب منها نسيم عليل ، وهناك الف ايفان ان يستحم فى سابق ابامه ويخوض فيها مع اولاد الفلاحين حتى يبلغ الماء عنقه سعيا وراء الاربيان (الجمبرى) ، وارتقت العربة الجسر فرأى ايفان فيودوروفتش البيت العتيق الصغير المسقف بالقصب، واشجار التفاح والكرز التى كان يتسلقها خفية ، وما ان دخل بالعربة الغناء حتى هرعت الكلاب من كل حذب وصوب على اختلاف الوانها

من عسلى الى اسود ورمادى ومنقط ، وجرى بعضها تحت حوافر الجواد ينبج ، وجرى بعضها الآخر خلف العربة بعد ان اكتشفت ان الدنجل قد لطح بدهن الخنزير . وكان واحد من الكلاب يقف بالقرب من المطبخ واضعا قدمه على قطعة من العظم فأطلق نباحا متصلا مدويا ، واخرج كلب آخر لسانه عن بعد ، وراح يركض هنا وهناك ، ويهز ذيله كأنه يقول : « انظروا ايها المسيحيون الصالحون! اى فتى ظريف انا ! » ، واسرع صبية يرتدون القمصان القذرة يتفرون في وجوه القادمين ، وكان بالفناء خنزيرة تتجول هي وصفارها الستة عشر ، فرفعت خطمها في فضول ، واخذت تقبع قساعا اعلى مما الفت ، وفرش على اديم الفناء عدد من الملاءات المصنوعة من القنب تغطت بالقمح والاذرة والشعير تجفف في الشمس ، وبسطت فوق السقف انواع مختلفة كثيرة من الاعشاب ، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير ، حتى تجف .

وشغل بال ايفان فيودوروفتش بالتأمل في هذا كله ، ولم يفق من سباته الا عندما عض كلب ارقط اليهودى في بطن ساقه وهو يترجل عن مقعده في العربة ، وهرعت الخاديات ، ونعنى بهن الطاهية وامرأة اخرى وفتاتين كانتا ترتديان ثقتين مصنوعتين من الصوف ، وهتفن : « وى ! انه سيدنا الصغير ! ، ثم رحن يحدننه قائلات : ان خالته تبذر بذور الحنطة الحلوة هي والفتاة بالاشكا واوميلكو الحوذى الذى كان يعمل في كثير من الاحيان عمل البستانى والحارس جميعا » على ان خالته اقبلت اذ رات العربة عن بعد ، وانتاب الدهول ايفان فيودوروفتش حين رفعته خالته عن الارض بين ذراعها او كادت ، وعز عليه ان يصدق انها هي الخالة التى كتبت له متحدثة عن شيخوختها واسقامها .

- ٣ -

الخالة العزيزة

كانت الخالة فاسيليا كاشبوروفنا قد بلغت في ذلك الوقت الخمسين من عمرها او كادت ، ولم يسبق لها زواج قط ، فقد

جرت على القول بأن العذرية عندها فوق كل شيء آخر . على اننى اذكر حقا انه لم يغازلها احد ، ذلك انه ما من رجل الا احس في حضرتها بشيء من الحياء ، ولم يجد واحد منهم من الشجاعة ما يحمله على ان يطلب يدها ، وقد اجمع الشبان كافة على القول : « بأن فاسيليا كاشبورونفا فتاة على خلق عظيم ! » وكانوا في ذلك صادقين اعظم الصديق ، فما من احد الا وقع في قبضة يدها ، ولا ادل على ذلك من انها ظلت تجذب كل يوم بيديها اللتين تشبهان ايدي الرجال قنزعة صاحب الطاحونة السكر ، حتى استطاعت ان تجعل من هذا الشخص التافه رجلا جم الفضائل كامل الصفات . وقد رزقت هذه الخالة بسطة في الجسم فبدت كالعمالقة او هي اقرب ، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان كل المناسبة قوامها الفارع ، ويظهر ان القدر اخطأ خطأ جسيما اذ كتب عليها ان ترتدى رداء بنيا داكنا قصر الاهداب في ايام الراحة ، وشالا من الكشمير الاحمر فى احد الفصح وفي عيد شفيمةا .

وقد كان اولى بها وانسب ان تصطنع شاربا كشارب التنين وحذاء مرتفعا كأحذية الرجال ، ثم ان مشاغلها كانت تتفق مع مظهرها تمام الاتفاق ، فقد كانت تتولى التجديف فى القارب بنفسها ، وتجيدته اجادة تزرى باى صياد ، وتصيد الطيور والوحوش ، وتشرف على عمال الحصاد فى اثناء ادائهم عملهم ، وتعرف عدد البطيخ الذى فى حديقة خضرها ، وتأخذ اتاوة قدرها خمسة كوبيكات عن كل عربة تجتاز جسرهما ، وتتسلق الاشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى ، وتضرب العمال الكسالى بيدها المخيفة ، وتمد هذه اليد المربعة نفسها بقدم من الفودكا لمن يستحقونه .

وكانت فى هذه اللحظة نفسها تقريبا تنهر العمال وتصيح قطع النسيج وتهرع الى المطبخ لصنع الجمعة الخفيفة والمربى بالشهد . اجل لقد كانت مشغولة اليوم بطوله ، وافلحت فى ان يتم انجاز كل امر فى موعده ، وكان من اثر عملها هذا ان مزرعة ايفان فيودوروفتش الصغيرة التى كانت تضم ثمانى عشر نفسا بحسب التعداد الاخير ، قد ازدهرت ازدهارا لا مزيد عليه ، ثم انها كانت تحب ابن اختها جبا جما ، وراحت تجمع له المال فى حرص وعناية .

وتغيرت حياة ايغان فيودوروفتش كل التغيير منذ وصوله الى دياره ، واتخذت وجهة جديدة تختلف تماما عما كانت عليه والظاهر انه كان قد فطر بالذات على تولى امور مزرعة تضم ثمانى عشرة نفسا ، ولاحظت الخالة العزيزة نفسها انه سوف يفدو زارعا ممتازا ، وان كانت لم تسمح له بعد بالتدخل فى كل شأن من شؤون الادارة فى المزرعة ، فقد ألفت ان تقول « انه لا يزال طفلا ، فانى له ان يعرف كل امر من امورها ؟ » وكان ذلك بالرغم من ان ايغان فيودوروفتش كان وايم الحق قد اشرف على الاربعين .

على انه كان يشاهد دائما فى الحقول بين الحصادين ، ولشد ما كان قلبه يفيض بالسرور اذ يرى اثنى عشر منجلا متألعا او أكثر وهى تحصد الارض حصدا فى تناسق وانسجام ، ويسمع صوت العشب يتساقط فى حشات متساويات ، واناشيد الحصادين تنطلق بين الفينة والفينة ، فتارة تكون مستبشرة متهللة تهلل المرء يلقى ضيفا ، وتارة تكون محزنة حزن الاحباب عند الفراق ، وينعم بهداة الليل المشرق الصافي ! ... ويا له من ليل ! ويا له من جو طلق عذب ! وما اروغ الحياة تدب فى كل شيء فيتوهج الشهب ، ثم يستحيل أزرق داكنا ثم يتألق مزدهيا بحلته المتعددة الالوان ، وتنطلق السلوى والحبارى والنورس والجنذب وآلاف من الحشرات تصفر وتطن وتفرد وتتنادى ، ثم لا تلبث أن تمتزج هذه الأصوات جميعا فى نغم واحد متسق .

أجل لقد كان كل شيء يستجيب لداعى الحياة لا يخلد الى السكون ابدا . ثم غربت الشمس فى هذه الاثناء ، آه ، ما كان أعذب الجو وأبهجه ! فقد كان القوم يقيمون نارا هنا وهناك فى الحقول ، ويضعوا فوقها القدور الكبيرة ، ويحيط بها الحصادون ذوو الشوارب ، وينبعث البخار من لقيمات القاضى صاعدا فى الهواء ، وينطفئ وهج الفسق شيئا فشيئا .. وما أشق ان يتبين المرء ما يجيش فى نفس ايغان فيودوروفتش فى مثل هذه الأوقات ، فقد لحق الرجل بالحصادين ونسى ان يتذوق لقيمات القاضى مع فوط جبه لها ، ووقف بلا حراك ، يرقب نورسا بهبط من السماء بعيدا عن الانتظار او يمد حزم القمح التى انتشرت فى الحقول .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أخذت الألسنة تلهج بأن
ايغان فيودوروفتش زارع عظيم ، ولم تكن الخالة العزيزة لتعلم من
أظهار فرحها بابن اختها ، لا تترك فرصة ألا زهت به وتفاخرت ،
وأخذت فاسيليا كاشوروفنا بذراع ايغان فيودوروفتش ذات يوم
- وكان ذلك قبيل نهاية الحصاد ، أى فى أواخر يوليو - ولم
تفصح عما يدور فى نفسها ، وقالت انها تريد التحدث اليه فى أمر
طال بها التفكير فيه .

ثم انشأت تقول : « انك لمدرک ياعزيزى ايغان فيودوروفتش ان
ثمانية عشر شخصا يعيشون فى مزرعتك وهم فى واقع الأمر يزيدون
على ذلك وان كان هذا هو العدد الذى رصد حقا فى سجلات التعداد
الأخر ، ومن يدري ؟ لعل عددهم أربعة وعشرون شخصا ، ولكن
ليس هذا بيت القصيد . انك لتعرف الحرجة التى فيما وراء
مزرعتنا ، ولاشك انك تعرف المرج الفسيح الذى خلفها ، فهو يشتمل
على خمسة وخمسين فدانا أو نحوها ، وعشبه من الجودة بحيث
يدر مائة روبل فى السنة ، وخاصة اذا صح ما يقولون : من ان
فرقة للفرسان ستعسكر فى جاديخ » .

« أعرف هذا بلا ريب ابنتها الخالة العزيزة ! ان عشبه غاية فى
الجودة » .

« ما من حاجة تدعوك الى القول بأن عشبه غاية فى الجودة فانى
اعلم هذا ، ولكن انعلم ان هذه الأرض كلها ملكك شرعا ؟ وى !
ما بالك تحمق فى هكذا ؟ استمع الى يا ايغان فيودوروفتش ! أتذكر
ستييان كوزميتش ؟ ولكن كيف بى أوجه اليك مثل هذا السؤال
وقد كنت وقتئذ أصغر من ان تستطيع النطق باسمه ؟ أجل لقد
كنت صغيرا حقا ! ذلك اننى جئت اليكم ليلة صيام عيد الميلاد
بالذات وحملتك بين ذراعى ، فكذت تلتف ثوبى ، ومن حسن التوفيق
اننى بادرت فأسلمتك فى اللحظة المناسبة الى مربيتهك ماتريونا ،
وى ! لقد كنت آتئذ طفلا لا تطاق ! ولكن ليس هذا بيت القصيد
ذلك ان الأرض التى وراء مزرعتنا وقرية خوريتشه نفسها كانت
مملوكة لستييان كوزميتش ، ولا أخفيك انه كان قد الف ان يزور
امك قبل ان تكتحل عينك برؤية هذه الدنيا ، على انه كان ، وأيم

الحق لا يفعل ذلك الا حين يكون ابوك خارج الدار ، ولست اقول هذا قدحا فيها - رحمة الله عليها ! - ولو أن المسكينة كانت تسوء الى دائما ، ولكن ليس هذا بيت القصيد، ذلك ان ستيبان كوزميتش قد وهب لك الأرض التي احذثك عنها بمقتضى وثيقة رسمية ، بيد ان امك رحمة الله عليها - وليبق ما اقول سرا بيني وبينك - كانت امرأة غريبة الأطوار الى حد عجيب ، لا يستطيع الشيطان نفسه - وليغفر الله لى هذه الكلمة القبيحة - ان ينتزع من صدرها ما تخفيه ، اما ما فعلت بالوثيقة فعلم ذلك عند ربى ، ولاريب انها فى حوزة ذلك العزب المعجوز جريجورى جريجوريفتش ستورتشكو ، فقد استولى عليها هذا الوغد البطين الذى يحاكى كرشه القدر فى انتفاخه ، وانى لأراهنك بما تريد على انه قد أخفى تلك الوثيقة » .

« أفلا تسمحين لى بسؤال ابنتها الخالة العزيزة ؟ اليس هو ستورتشكو بعينه الذى تعرفت به فى الخان ؟ »

وأخذ ابغان فيودوروفتش يصف لها لقاءه بستورتشكو وفكرت خالته لحظة ثم قالت : « من يدرى ؟ لعله بعيد عن الشر ، صحيح انه لم يقم بين ظهرانينا الا منذ ستة اشهر ، الا أنك لا تستطيع ان تخبر انسانا فى وقت وجيز كهذا ، ان تلك السيدة المعجوز امرأة راجحة العقل فيما بلغنى ، فهى تجيد تحليل الخيار ، وعندها اماء يصنعن طنافس بديعة . اما وقد رحب بك الرجل اجمل ترحيب فان الواجب يقتضيك ان تذهب لزيارته ، ولعل هذا الاثم المعجوز يستجيب لنداء ضميره ، فينزل عما ليس يملك ، ولتستقل العربية ان شئت ، ولو ان الاطفال الملاعين قد نزعوا المسامير التى فى ظهرها، ولأمرن الحوذى اوميلكو بأن يحسن تثبيت الجلد بالمسامير فى كل مكان منها »

« لاداعى لهذا ابنتها الخالة العزيزة ، فلسوف استقل العربية الصغيرة التى تخرجين بها احيانا طلبا للصيد » .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

الفذاء

وبلغ ايفان فيودوروفتش قرية خوريتشه في موعد الغذاء تقريبا، وأحس بشيء من الاستحياء وهو يقترب من منزل صاحب الضيعة . وكان منزلا مستطيلا لم يسقف بالقصب كغيره من منازل اصحاب الأراضي المجاورة ، بل سقف بالخشب ، وقد قام في فناءه مخزنان للحبوب لكل منهما أيضا سقف من الخشب ، وصنع باب المنزل من السنديان . وأحس ايفان فيودوروفتش باحساس الرجل الأنيق، ما أن يبلغ المرقص حتى يجد كل من فيه أكثر تأثقا منه ، وأوقف عربته بجوار أحد المخزنين اظهارا لاحترامه ، ثم مضى الى الباب الأمامي .

وصاح الرجل البدين جريجورى جريجوريفتش : « آه ، ايفان فيودوروفتش ! » ، وكان في هذه الأثناء يجتاز الفناء مرتديا سترته من غير رباط رقبة ولا صديري ولا حمالة ، على ان هذا اللباس على بساطته كان فيما يظهر يثقل على جسمه اثقالا شديدا ، فقد أخذ العرق يتصبب منه ، ثم أردف : « وى ! لقد وعدت بالزيارة بمجرد أن تنتهى من رؤية خالتك وهانت ذا قد غبت عنا فاطلت ! »

ولم يلبث ايفان فيودوروفتش ان وجد شفثيه نفسيهما تلمسان مرة أخرى تلك الوجنتين اللتين تشبهان الوسادة .

« لقد كنت مشغولا بالاشراف على المزرعة خاصة ، والحق اننى جئتك في عمل ، ولن أبقى الا لحظة » .

« لحظة ؟ وى ! انها لا تكفى ! » ، ثم صاح السيد البدين : « ايه ياغلام ! » ، ولبى السلام الممهود الذى يرتدى السترة القوزاقية وأقبل على سيده من المطبخ ، « قل لسكاريان ان يحكم اغلاق الباب ، اتسمعنى ؟ هيا وعجل ! وحل السؤاس «العريش» عن جواد هذا السيد فى التو واللحظة . هلا تتفضل بالدخول الى الدار ، فان الجو شديد القىظ هنا حتى لقد ابتل قميصى » .

واستقر رأي ايفان فيودوروفتش وهو يدخل الدار على الا
يضيع وقتا وان يتصرف في حزم على الرغم من حياته .
« لقد تفضلت خالتي فقصت على نبا وثيقة بهبة كتبها المغفور
له ستيبان كوزميتش ... » .

وما أن سمع جريجورى جريجوريفتش هذه الكلمات حتى شاب
ملاحمه تعبه شديد ، يجل عن الوصف .

واجاب قائلا : « آه ياعزيزى ، انى لا استطيع ان اسمع شيئا ،
ولا اخفيك ان صرصورا تسلل الى اذنى اليسرى ، الا تبا لاولئك
الروس الملتحين ، فهم يربون الصراصير فى اكواخهم ، وان القلم
ليمحز عن وصف ما انتابنى من ألم ، فقد ظل يخزنى ، ثم يخزنى
حتى جاءت امرأة عجوز فشفتنى على ايسر سبيل ... » .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته وقاطعه ، اذ رأى انه
يحاول ان يتأى عن الموضوع ، وقال : « انما قصدت ان أقول :
انه ورد فى وصية الطيب الذكر ستيبان كوزميتش ذكر وثيقة بهبة ،
وانى لأستحق بمقتضى هذا العقد ... »

« انى لأدرك ما تقول ، وهانذا أرى ان خالتك قد أنباتك بنبا
هذه الرواية ، قسما انها لغرية ! فان خالى لم يكتب وثيقة بهبة ،
صحيح ان الوصية اشارت الى وجود وثيقة من هذا القبيل ولكن
اين هى ؟ ما من احد أبرزها ، وانى لأقول لك هذا لاننى أرجو
لك الخير من كل قلبى ، قسما انها لغرية ! » .

ولم يحر ايفان فيودوروفتش جوابا ، فقد دار بخلده ان خالته
قد تكون مخطئة حقا .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « آه ، ها هى ذى أمى
واختاى ! أذن فقد أعد الغذاء ! فهيا بنا ! » .

وعندئذ أمسك ايفان فيودوروفتش من يده وقاده الى غرفة
وضعت على مائدة فيها الفودكا واطياب المأكولات .

وولجت الغرفة فى هذه الاثناء سيدة عجوز قصيرة القامة كابر يق
القهوة سواء بسواء ، ترتدى قبعة وفى صحبتها شابتان : احدهما
سقراء ، والاخرى سمراء . وتقدم ايفان فيودوروفتش الى السيدة

المعجوز وطبع قبلة على يدها كما يفعل السادة الفضلاء ، ثم قبل أيضا يدي الشابتين .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « أماه ، هذا هو جارنا ايفان فيودوروفتش شبونكا » .

ونظرت السيدة المعجوز مليا الى ايفان فيودوروفتش ، او ربما كان ذلك هو ما تراءى للأنظار ، على انها كانت مثالا للطيبة والبساطة مجتمعتين حتى بدا على المعجوز كأنها تود أن تسأل ايفان فيودوروفتش : « ما مقدار ما خللتم من خيار هذا الشتاء ؟ » .

وسألته السيدة المعجوز : « هل أصبت شيئا من الفودكا ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « لاشك انك لم تنالى كفايتك من النوم يا أماه ، كيف يسأل ضيف : هل أصاب شيئا من الفودكا أو لم يصب ؟ حسبك ان تقدميها لنا ، ولا عليك ان كنا اصبنا منها أو لم نصب ، فان هذا من شأننا . اى ايفان فيودوروفتش ، هل تصيب شيئا من فودكا القنطريون أو فودكا تروفيمون ؟ أيهما تفضل ؟ » ، ثم التفت وأردف : « وانت يا ايفان ايفانوفتش ، ما بالك تقف هناك ؟ » ، ورأى ايفان فيودوروفتش السيد الذى وجه اليه جريجورى جريجوريفتش الحديث يقترب من الفودكا وهو يرتدى سترة رسمية لها ذيلان كبيران وبنيقة ضخمة منتصبة غطت قفاه كله حتى بدا للأنظار ان رأسه قد استوى عليها كما يستوى المرء فى عربة .

واقبل ايفان ايفانوفتش على الفودكا وفرك يديه وتفرس جيدا فى القدح ثم ملاه ورفعه الى النور وافرغه دفعة واحدة فى حلقه ، على انه لم يجزع الشراب فى الحال بل راح يمصمه فى فمه جيدا ثم تركه آخر الأمر يهبط الى جوفه ، ثم أصاب شيئا من الخبز ومن الفطير المصنوع بالكماخ ، والتفت الى ايفان فيودوروفتش وسأله قائلا : « هل ايفان فيودوروفتش شبونكا هو الذى اتشرف بالتحدث اليه ؟ » .

وأجاب ايفان فيودوروفتش : « أجل ياسيدى » .

« لقد تغيرت كثيرا منذ رأيتك آخر مرة » ، ومضى يقول : « وى ! انى لأذكرك ولما تشب فى الطول عن هذا ! » ، ورفع يده عن الأرض

يارودة ، « ان أباك رحمة الله عليه كان من الرجال النادرين ، لا تقصده الا رأيت عنده بطيخا لا تجد له الآن نظيرا في أى مكان»، واسترسل يقول وهو ينتحى به جانبا : « وهاك شاهدا على ما أقول ، فانهم سيضعون امامك على المائدة بطيخا ، أجل بطيخا حقا! ولن تحفل بالنظر اليه » ، ثم هتف في شيء من الغموض والخفاء باسفا ذراعيه كما لو كان على وشك أن يمانق جذع شجرة ضخما: « أو تصدق ياسيدى انه كان عنده من البطيخ ما يبلغ هذا الحجم والله على ما أقول شهيد ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش وهو يأخذ بذراع ايفان فيودوروفتش : « تعال نتناول الغداء » .
ومضت الجماعة الى غرفة المائدة .

وجلس جريجورى جريجوريفتش في مكانه المألوف من طرف المائدة وقد لف نفسه بمفرش ضخم من مفارش المائدة جملة يبدو للأنظار شبيها بالأبطال الذين ينقشهم الحلاقون على واجهات محالهم ، وجلس ايفان فيودوروفتش في المكان الذى اجلسوه فيه قبالة الشابتين وقد علت وجهه حمرة الخجل ، ولم يدع ايفان ايفانوفتش فرصة الجلوس الى جواره تفلت من يده ، فقد سر في قرارة نفسه اذ وجد انسانا يستطيع ان يفضى اليه بما في جمبته من جوامع الاخبار وأشتاتها .

وقالت السيدة المجوز موجهة الخطاب الى ايفان فيودوروفتش اذ رأت الخادم الريفى الذى يرتدى سترة للسهرة رمادية اللون تفشاها رقع سود يقدم له صفحة من الطعام ، « دع الزمك يا ايفان فيودوروفتش فانه ديك رومى ! وعليك بالأوراك ! » .

وعلق جريجورى جريجوريفتش على قولها هاتفا : « اماه ، دميح وشأنه ! واعلمى ان ضيفنا يعرف كيف يأخذ ما يحلو له عليك بجناح يا ايفان فيودوروفتش ، وليكن الجناح الذى عليه الحوصلة! وى ! أنك لم تصب منه الا القليل ! فخذ ساقا ! يا غلام ، ما بالك ؟ اعزم عليه ! واجث على ركبتك ايها الوغد ! وبادره بقولك: خذ ساقا يا ايفان فيودوروفتش ! » .

وصاح الخادم الذى يحمل الطبق وهو يجثو : « خذ ساقا
يا ايفان فيودوروفتش ! »

وغمغم ايفان ايفانوفتش فى صوت خفيض وهو يلتفت الى جاره
مستهزئا : « ايه ! او تسمى هذا ديكا روميا ؟ اهيئة ديك رومى
تلك ؟ آه لو رأيت ديكتى الرومية ! انها لتحمل من الشحم ما لا
يحمله اثنا عشر ديكا من هذا القبيل ، لعمرى ياسيدى ، ان منظرها
وهى تتميح فى الغناء من فرط ما تحمل من شحم ولحم لشيء تنفر
منه النفس ! » .

فنهف جريجورى جريجوريفتش اذ وصل الى سمعه هذا التعليق :
« انك تكذب يا ايفان ايفانوفتش ! » .

ومضى ايفان ايفانوفتش يقول لجاره ، وقد تظاهر بأنه لم يسمع
ما قاله جريجورى جريجوريفتش : « ولا اخفيك اننى بعثت بها
انى جادياخ فى العام الماضى لعرضها فى السوق ، فبلغ ثمن الواحد
منها خمسين كوبكا ، ولكننى رفضت هذا الثمن المرتفع » .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، وقد علا صوته علوا ، وراح
يشد على كل مقطع من كلماته زيادة فى البيان : « ايفان ايفانوفتش !
أقول لك انك تكذب » .

ومضى ايفان ايفانوفتش على سنته كأنما كان هذا الكلام لا يعنيه
من قريب أو بعيد ، وراح يتحدث فى لهجته الممهودة وقد خفض من
صوته كثيرا : « أجل ياسيدى ، لم أقبل ذلك الثمن ، فما من
سيد فى جادياخ ... »

وصاح جريجورى جريجوريفتش : « لعمرى انك لأحمق يا ايفان
ايفانوفتش ! ان ايفان فيودوروفتش ليعلم من الأمر كله ما لاتعلم ،
وأنا واثق انه لن يصدقك ! » .

وبوغت ايفان ايفانوفتش هذه المرة حقا ، فلم ينبس ببنت شفة
بل أقبل على الديك بزدرده على الرغم من انه لم يكن يحمل من
الشحم ما تحمله تلك الديكة السمينة التى تنفر النفس من منظرها .

وتعطلت لفة الكلام لحظة وحلت محلها قعقة السكاكين والملاعق
والصحاف ، وغاب على ذلك كله ما أحدثه جريجورى جريجوريفتش
من صوت وهو يمصص النخاع من عظم الضأن .

وران السكون برهة ثم انبعث ايفان ايفانوفتش يسأل جاره على المائدة ميرزا رأسه من بنيقته الشبيهة بالعربة : «هل قرأت رحلات كورويينيكوف الى الأرض المقدسة ؟ انه لمتعة للقلب والنفس حقا ! وهيئات أن ينشر مثل هذا الكتاب في أيامنا هذه ، ولشد ما يؤسفنى اننى لم الحظ السنة التى كتب فيها ! » .

وما ان سمع ايفان فيودوروفتش اسم كتاب يذكر حتى اقبل على المرق المتبل بهمة ونشاط .

« انك لتعجب حقا ياسيدى اذا علمت ان مواطننا رقيق الحال كهذا استطاع زيارة كل هذه الأماكن . لقد قطع في رحلته تلك ياسيدى اكثر من ثلاثة آلاف فيرست ! ولاشك ان فضل الله هو الذى أتاح له ان يبلغ فلسطين وبيت المقدس » .

وقال ايفان فيودوروفتش ، وكان قد سمع الكثير عن بيت المقدس من الجندى الذى كان يقوم على خدمته : « اذن فانت تقول : انه زار بيت المقدس » .

وسأل جريجورى جريجوريفتش من طرف المائدة : « ماذا تقول يا ايفان فيودوروفتش ؟ » .

وقال ايفان فيودوروفتش : « لقد تهيأت لى الفرصة لمعرفة ما فى العالم من بلاد قاصية ! » وافعم قلبه بالسرور اذ أفلع فى النطق بمثل هذه العبارات المطنبة العسيرة .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، ولم يكن قد ميز كل ما قيل : « لا تصدقه يا ايفان فيودوروفتش ! انه يكذب دائما ! » .

وفرغ القوم من تناول غذائهم فى هذه الاثناء ، واوى جريجورى جريجوريفتش الى غرفته كشأنه ليغفو قليلا ، وتبع الضيفان مضغفهما العجوز والشابطين الى غرفة الاستقبال فوجدوا المائدة المعهودة التى تركوا عليها الفودكا عندما مضوا لتناول الغذاء وكانما مستها يد ساحر ، فحفلت بأطباق صغيرة من الربى على اختلاف أنواعها وصحاف الكرز وأنواع شتى من البطيخ .

وكان غياب جريجورى جريجوريفتش ملحوظا فى كل شيء ، فقد جنحت العجوز الى الاسراف فى الكلام ، وانطلقت بمحض اختيارها ومن غير اشارة ولا سؤال تغشى كثيرا من الاسرار عن صنع فطيرة

التفاح وتجفيف الكمثرى ، ولم يقتصر الأمر على المرأة المعجزة، بل لقد انحلت عقدة لسان الشابتين ولو ان الشقراء آثرت الصمت ، وبدا من مظهرها انها تصغر أختها بست سنوات وقد كانت على ما يلوح في الخامسة والعشرين من عمرها .

على ان ايفان ايفانوفتش كان اكثر القوم كلاما ونشاطا ، ذلك انه اطمأن الى ان أحدا لن يزجره او يقاطعه ، فراح يتحدث عن الخيار وزراعة البطاطس ويقول : ان عدد العقلاء في الأيام الخالية يزيد على عددهم اليوم زيادة لا تجدى معها المقارنة ! وان كل شيء يتحسن بمرور الزمن وتكتشف من الاختراعات أدقها وأشدّها تعقيدا . وما من شك ان الرجل كان من أولئك الأشخاص الذين يجدون في مواصلة الحديث لذة عظيمة ، فلا ينفكون عن الخوض في كل ما يمكن ان يخوض الناس فيه ، حتى اذا مس الحديث موضوعات خطيرة أو مسائل من مسائل الدين ايفان ايفانوفتش يتنهد بعد كل كلمة ويوميء برأسه قليلا . أما اذا تطرق الحديث الى أمور وثيقة الصلة بالشئون المنزلية فلا تلبث ان تجده يبرز رأسه من بينقته التي تشبه العربة ، ويقلب وجهه تقليبا يكاد يفصح عن كيفية صنع شراب الكمثرى المسكر ومبلغ ما يصل اليه حجم انبطيخ الذي كان يتشدد به ، ومقدار ما يحمل الأوز الذي يجول في فتائه من شحم ولحم .

وأخيرا أفلح ايفان فيودوروفتش في الاستئذان بعد جهد ، على ان يفادر القوم عند حلول المساء ، ومع ان الرجل كان قد ألف ان يستسلم للرجاء ، فانهم لم يستطيعوا استبقائه حتى المساء الا بشق الأنفس ، فقد صمم على رآيه ثم مضى .

- ٥ -

.. خلة جديدة تدبرها الخالة العزيزة ..

«هل انتزعت وثيقة الهبة من الأثم المعجوز؟» ، وهكذا ابتدرت الخالة ايفان فيودوروفتش بالتحية ملقبة عليه هذا السؤال ، وكانت قد ظلت تنتظره بضع ساعات على الدرج ، ولم تستطع آخر الامر أن

تقاوم ما تملكها من رغبة في الخروج الى الباب .
وقال ايغان فيودوروفتش وهو يترجل عن العربة الخفيفة : « كلا ياخالتي العزيزة ، فليس عند جريجورى جريجوريفتش وثيقة » .
« أو صدقته ؟ لقد كان ذلك المخبول يكذب عليك ! لسوف يقع في قبضتي يوما فأضربه بيدي هاتين ضربا مبرحا ، آه ، لو تم لى ذلك لخلصته من بعض شحمه ! ولعل من حسن الراى أن نشاور في الأمر أولا مساعد القاضى في ناحيتنا ، لنرى هل يحق لنا أن نستمدى القانون عليه ؟ ولكن ليس هذا بيت القصيد الآن ، هل كان الغذاء شهيا ؟ » .

« شهيا جدا - بل رائعا أيتها الخالة العزيزة » .
« فماذا أصبت اذن من الوان الطعام ؟ خبرنى ، فانى لأعلم ان السيدة المجوز تتقن الطهى » .
« عجيب قد قلى بالجن عليه قشدة مخشرة أيتها الخالة العزيزة ، وحمام محشو فى مرق متبل ... »

وسالته خالته : « وديك رومى بالقراصية ؟ » ، ذلك انها كانت هى نفسها بارعة فى اعداد ذلك الطبق .
« أجل ، كان من الوان الطعام ديك رومى أيضا ، الا ما املح اختى جريجورى جريجوريفتش وبخاصة الشقراء ! » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وتفرست فى وجه ايغان فيودوروفتش فأرخى بصره ، واحمر وجهه خجلا ، ثم طرات على ذهنها فكرة جديدة ، فراحت تقول فى غيرة وفضول : « تعال حدثنى ، ما شكل حاجبيها ؟ »

ولا يفوتنا أن نقول : ان الخالة العزيزة كانت ترى ان جمال الحاجبين هو أهم ما تتميز به ملامح المرأة .

« ان حاجبيها أيتها الخالة العزيزة يطابقان كل المطابقة ما وصفت به حاجبيك عندما كنت شابة فى مقتبل العمر ، ويفشى وجهها كله نمش صغير » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وقد سرنها الملاحظة التى أبداها ايغان فيودوروفتش غاية السرور ، وان كان لم يخطر بباله أن يطربها ، ثم أردفت : « أى ثوب كانت ترتدى ؟ ولو أن من

المتعذر اليوم الحصول على نسيج من نوع جديد كالذى صنعت منه ردائى هذا مثلا ، ولكن ليس هذا بيت القصيد ، او تحدثت اليها فى أمر من الأمور ؟ » .

« اتحدثت اليها ؟ ماذا تعنين ايتها الخالة العزيزة ؟ لملك تظنين . »

« واى ضمير فى هذا ؟ لو فعلتما ما عجب لذلك احد ، فلا اعتراض على مشيئة الله ! ومن يدري ؟ لعله كتب عليكم منذ ولادتكما ان تكونا زوجا وزوجة ! » .

« لست ادري كيف يرد مثل هذا القول على لسانك ايتها الخالة العزيزة ! يبدو لى من قولك انك لا تفهمينى على الإطلاق » .

فردت الخالة : « وى ! وى ! لقد تضايقت الفتى ، ولا عليه فانه لا يزال طفلا » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « انه لا يدري شيئا ، فلا جمن بينهما ولا سعين الى تعريف كل منهما بالآخر » .

وما ان فرغت الخالة من قولها هذا حتى خرجت لتلقى نظرة على المطبخ وتركت ايفان فيودوروفتش وحيدا ، ومن يومها وهى لاتفكر الا فى شيء واحد هو ان ترى ابن أختها وقد تزوج بأسرع ما يمكن . واخذت هى تدلل اطفاله الصغار . وشغل الاستعداد للزفاف عقلها حتى لوحظ انها زادت نشاطا وانطلقت تروح وتغدو ساخبة مضوضية ، ولو ان ذلك اساء الى العمل اكثر مما احسن اليه ، وآية ذلك انها كانت تقوم فى كثير من الاحيان بصنع كعكة ، وهو عمل لم تكن لتتركه قط للطاهية ، فتنسى كل شيء وتتخيل ان ابن أختها قد رزق ولدا صغيرا وقف الى جانبها يسألها قطعة من الكعكة ، فتمد له يدها باطيب ما فيها شاردة اللب ، وينتهز كلب الفناء هذه الفرصة فيخطف هذه القطعة الطيبة ، ولا يوقظها من سباتها الا صوت أسنانه تقمقمع ، فينال جزاءه المجهود : لطة من محراك النار ! ولم يقف بها الأمر عند هذا الحد ، ذلك انها نبذت هوايتها المحبوبة ، وانقطعت عن الصيد وخاصة بعد ان اخطأت ، فصادت غرابا طائفة انه حجل ، وهو أمر لم يحدث لها من قبل قط .

وبعد اربعة ايام رأى الناس آخر الأمر عربتها تخرج من الحظيرة الى الفناء ، وكان اوميلكو الحوذى الذى جمع فى برده صفتى البستاتى والحارس ايضا ، يدق منذ الصباح الباكر مثبتا الجلد

بالمسامير ويواصل مطاردته للكلاب التي كانت تلعق العجلات ، واني لاحسب ان الواجب يقتضيني ان اقول لقرائي : « ان هذه العربية كانت هي هي العربية التي الف ابونا آدم ان يركبها ! فاذا اجترا احد وزعم ان آدم كان يركب عربية اخرى كان في زعمه هذا كذابا اشرا ، وكانت عربته هذه مزيفة بلا ريب ، على اننا لا ندرى كيف بقيت العربية بعد الطوفان ؟ ولا حيلة لنا الا ان نفترض انه كان لها حظيرة خاصة في فلك نوح ، ولشدهما يؤسفني اننى لا استطيع ان ارسم لقرائي صورة حية لها .

وحسبنا ان نقول ان فاسيليا كاشبوروفنا كانت راضية عن صنعة عربتها كل الرضا ، لا تمل من ابداء اسفها على ان الطراز القديم من العربات اصبح في نظر الناس عتيقا باليسا ، وروعى في تركيب انعربة ان تميل قليلا على جانب منها بحيث يطل الجانب الايمن عن الايسر كثيرا ، وقد سرها ذلك ابلغ السرور بصفة خاصة ، زاعمة ان الشخص القصير يستطيع ان يركبها من جانب على حين يركبها الطويل من الجانب الاخر ، على ان العربية لم تكن تتسع لاكثر من خمسة اشخاص قصار القامة او ثلاثة في مثل قامة الخالة العزيزة نفسها .

وفرغ اوميلكو من عمله في العربية قرب الظهر ، واخرج من الحظيرة ثلاثة جياذ اقل عمرا من العربية بقليل ، وبدأ يشدها بحبل الى العربية الفخمة ، وركب ايغان فيودوروفتش من الجانب الايسر وخالته العزيزة من الجانب الايمن ، ومضت العربية في طريقها ، وراى الفلاحون الذين صادفوهما في الطريق هذا الموكب الضخم « ولما كانت فاسيليا كاشبوروفنا تخرج في العربية » ، فوقفوا في خشوع ، وخلعوا قبعاتهم ، وانحنوا انحناء كبيرا .

ووقفت العربية بعد مسيرة ساعتين عند الباب الامامى ، ولا حاجة الى القول بانه باب منزل ستورتشنيكو ، وكان جريجورى جريجوريفتش خارج الدار . وخفت امه العجوز واختاه الشابان الى غرفة المائدة لاستقبال الضيفين ، ودخلت الخالة الغرفة في مهابة وجلال ، وخطت خطوة في براعة كبيرة ، ثم قالت بصوت مرتفع : « يسعدنى ياسيدتى ان اتشرف بتقديم احترامى شخصيا ، وان

أشكرك في الوقت نفسه على الكرم الذي لقيه ابن أختي منكم ، مما الهج لسانه بالثناء عليكم . ان حنظنكم السوداء لفاية في الجودة ياسيدتي ، وقد رأيتها ونحن نجتاز القرية فهل لي ان أسالك عن مقدار ما تغله في الدسياتين (١) الواحد ؟ » .

واعقب ذلك تبادل القبلات ، وما ان استقر الجميع في غرفة الاستقبال حتى بدأت السيدة المعجوز الحديث قائلة : « أما عن الحنطة السوداء فلست أعلم امرها شيئاً ، فان هذا من شأن جريجورى جريجوريفتش ، وقد انقطعت صلتى بهذه الشئون منذ زمن طويل ، ولا أستطيع ان أتولاها الآن ، فقد تقدمت بي السن ، واني لأذكر ان الحنطة السوداء كانت فيما مضى ترتفع حتى تبلغ قمة الانسان ، اما الآن فالله أعلم بامرها ، وان كانوا يقولون : ان كل شيء قد تحسن في الوقت الحاضر » وزفرت المعجوز زفرة قد يرى بعض المراقبين فيها انها تنم عن قرن مضى ، هو القرن الثامن عشر .

وقالت فاسيليا كاشوروفنا : « لقد علمت ياسيدتي ان جواريك بارعات في صنع الطنافس » ، وبهذا القول ضربت الخالة على الوتر الحساس ، فبدأ الاشراق على وجه السيدة المعجوز ، وانطلقت تتحدث عن كيفية صبغة النسيج واعداد الخيط .

وانتقل الحديث في يسر من الطنافس الى تخليل الخيار وتجفيف الكمثرى .

وصفوة القول انه ما ان مضت ساعة حتى استفرقت السيدتان في الحديث كأنما ربطت بينهما صداقة العمر ، وكانت فاسيليا كاشوروفنا قد حدثتها فعلا في صوت هامس تعذر على ايفان فيودوروفتش ان يسمع كلمة واحدة منه .

وقالت السيدة المعجوز وهي تنتصب واقفة : « اجل ، اتحبين ان تلقى نظرة عليها ؟ » ونهضت الانستان هما وفاسيليا لتمضين جميعا الى غرفة الجوارى ، على ان الخالة العزيزة اشارت الى ايفان فيودوروفتش بأن يبقى ، وأسرت شيئاً الى السيدة المعجوز .

(١) الدسياتين : قطعة من الارض مقدارها نحو فدانين ونصف الددان .

وقالت السيدة العجوز وهي تنتصب واقفة : « أجل ، أبقى
ياماشنكا مع ضيفنا وحديثه حتى لا يشعر بالسأم ! » .

وجلست الأنسة الشقراء على الأريكة ، واستوى ايفان
فيودوروفتش على كرسيه كأنما يستوى على الأشواك ، وأحمرت
وجنتاه خجلا وأرخی بصره ، ولم يبد على الفتاة انها لاحظت ذلك ،
وجلست على الأريكة لا تحفل بشيء ، وراحت تتفرس في النوافذ
والجدران ، أو ترقب القط وهو يدور واثبا تحت المقاعد في تهيب
ووجل .

وتشجع ايفان فيودوروفتش قليلا وأحس بأن الأمر يقتضيه
أن يبدأ الحديث ، على أن كلماته جميعا كانت فيما يظهر قد ندت
منه وهي في الطريق الى لسانه ، ولم تطرأ بباله فكرة واحدة .

ودام الصمت بينهما قرابة ربع ساعة ، وظلت الأنسة جالسة في
مكانها لا تريم .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته آخر الأمر ، واستطاع
أن يقول في صوت تخالطه رجفة :

« لشد ما يكثر الذباب في الصيف ياسيدتى ! »

وأجابت الشابة : « ما أكثره حقا ! لقد صنع أخى مذبة لأمى
من خف قديم تقتل به الذباب ، ومع ذلك فقد بقيت منه حشود
وحشود » .

وبهذا انقطع الحديث ، ولم يستطع ايفان فيودوروفتش أن يجد
شيئايقوله .

وعادت السيدة العجوز آخر الأمر هي وخالته والأنسة السمراء ،
وواصلوا الحديث هونا ، ثم استأذنت فاسيليا كاشوروفنا من
السيدة العجوز وأبنتيها بالرغم من توسلاتهن بأن يقضيا الليلة معهن ،
وخرجت السيدات الثلاث الى الدرج يودعن الضيفين ، وظللن وقتنا
يومن برءوسهن الى الخالة وابن أختها وهما يطلان من العربة .

وسألته الخالة في طريقهما الى المنزل : « قل لى يا ايفان
فيودوروفتش ، فيم كان حديثكما عندما انفردت بالفتاة ؟ » .

فقال ايفان فيودوروفتش : « ان ماريا جريجوريفنا لفتاة مهذبة
راجحة العقل » .

« انصت الى يا ايغان فيودوروفتش ، فانتى لاود ان احديثك حديثا جديا ، هانت ذا قد جاوزت السابعة والثلاثين ، وحصلت فى خدمة الجيش على رتبة حسنة ، وقد آن لك ان تفكر فى الاطفال ويجب ان تتزوج . »

وصاح ايغان فيودوروفتش فى فزع : « ماذا تردين أيتها الخالة العزيزة ؟ زوجة ! كلا ياخالتي بالله عليك ! انك لتقتلينى خجلا ، فما عرفت الزواج بعد ، ولست ادري ماذا افعل اذا اصبحت لى زوجة ! » .

وقالت الخالة وهى تبتسم : « لتعرفن هذا يا ايغان فيودوروفتش ، لتعرفنه ! » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « وى ! ياله من طفل وى طفل ! انه لايدرى من امره شيئا ! » ، ومضت تقول بصوت مرتفع : « اجل يا ايغان فيودوروفتش ، لن نجد لى زوجة خيرا من ماريا جريجوريفنا ، ثم انك تميل اليها كل الميل ، وقد تحدثت الى السيدة المعجوز مليا فى الأمر ، ولسوف يسرها ان تصبح زوجا لابنتها ، صحيح اننا لا نعرف ماعسى ان يقول ذلك الفاجر جريجورى جريجوريفتش ، ولكننا لن نحفل به ، فاذا ركب راسه ولم يمهرها استعنا عليه بالقانون ! »

ودخلت العربية الفناء فى هذه الأثناء وازداد نشاط الجياد المتقدمة فى السن ، اذ احست باقتراب حظيرتها .

« استمع الى يا اوميلكو ، ودع الجياد تصب اولا كفايتها من الراحة ، ولا تأخذها لتستقى لحظة ان تخلع عنها سروجها ، فانها لا تزال تتوقد . »

واردفت الخالة وهى تترجل من العربية : « اما انت يا ايغان فيودوروفتش ، فانتى أنصح نك بأن تفكر فى الامر مليا ، ولأعجل الآن بالذهاب الى المطبخ ، فقد نسيت ان احديث سولوخا بما تعده لنا من عشاء ، وأغلب الظن ان المرأة المسكينة لايمكن ان تفكر فى الامر من تلقاء نفسها . »

ووقف ايغان فيودوروفتش كمن نزلت به صاعقة . صحيح ان ماريا جريجوريفنا كانت فتاة بهية الطلعة فائقة الحسن ، ولكن هذا شىء والزواج شىء آخر ! ذلك ان الامر بدا له عجيبا كل العجب،

غريباً ممعناً في الغرابة ، لا يفكر فيه إلا انتابه الخوف والفرع .
يميش مع زوجة ! ياله من أمر لايجوز التفكير فيه ! وكيف يصبر
على حال تمنعه عن الانفراد بنفسه في غرفة تخصه وتقتضيه أن
يعيش في صحبة شخص آخر دائماً ؟ وتصيب العرق منه وهو يزداد
أمعاناً في هذا الأمر .

وأوى الى فراشه وبكر في ذلك أكثر مما الف ، فعز عليه النوم
على الرغم مما بذله من جهد جهيد ، ثم زاره النوم ، ذلك الملائك
الذي يسكن اليه الناس جميعاً ، وما كان أعجبه من نوم ! ذلك انه
لم ير في حياته من الأحلام المهوشة المهلهلة مثلما رأى في منامه
هذا ، فقد تراءى له أول ما تراءى أن كل شيء يدور حوله صاحباً
موضوعياً ، وانه انطلق يجرى ويجرى بقدر ما تحمله ساقاه ، ثم
أخذ يلهث مبهور الأنفاس ، واذا بشخص يمسك بأذنه فيصيح
فجأة هاتفاً : « اف ! من هذا ؟ »

ودوى في أذنه صوت يقول : « اننى انا زوجتك ! » ، فاستيقظ
من نومه ، ثم خيل اليه انه قد تزوج ، وان كل شيء في منزلهما
الصغير كان غريباً كل الغرابة ، عجيباً غاية العجب ، وقد مد في
غرفته فراش لشخصين بعد أن كان فيها فراش لايسع الا شخصاً
واحداً ، واستوت زوجته جالسة على كرسي وانابه شعور عجيب ،
فقد احس بأنه لايعرف كيف يقترب منها ؟ وبماذا يحدثها ؟ ثم
بدا له ان وجهها وجه أوزة ، ثم التفت مصادفة الى الناحية
الأخرى فوجد زوجة أخرى وجهها وجه أوزة ، والتفت مرة ثانية
فوجد زوجة ثالثة ، فرابعة من خلفه ، فامتلاً قلبه رعباً وهرع الى
الحديقة ولكنه شعر بحرارة الجو فخلع قميصه فاذا بزوجة غيرهؤلاء
تجلس فيها ، فتصيب العرق من وجهه ودس يده في جيبه ليخرج
منديلاً فوجد زوجة سادسة في جيبه أيضاً ، ثم أخرج من أذنه
شيئاً من القطن فوجد زوجة سابعة تجلس فيها ! ثم انبعث يقفز
فجأة على ساق واحدة ، وقالت له خالته ، وهى تنظر اليه ، فى
لهجة وقور :

« أجل ، يجب ان تقفز الآن على ساق واحدة ، فقد أصبحت
رجلاً متزوجاً » ، ومضى اليها ، ولكن الخالة تبدلت غير الخالة ،

وانقلبت برجا لناقوس ، واحس ايغان شخصا يشده بحيل الى برج الناقوس ، فسأل ايغان فيودوروفتش في لهجة حزينة : « من ذا الذى يشدنى ؟ » ، « انى زوجتك ، اشدك لانتك ناقوس » ، فصاح : « كلا ، لست ناقوسا ، بل انا ايغان فيودوروفتش » ، وتصادف ان كان قائد المشاة يمر بالمكان فقال له : « بل انت ناقوس » ، ثم تراءى له فجأة ان الزوجة لا تمت للبشر بسبب ، وانما هي ضرب من النسيج الصوفى ، ورأى انه دخل حانوتا فى موجيليوف ، فسأله صاحب الحانوت : « اى نوع من النسيج تحب ؟ خير لك ان تأخذ زوجة فانها احدث طراز من النسيج فهو شديد الاحتمال وما من احد الا يتخذ منه اليوم معطفا » ، وقاس صاحب المحل النسيج ، وقص له زوجة ، تأبطها ايغان فيودوروفتش ، وذهب بها الى خياط يهودى ، وقال اليهودى : « كلا ، انه نسيج ردىء ، وما من احد يصنع من هذا النسيج معاطف اليوم » .

وأفاق ايغان فيودوروفتش من حلمه فزعا ، لايدرى اين هو ، واخذ العرق البارد يتصبب منه .

وما ان استيقظ فى صبيحة اليوم التالى حتى هرع الى كتابه الذى يتحدث عن الطوالع ، وكان بائع كتب فاضل قد دفعه صلاحه واستقامته الى تذييله بحاشية مختصرة فى الاحلام ، ولكنه لم يجد فى هذه الحاشية شيئا ما يمت من بعيد الى هذا الحلم المهوش .

وكان عقل الخالة العزيزة قد تفتق فى هذه الاثناء عن خطة جديدة سوف تزادون بها علما فى الفصل التالى .

مکان مسحور



مكان مسحور

قصة حقيقية رواها قندلفت

أقسم ان نفسى قد زهدت رواية القصص ! عجبا ! وما الذى كنتم تنتظرونه منى ؟ ان رواية القصص امر شاق حقا ، فهى تقتضى من المرء أن يظل يحكى ويحكى حتى يعز عليه أن يجد لنفسه مخرجا مما هو فيه ، وما دتمت تلحون فلا حيلة لى ، ولاقصن عليكم قصة ، وكل ما ارجوه ان تذكروا انها القصة الاخيرة : لقد وقف بنا الحديث عند القول باستطاعة الانسان أن يتغلب على الروح الشريرة أو قل الشيطان كما يسميه الناس . لما وقد بلغنا هذا فاعلموا ان هذا العالم يحوز فيه كل شيء ، وخير لنا الا نفصح هذا الافصاح ، فان الشيطان اذا شاء أن يمكر بك فعل ، والله على ما أقول شهيد .

لتذكروا ان ابنى قد رزق اربعة اولاد انا واحد منهم ، وقدكنت وقتئذ طفلا غريرا لا اتجاوز الحادية عشرة او دونها بقليل ، وانى لاذكر ما ساقص نباه عليكم كانه قد وقسح بالأمس ، أجل اذكر كيف انطلقت اجرى على اربع وأنبح نباح الكلاب ، فصاح ابنى ينهرنى وهو يهز رأسه : « استمع الى يا فوما ، لقد بلفت من السن ما يسمح لك بالزواج ، ولكنك تلح في الحمق كالمهرالصفير! » وكان جدى - يسر الله فواقه في العالم الاخر - لايزال على قيد الحياة يدب على رجليه دبببا لابس به ، وتملكه من حين الى حين نزوات وصبوات .

ولكن ما هكذا تقص القصص ! فقد ظل احدكم ساعة يحرك نار الموقد متمسا جذوة يشمل بها غليونه ، وهرع احدكم الى خلف مخزن الحبوب يبحث عن شيء ، فما هذا ؟ لو اننى حملتكم على الاصابات الى لكنتم فى حل من ان تفعلوا ما يحلو لكم ، ولكنكم ابيتم الا ان تلحوا على وتمعنوا فى الالحاح حتى اروى لكم قصة ،

فان شئتم ان تنصتوا فأنصتوا ، واحسنوا الانصات ! ..

في باكورة الربيع وسق أبى بعض العربات تبغا قصد به الى بلاد
القريم ليبيعه ، ولكننى لا اذكر عدد ما وسق من عربات ، وهل
كانت اثنتين او ثلاثا ؟ ذلك ان ثمن التبغ كان مرتفعا في تلك
الايام ، وحمل أبى معه اخى الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات
يعلمه التجارة، وتركنى في العراء أنا وجدى وأمى وأخا ثانيا وثالثا،
وكان جدى قد زرع بعض البطيخ في قطعة من الأرض بجانب الطريق،
ومضى يعيش في كوخ هناك ، وحملنا معه لنطرد الغربان والعصافير
من الحديقة . ولست ازمع ان ذلك كان على غير ما نحب ونشتهى،
فقد كنا في بعض الاحيان نصيب من الخيار والبطيخ واللفت
والبصل والبازلاء حتى يخيل اليك ، والحق يقال ، ان بعض الديكة
اخذت تصيح في بطوننا ، زد على ذلك ان ما فعله كان فيه كسب
لنا ، فقد كان المسافرون يجتازون الطريق وكل منهم يريد الحصول
على بطيخة ، ثم ان القوم كانوا يحملون الينا من المزارع المجاورة
الدجاج والديكة الرومية والبيض لقاء ما نعطيهم من خضراوات ،
وكان نباحنا عظيما .

ولكن أمرا واحدا كان يستهوى جدى أكثر من اى أمر ، ذلك
ان خمسين حوزيا او نحوهم كانوا يمرون بنا كل يوم وقد وسقوا
عرباتهم بالأحمال ، وأولئك هم الناس الذين شاهدوا العالم ، فاذا
بنا احدهم يروى لك قصة أرهفت اذنيك متطلعا ، وكان فرح جدى
بهذه القصص كفرح الجائع بلقيمات القاضى ، وكان يحدث في بعض
الاحيان ان يلقى جدى اصداقاه القدماء - وما من احد يجهل
جدى - وانك لتعلم كيف تكون الحال اذا اجتمع شمل الشيوخ
معا ، فهم يتحدثون في هذا وذاك من الامور ، ويقبلون من الحوادث
كيت وكيت ، وهكذا يمضى بهم الحديث ، فيذكرون امورا لا يعلم
الا الله متى وقعت ؟ ..

وقد حدث ذات مساء - وانى لاذكر ذلك كأنه قد وقع اليوم -
ان اخذت الشمس في الغروب ، وراح جدى يجول في الحديقة ينزع
أوراق الشجر التى كان قد غطى بها البطيخ اثناء النهار حتى
لا تلفحه حرارة الشمس .

وقلت لآخى : « انظر يا أوستاب ، هاك بعض الحوذية قد
أقبلوا علينا » .

وقال جدى وهو يضع علامة على بطيخة كبيرة حتى لا يأكلها
الفلمان : « أين الحوذية ؟ » .

وكان ستة من الحوذية يضربون فى الطريق يتقدمهم حوذى كلل
المتيب شاربه ، وكان لا يزال على مسيرة - ماذا أقول - عشر
خطوات منا عندما وقف .

« طاب صباحك يا ماكسيم . اذن فقد شاءت ارادة الله أن نعود
فنلتقى هنا » .

وزر جدى عينيه .

« آه طاب صباحك ، من أين أنت قادم ؟ وبولياشكا هنا أيضا!
طاب صباحك يا آخى ! يا للشيطان ! انهم جميعا هنا :
كروتوتريشكو أيضا وبيشيرتسيا ! وكوفيليك ! وستيتسكو !
طاب صباحكم ! » وراحوا يقبل بعضهم بعضا .

وفكوا سروج الثيران وأطلقوها ترعى ، وتركوا العربات فى الطريق ،
وجلسوا فى حلقة أمام الكوخ وأشعلوا غلايينهم ، ولو انهم لم
يفكروا فيها ، فما اظن انهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا فى اطمئنان
وهدهوء وقد استغرقوا فى رواية القصص وفضول الحديث .

وتناول الضيوف العشاء ثم اتحفهم جدى بالبطيخ ، فأخذ كل
منهم بطيخة وأمسك بسكين وراح يزيل عنها القشر فى اناقة « وكانوا
جميعا من الرجال المحنكين الذين خبروا العالم وتعلموا كيف يأكلون
جماعة ، ولست اغالى اذا قلت : انه لم يكن من العسير عليهم
أن يجلسوا الى مائدة سيد مهذب من افاضل الناس » وما أن
انتهى كل منهم من تقشير بطيخته جيدا حتى ضرب فيها بأصبعه
وشرب العصير من الثقب ، وأخذ يقطعها قطعما يضعها فى فمه .

وقال جدى : « مابالكما تقفان هكذا مشدوهين أيها الصبيان ؟
ارقصا أيها الجروان ! أين مزمارك الغاب يا أوستاب ؟ علينا
بالرقصة القوزاقية ! فوما ، ضع ذراعيك فى خاصرتك ، هلم !
أصبت ! والآن ! »

وقد كنت فى تلك الأيام فتى نشيطا خفيف الحركة ، الا لعنة الله

على الشيخوخة ! فقد أصبحت اليوم لا أستطيع لخطو في رشاقة كما كنت أفعل في شبابي ، وقد كانت ساقاي تطفران وتقفزان ، أما اليوم فهما لا تعرفان إلا الزلل والعمار ، وظل جدي يراقبنا وقتنا طويلا وهو جالس مع الحوذبة ، ولاحظت أن ساقيه لا تسكنان تحته ، كأنما كان هناك ما يجذبهما .

وقال أوستاب : « لترين يا فوما ان العجوز لن يلبث حتى يرقص » .

وما أن انتهى أوستاب من قوله حتى فرغ صبر العجوز، فقد كان يتوق كما ترى الى اظهار براعته للحوذبة .

فقال وهو ينتصب واقفا ويبسط ذراعيه وينقر بكعبيه : « ايه ايها الغلامان ! أهكذا يكون الرقص ؟ انما الرقص هو هذا ! » .

ولاشك انه كان يستطيع أن يرقص خيرا من ذلك لو انه كان يصاحب زوجة شيخ القوزاق ، وأخلى لنا له السبيل ، وانطلق العجوز يدور بساقيه في البقعة الملساء التي تجاوز أحواض الخيار ، وما أن بلغ وسط البقعة وأراد أن يأتي بخير ما عنده فيقفز بعض القفزات وساقاه تدوران في الهواء حتى أت ساقاه أن تبارحا الأرض على الرغم من كل ما بذل من جهد !

يا للبلاء ! لقد أخذ العجوز يتحرك مرة أخرى الى الخلف ثم الى الأمام ، وبلغ وسط البقعة ، ولكن هيهات ! لقد عجز الرجل عن الاتيان بهذه الحركة ، وظلت ساقاه ساكنتين كأنما قدتا من خشب : « انظروا ، لاشك ان هذا المكان مسحور ، وتلك مكيدة من مكايد الشيطان ! ان هيرودس عدو البشرية له يد في هذا الأمر ! » .

ولاريب ان الرجل لم يكن يرضى لنفسه هذا العار أمام الحوذبة، وكيف يرضى بذلك ؟ اذن فليبدأ من جديد ، وراح يقفز قفزات صغيرة تافهة كانت متمعة للناظرين ، ثم مضى الى وسط البقعة من جديد فمجز مرة أخرى عن الرقص !

« عجباً لك ، ايها الشيطان الملعون ! الا فليص حلقك بطيخة فاسدة ، ليتك هلكت وانت بعد صغير ، يابن الكلب ، انظروا اي عار جللني به في شيخوختي ! » . والحق أن شخصا اطلق ضحكة من خلف ظهره .

وتلفت حوله فلم ير حديقة البطيخ ولا الحوذبة ، بل لم ير شيئا ، فقد القى حفلا ينسبط من أمامه ومن خلفه ومن جانبه ، فهتفت : « وى ! هذا مستحيل ! » ، وبدا يزر عينيه فترأى له ان المكان ليس غريبا عليه كل القرابة ، فالى جانبه اجمة ، وخلف الاجمة عمود يرتفع في الفضاء حتى يبدو للأنظار من بعيد . الا لعنة الله على هذا كله ! فقد كان هذا الذى الى جانبه هو برج الحمام فى حديقة خضر القس ! وذلك الذى على الجانب الآخر شيئا يضرب الى السمرة ، وأمنن المعجوز فى النظر . فوجد ان هذا الشيء هو مخزن دراسة كاتب الناحية ، اذن فقد ساقته الروح الشريرة الى هذا المكان . وطفق الرجل يدور ويدور فوق على طريق صغير ، ولم يكن القمر ظاهرا ، وانما حلت محلة بقعة بيضاء تتألق من خلف غمامة سوداء .

وقال جدى يحدث نفسه : « لتكونن الريح شديدة غدا » ، ولم يلبث ان ظهر وميض شمعة فوق قبرعلى بعد قليل من الطريق ، « وى ! وى ! » ، ووقف جدى لايبدى حراكا ، ووضع ذراعيه فى خاصرته واخذ يتفرس فيما رأى ، وانطقا الضوء ، وتلاا ضوء آخر على بعد كبير ، فيما وراء الضوء الاول بقليل ، فهتفت جدى : « كنز! اراهن بأى شيء انه كنز! » ، وهم بأن ينفخ فى يديه استمدا اذا للحفر ، واذا به يتذكر انه لم يحمل معه مجرفا ، آه ! ما اشد أسفى ! لقدكنت خليقا بالا اتكلف من الجهد أكثر من ازاحة العشب فأجد الكنز النفيس تحت موطيء قدمى ! ولكن لاجيلة لى فى الامر الآن ، وحسبى ان اشير الى مكانه بعلامة حتى لانخوننى ذاكرتى» .

ثم جذب غصنا كبير الحجم لاشك ان الريح اطاحت به من شجرة ووضعه على القبر حيث رأى الشمعة تتألق ، ثم مضى فى الطريق . وخفت كثافة اجمة السنديان القصيرة العود ، ولمح سياجا ، فراح يحدث نفسه قائلا : « انظروا ! ألم اقل انها حديقة القس ؟ ها هو ذا سياجه ، وليس بيننا الآن وبين بستان البطيخ الا مسافة تقبل عن الفيرست » .

على انه عاد الى المنزل فى الهزيع الاخير من الليل وأبى ان يتناول شيئا من لقيمات القاضي ، وأيقظ اخى اوستاب وساله : أو فد

انصرف الحوذية منذ وقت طويل ؟ ثم التف بغطائه المصنوع من جلد الماعز، وسأله أوستاب : « أين استبقاك الشياطين اليوم يا جدى؟ » فأجابه وهو يحكم الغطاء حوله : « لاتسلى ، لاتسلى يا أوستاب، والأشاب شعرك ! » .

وأخذ يفظ غطيظا عاليا أفرع العصافير التي كانت قد حطت في بستان البطيخ ، فطارت وجلة مذعورة ، ولكن كيف كان يستطيع أن ينام ؟ على ان الشيخ كان ، رحمة الله عليه ، رجلا داهية يستطيع دائما ان يفلت من أى مازق ، فيلحق في بعض الأحيان قصة يقف لها شعر رءوسنا .

وما أن حل الظلام في اليوم التالي حتى ارتدى جدى ستروته وتمنطق بحزامه وتأبط مجرفا ووضع قبعته على رأسه وشرب ابريقا من الجعة ومسح شفثيه بنفسه ، ثم مضى الى حديقة بطيخ اتقس لايولوى على شيء ، ومر بالسياج وبأجمة السنديان القصيرة العود ، وكان يمتد في هذا الموضع طريق يلتف بين الأشجار ثم يبرز في الأرض المنبسطة ، فخيل اليه انه الطريق المهود ، وخرج الشيخ من الأجمة وتراءى له ان المكان هو هو ، مكان الأمس ، ورأى برج الحمام واضحا ، ولكنه لم يستطع رؤية مخزن الدراسة ، « كلا ، ليس هذا هو المكان ، ولاشك انه يبعد عن هذا الموضع قليلا ، ويخيل الى ان الأمر يقتضى ان انعطف قليلا ناحية مخزن الدراسة » ، وقفل راجعا ومضى في طريق آخر ، فاستطاع ان يرى المخزن ، ولكنه لم ير برج الحمام ، فانعطف مرة أخرى ، فرأى المخزن مختفيا على مقربة من برج الحمام ، وكأنما أرادت السماء ان تؤكد له ، فأخذت تمطر رذاذا ، وجرى ثانية صوب المخزن فاختمى برج الحمام ، وجرى شطر برج الحمام ، فاختمى المخزن ! فصاح : « ابها الشيطان الملمون ، تمنيت الا تعيش حتى ترى اولادك ! » .

ثم انهزم المطر فخلع حذاءه الجديد ولفه في منديل يقيه المطر ، وجرى كالرهبان سواء بسواء ، ثم دلف الى الكوخ وقد نفذ المطر الى جسده وتغطى بجلد الماعز ، وراح يتمتم بصوت خفيض ويسب الشيطان سبابا لم أسمع له مثيلا في حياتي قط ، ولو اننى سمعت

هذا السباب في وضع النهار لاحمر وجهى خجلا بلا شك .

واستيقظت في صباح اليوم التالي فرايت جدى يجول في بستان البطيخ كان لم يحدث شيء ، وراح الرجل يغطي البطيخ بورق الأرقطيون ، ثم عاد يتحدث اثناء الغذاء ويخيف أخى الأصغر قائلا: « انه سيعدل عن مقايضة البطيخة بدجاجة ويتخذ منه بديلا عن البطيخة . وصنع بعد الغذاء مزمارا من قطعة من الخشب ، وأخذ ينفخ فيه ، ثم أراد ان يروح عنا فأعطانا بطيخة التفت ثلاث لغات كأنها الأفعى ، وأطلق عليها اسم البطيخة التركية ، ولست أرى الآن لها مثيلا في اى مكان ، والحق انه حصل على بذور هذا النوع من بلاد بعيدة .

وفي المساء خرج جدى بعد تناول العشاء ، وحمل معه مجرفا يحفر به مهذا جديدا لليقطين المتأخر ، ومر بذلك المكان المسحور فلم يتمالك نفسه من القول مغمضا : « يا له من مكان ملعون ! » ومضى الى وسطه حيث البقعة التى لم يستطع ان يتم فيها رقصته بالأمس ، وضربها بالمجرف غاضبا ، فلم يلبث أن رأى الحقل المعهود يحيط به مرة أخرى من كل جانب ، ووجد برج الحمام الى جانبه باديا للعيان وعلى الجانب الآخر مخزن الدراسة ، « مرحى ، لقد كان من حسن التوفيق انى فكرت في حمل المجرف معى ، فهاهو ذا الطريق ، وهاهوذا القبر! وهاهوذا الفصن الملقى عليه ، وهاهى ذى الشمعة المعهودة ، آه ! لو كنت قد وفقت ولم أقع في خطأ! ».

وجرى متسللا وهو يرفع المجرف في الهواء كأنه يهيم بضرب خنزير ولغ بخطمه في بستان للبطيخ ، ثم وقف أمام القبر، وانطفأت الشمعة ، وقام فوق القبر حجر غطته الأعشاب ، وراح الشيخ يحدث نفسه قائلا : « يجب أن أرفع هذا الحجر » ، وحاول أن يحفر حوله الا ان الحجر الملعون كان ضخما ، فثبت قدميه في الأرض ودفعه عن القبر ، وتجاوب الوادى بصوته وهو يهتف : « أوه ! » ، ثم أردف : « ان هذا هو الطريق الصحيح الذى يجب أن تسلكه ! ولسوف تسير الامور من بعد في سهولة ويسر! ».

ووقف جدى عند ها.ا الحد ، وأخرج صندوق سموطه ونثر قليلا من السموط في يده ، وهم بان يرفعه الى انفه ، واذا بشيء

يمطس فوق رأسه عطسة اهتزت لها الأشجار وتلطح وجه جدى كله.
وقال جدى وهو يمسح عينيه : « لقد كان أجدر بك أن تدير
وجهك على الأقل ان شئت أن تمطس » ، والتفت حوله ولكنه
لم ير أحدا ، فمضى يقول وهو يضع صندوق السعوط في صدره
ويتناول مجرفه : « يبدو ان الشيطان لا يحب السعوط ، يا له
من أحمق! فما أصاب جده ولا أبوه شيئا من مثل هذا السعوط! » .
وبدا يحفر، وكانت الأرض رخوة غاص فيها المجرف ، ثم فقع
شيء ، فأزاح التراب فرأى قدرا كبيرة .
وصاح جدى وهو يدفع المجرف تحتها : « آه ! اذن فهذه
انت ! »

وصاح منقار عصفور كان ينقر القدر : « آه ! اذن فهذه انت ! » .
وتنحى جدى فسقط منه المجرف .
وثفى رأس شاة من اعلى شجرة : « آه ، اذن فهذه انت ! »
وجار الدب وهو يطل بأنفه من خلف شجرة : « آه ، اذن
فهذه انت ! »
وسرت رعدة في ظهر جدى .

وغمض يقول بينه وبين نفسه : « وى ! لشد ما يخشى المرء
ان ينطق بكلمة هنا ! »
فصاح منقار العصفور : « لشد ما يخشى المرء ان ينطق بكلمة هنا! »
وثفى رأس الشاة : « يخشى ان يقول كلمة هنا ! »
وجار الدب : « ان ينطق بكلمة هنا ! »
وقال جدى : « هم ! » ، واحس بالفزع يخشى قلبه .
وصاح المنقار : « هم ! » .
وثفت الشاة : « هم ! » .
وجار الدب : « هم ! » .
وتلفت جدى حوله في فزع ، تباركت يا الله ! يا لها من ليلة !

غابت نجومها واختفى قمرها ، ولم يجد فيها الا حفرا تكتنفه وهوة سحيقة عند قدميه ، وصخرة شامخة تشرف عليه ، ولا تلبث ان تنحط في اية لحظة فتھوى فوق راسه ، وتراى لجدى ان راسا بشما يطل من ورائها ، « اوه ! اوه ! » ، ويمتد انف كمنفاخ الحداد ، يلقي بسطل من الماء في كل فتحة فيغيب فيه ؛ وشفتان كأنهما كتلتان من الخشب ؛ وعينان حمراوان ناتشتان مستشرفتان ولسان برز من الفم ساخرا متھكما .

وهتف جدى متخليا عن القدر : « فليأخذك الشيطان ! الا لعنة الله عليك وعلى كنزك ! يا له من خطم كريبه ! » ، وهم الشيخ بالهرب مكتفيا من الضئمة بالاياب لولا انه تلفت حوله وتوقف ، فقد رآى كل شيء يعود الى سيرته الاولى ، « انما هى الروح الشريرة تحاول ان تخيفنى ! »

وراح يرفع القدر مرة اخرى ، فوجدها ثقيلة اشد الثقل ! فماذا يصنع ؟ وكيف يتركها بعد ؟ وبذل المعجوز غاية ما فى وسعه وقبض على القدر بكلتا يديه .

وهتف وهو يشدها شدا : « هيلاهوب ! هيلاهوب ! اف ، فلأروحن عن نفسى بشيء من السعوط ! » ، وأخرج صندوق سعوطه وتريث قليلا قبل ان ينشر من السعوط شيئا ، فقد بدا له ان يلقي حوله نظرة فاحصة ليستوثق من ان احدا لا يراه ، وخيل اليه ان المكان قد خلا من كل احد ، واذا بجذع الشجرة يبدو وكأنه يلهث وينفخ ثم برزت منه اذنان ثم عينان حمراوان ومنخران ينفشان ، وانف مجعد تراءى له انه على وشك ان يعطس ، فقال جدى بينه وبين نفسه ، وهو يدس صندوق السعوط فى صدره : « كلا ، لن أصيب شيئا من السعوط ، فان الشيطان سوف يبصق فى عينى مرة اخرى » ، وبادر الى القدر فخطفها خطفا وانطلق يسابق الريح ، الا انه شعر بشيء من خلفه يחדش ساقيه بالمسايح ، فلم يجد فى طوقه الا ان يقول : « آه ! آه ! » وهو منطلق بأقصى سرعته ، فلما بلغ حديقة القس تنفس الصعداء .

ورحنا نتساءل : « ترى اين ذهب جدى ؟ » ، بعد ان انتظرناه ثلاث ساعات ، وكانت أمى قد عادت من المزرعة منذ وقت طويل

وجاءت معها بقدر من لقيمات القاضى الساخنة ، على اننا لم نسمع بأى خبر من جدى ! وتناولنا العشاء مرة أخرى دونه ، وغسلت أُمى القدر بعد العشاء فلما وجدت مهاد البطيخ تحيط بها من كل جانب راحت تبحث عن مكان تلقى فيه ماء الفسيل ، وإذا بها ترى برميلا يندفع نحوها رأسا ! وكان الظلام قد بدا يرخى سدوله ، فأيقنت أن غلاما يتخايب مختفيا وراءه ويدفع به نحوها فقالت : « هذا خير ، ولاقين بالماء فيه » ، وأردفت القول بالفعل ، وقذفت بما فى يدها من الماء الساخن .

وصاح صوت يهتف : « اواه ! » فاعجبوا ما شاء لكم العجب ، فان هذا البرميل لم يكن الا جدى ، وى ! من كان يتصور هذا ! تالله لقد ظنناه برميلا مندفعا نحونا ، ولست انكر ، على ما فى قولى هذا من اثم ، ان منظر جدى وقد غرق رأسه الأشيب فى ماء الفسيل ورضعه قشر البطيخ ، كان مسليا يثير الضحك .

وقال جدى وهو يمسح رأسه بهذب سترته : « انتما المرأة الملعونة ! يا للحمام الساخن الذى جدت به على ، حتى لكأنى خنزير اعد للذبح قبل عيد الميلاد ! اما انتما ايها الصبيان فسوف تنالان شيئا آخر غير حلقات الخبز ! ثم لترفلان ايها الجروان فى الحلل الذهبية » ، ثم قال وهو يفتح القدر : « انظروا ماجئتكم به ! »

فأى شئ انطوت عليه القدر فيما تظنون ؟ هلموا فكروا جيدا ، وحذروا ، اتقولون : انه ذهب ؟ كلا ، لم يكن فيها ذهب ، بلانى لأخجل اذ اقول : ان ما فيها كان وسخا وقذارة ، وبصق جدى وطوح بالقدر ثم غسل يديه .

ومن يومها حملنا جدى على القسم بالا نثق بالشیطان .

وكان يهيب بنا فى كثير من الاحيان قائلا : « لا تصدقوه ! فان هذا العدو للمسيح لايقول الا كذبا ، فلا تصدقوه ، ابن الكلب ! فليس فيما يقول خردلة من صدق ! »

وكان الشيخ اذا سمع ان الامور قد اضطربت فى بقعة من الارض هتف : « هلمنا يا ولدى ، ولنرسم اشارة الصليب على الشيطان ! احسنتما ! احسنتما ! ولترسماها على الوجه الصحيح ! » ، ثم يبدأ فى رسم اشارة الصليب . اما تلك البقعة الملعونة التى مجز

فيها عن ان يتم رقصته فقد سورها ، وامرنا ان نلقى فيها بكل الفضلات والاعشاب والقمامة التي كان يجمعها من بستان البطيخ .

ارايتم كيف تسيطر الروح الشريرة على البشر ؟ اني لاعرف تلك القطعة من الارض حق المعرفة ، وقد استاجرها بعض الجيران من القوزاق من بعد ليزرعوها بطيخا ، انها لارض عظيمة تجود دائما بمحصول وافر ، اما هذا المكان المسحور فلم ينبت قط نباتا طيبا ، وقد يلقي القوم فيه بالبدور فيحسنون ، ثم لا يعلم احد كيف يكون نبتها ، هلى انها لا تنبت في الحق بطيخا ولا يقطينا ولا خيارا وانما تنبت شيئا لا يعلمه الا الشيطان وحده .

« النهاية »

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم علي نحاس
جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sac Paulo, BRASIL.
البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrophe Road
London S.E. 26
ENGLAND.
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

128.00
د.ا.هـ.ل.

هذه الرواية

الجزء الثاني وهو مكمل للجزء الاول ، وقد قدم له بانكو مربى النحل أيضا بمقدمة طريفة أعقبها بقصة ليلة عيد الميلاد ، وقصة انتقام رهيب ، وقصة ايفان فيودوروفتش شيمونكا وغالته ، وقصة مكان مسحور .

وفي هذا الجزء يواصل جوجول وصفه النابض بالحياة العاقل بالسخرية لاخلاق الشعب الروسي وأهل الريف فيه ونوادير الاسلاف والاجداد ، وتقاليد القوزاق ومرحهم وصخبهم ، وتندر فيه باهل الطبقة العليا .

وحسبنا أن نصف فضل جوجول على الادب الروسي فخرده ما قيل من أن جميع قصاصي روسيا خرجوا من تحت « معطف » جوجول .

وصفه تورجنيف فقال : « أنه في رأينا أكثر من كاتب ، فقد كشف لانفسنا عن أنفسنا » . وقال عنه دوستوفسكي : « لقد ضحك طول حياته من نفسه ، وضحكنا نحن معه ، وأطلقنا الضحك حتى بدأنا نبتكي في النهاية ... » .